









































































































































































































































































































































































































ونصارى اليمن والحبشة ويتحقق الحلم الكبير .  
وكانت العداوة مشتتلا أوارها بين المنذر ملك الحيرة والحارث بن جبلة  
ملك الغساسنة حلفاء الروم ، وقد خمدت إلى حين لما ساد الوفاق بين بيزنطة  
وفارس . ولكن العاهلين العربيين كرها ذلك السلام فقد تمكن المنذر من  
مباغثة أحد أبناء الحارث وكان يكلئ خيله في البادية فأسره وقدمه ضحية إلى  
العزى .

وعلم المنذر أنها الحرب بينه وبين الحارث بن جبلة فجمع كل ما يملك من  
قوة ومن حديد ، وخرج في معد كلها حتى جاء عين أباغ وهو واد من أودية  
العراق وراء الأنبار على الفرات لا يبعد كثيرا عن الحيرة ، وأرسل إلى الحارث  
الأعرج بن جبلة :

— إما أن تعطينى الفدية فأصرف عنك بمجنودى وإما أن تأذن بحرب .  
فأرسل إليه الحارث :  
— أنظرنا ننظر فى أمرنا .

فجمع الحارث عساكره وسار نحو المنذر والتقى الجمعان فى عين أباغ ،  
ودارت معركة رهية بين العرب والعرب سالت فيها الدماء وسقطت الجثث  
لتنهشها نسر السماء ، وقتل ابنان للحارث ودارت الدائرة على المنذر  
فاستشهد فى المعركة ، فسار الحارث بولديه القتيلى إلى الحيرة فأنهاها وأحرقها  
ودفن أبنيه بها ، ثم عاد إلى الشام يلحق جراحه .

وحركت الحرب التى نشبت بين دولة الغساسنة الموالية للروم ودولة  
الحيرة الموالية للفرس نار العداوة بين كسرى ويوسطنيانوس فأعلن كسرى  
الحرب على بيزنطة ، وخرج بجيوشه قاصدا أنطاكية وكان فيها عظماء جنود  
قيصر وبطارقة الشرق فنشب القتال بين صديقى الأمس القريب ، ودارت

رحى معركة رهيبة لا هوادة فيها ولا لين .  
وهجم الحراثون الإيرانيون على أسوار أنطاكية يعملون فيها معاوهم  
لهدمها ، وراح الفرسان ينزلون الفرسان ، وقد كان الفارس الإيراني مسلحا  
بتجانيف ودرع وجوشن وساقين ومسيف ورمح وترس وعمود وجعبة فيها  
قوسان بوتريهما وثلاثين نشابة ووترين مضافين يعلقهما في مغفر له ظهريا .  
كان الفارس الإيراني حصنا على صهوة جواده وكانت أسلحته أمضى من  
أسلحة الفارس الروماني ، فانهزمت جنود يوسطنيانوس أمام جند كسرى  
وتقهقرت وجنود فارس في أثرهم . واستمر القتال ضاريا في قلب أنطاكية  
وما لبثت أن انهارت مقاومة الروم وسقطت أنطاكية في قبضة كسرى  
أنو شروان .

وأمر كسرى المهندسين الذين كانوا في رفقة أن يصوروا له مدينة أنطاكية  
على ذرعها وغدد منازلها وطرقها وجميع ما فيها ، وأن ينوا له على صورتها  
مدينة إلى جنب المدائن فبنيت المدينة وعرفت بالرومية على صورة أنطاكية ، ثم  
حمل أهل أنطاكية حتى أسكنهم إياها فلما دخلوا باب المدينة مضى أهل كل  
بيت منهم إلى ما يشبه منازلهم التي كانوا فيها بأنطاكية .

وراح كسرى يغزو الدول الخاضعة للرومان فقد أصيبت حكومة بيزنطة  
بفساد بالغ ، فقد شرع حق انتخاب حكام المقاطعات فكان الحكام يشترون  
مناصبهم بالمال حتى إذا تم انتخابهم وتربعوا في مقعد السلطة فرضوا الضرائب  
المحلية ليعوضوا ما أنفقوه وليكدسوا الأموال في خزائهم الخاصة .

وقد نجحت تيودورا المؤمنة بوحدة طبيعة المسيح أن تقنع زوجها  
يوسطنيانوس أن يلغى بيع الوظائف وأن يمنح كل حاكم مرتبا من خزائن الدولة  
يعيش منه ، وأن يظل الحاكم بمقاطعته خمسين يوما بعد التخلي عن منصبه

ليجيب عما يوجه إليه من اتهامات ، وكان ذلك الإصلاح بعد أن استشرى الفساد في طول الإمبراطورية الرومانية وعرضها .

ولم يحاول يوسطنيانوس أن ينسق بين المقاطعات ولم يوحد السلطات التي تمنح لحكامها ، فكان يمنح سلطات استثنائية خاصة لبعض الحكام لكثرة اللصوص في مقاطعتهم أو لاتساع رقعة الإمبراطورية بها ، فكان ذلك الاستثناء يوغر صدور الحكام الآخرين ويزعزع صدق ولائهم للإمبراطور الذي يفرق بينهم في المعاملة .

وقد قلد يوسطنيانوس دقلديانوس في أن جعل الأبناء يمارسون مهن آبائهم وخاصة تلك المهن المتعلقة بالأرض ، وعين موظفا كانت وظيفته أن يمنع أى شخص من المقاطعات من الدخول إلى القسطنطينية إلا إذا كان له عمل بها ، وأمر بتكليف العاطلين بالمدينة بالعمل في مخازن الدولة فأحس الناس بالحجر على حرياتهم وضعفت حماسهم للدولة .

وفرض يوسطنيانوس ضريبة جديدة جلبت للدولة ثلاثة آلاف رطل من الذهب ، ولقد ضاق الناس ذرعا بضريبة الصادر وضريبة الوارد والضرائب غير المباشرة والعشور ورسوم الدمغة على الإيصالات والضرائب التي تجبى على بيع الرقيق وضرائب التراكات ، وقد أثقلت تلك الضرائب كاهل الشعب فبدا للناس في الإسكندرية وقبرص والمناطق الأخرى الخاضعة لحكم الرومان أن حكم كسرى أنوشروان أفضل من حكم يوسطنيانوس وضرائبه الفادحة . وكان يوسطنيانوس يستعين في حروبه بفرق البرابرة أو بقبائل بأجمعها تحارب تحت إمرة أمرائهم ، وقد تركت سياسة استخدام الجند الحلفاء أسوأ الأثر في الجيش الروماني ، ذلك أن القائد هو الذى يجمع جنده ويعولهم فلم يكن للحكومة المركزية سلطان عليهم . وزاد الأمر سوءا أن يوسطنيانوس لم

يمنع قواده أى قدر من السلطة ولم يضع فى أيديهم الأموال التى يؤلفون بها قلوب جنودهم ، فكان التمرد يطل برأسه فى أثناء المعارك وكان صوت التذمر يرتفع فوق قعقة السلاح .

وأوقفت الحروب التى نشبت بين فارس والروم ورود الحرير إلى الدولة الرومانية فحاول يوسطنيانوس أن يحافظ على سعره المنخفض وسن لذلك القوانين ، فكانت النتيجة أن قضى على صناعة الحرير لأن سر دودة القز لم يكن قد تسرب إلى القسطنطينية بعد . وقد اشترى الإمبراطور مصانع الحرير وصارت تجارة الحرير احتكارا إمبراطوريا ففرض ما شاء من الأسعار . فزاد ذلك فى استياء الناس وتذمرهم .

كانت القديسة هيلينا قد ابتدعت بدعة جلب الآثار المقدسة إلى القسطنطينية أيام قسطنطين فراحت الجثث المقدسة تتقاطر على المدينة ، فأحضرت هيلينا جثة القديس دنيال ونقلت بعدها جثة الخوارى أندراوس والقديس لوقا ، ونقلت جثة صمويل إلى عاصمة الرومان الشرقيين ، وعرفت جثة أشعيا طريقها إلى القسطنطينية . وفى أيام يوسطنيانوس جاءت جثة القديسة آن ، وشغل الناس بالأساطير وتمنوا أن يعثر المنقبون فى فلسطين على جثة مريم المجدلية .

وشغل الناس بالقديسين الذين يشفون ببركتهم من الأمراض عن الله ومسيحه ، واستعادت البيوت المقدسة المسيحية ما كان لأسلافها الوثنية من نفحات ، فلم يعد الرجال والنساء يهرعون إلى معابد أسكليبيوس أو لوكيتا الوثنية التماسا للشفاء من أسقامهم بل راحوا يتزاحمون على كنيسة القديس دميان والقديس فوزماس فهما يشفيان ببركتهما من كل الآلام والأوجاع . وصارت الأضرحة المقدسة لكبير الملائكة « ميخائيل » منتجعات للعلاج

والشفاء ، وراح الرجال يفزعون إلى ضريح القديس أرتميموس لشفاء عللهم الجنسية ، بينما تهرع النسوة لشريكته القديسة فيرونيا لإصلاح عقمهن . وانتشرت الخرافات في أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، فالأبالسة والشياطين في كل مكان ، وقد يتقمص الشيطان روح كلب أو يتحول إلى كلب ويشن هجوما ضاريا على الأتقياء ، وقد يبيع بعض الرجال أنفسهم للشيطان وهؤلاء يجوسون طوال الليل خلال القصور أو الدور أو الطرقات حاملين رعوهم على أكفهم . وشغل القسس بالشعوذة والسحر حتى إنهم كانوا يتخذون من الراهبات وسيطات في الجلسات التي يعقدونها لمعرفة غيب السموات ! ودب الوهن في جسم الإمبراطورية الرومانية فكان من اليسير على كسرى أنو شروان أن يفتح مدينة هرقل والإسكندرية ، وقد عصف بالإمبراطورية الرومانية القوية ربح تميز حكام على حكام والحجر على حرية الناس والضرائب الباهظة والجنود المرتزقة ، وكانت أعنف ربح ذلك الانقسام الديني بين يوسطينيانوس وزوجه ثيودورا .

كان يوسطينيانوس يؤمن بلاهوت المسيح وناسوته وكانت ثيودورا تؤمن بوحدة طبيعة المسيح فكانت تستخدم نفوذها لتحقيق النصر لعقيدها . كان يوسطينيانوس يؤمن بلاهوت المسيح وناسوته وكانت ثيودورا متربعة على قلب زوجها الإمبراطور . وعلى الرغم من اختلاف الزوجين في الدين فقد أثرت ثيودورا على زوجها وعلى قانونه الروماني الذي وضعه ، فقد زينت له أن يمنح المرأة حقوقها فمنح للزوجة حق الحصول من زوجها على أملاك تعادل صداقها ، ومنح للأرملة حق الوصاية على أطفالها ، فاستجاب لها ونجاء القانون متمشيا مع روحها وإن خالف روح بولس . وكانت ثيودورا تؤيد أتباع مذهب وحدة طبيعة المسيح في الخفاء وإن كان

ذلك التأيد يزيد هوة الاختلاف بين أبناء الإمبراطورية الواحدة ويوسع شرح  
الانشقاق . فلما ماتت الإمبراطورة ثيودورا دخل زوجها يوستنيانوس  
الحزين إلى جناحها ليلقى نظرة وداع على ما خلفت من متاع ، فإذا به يجد  
البطريق السابق أنثيموس الذى طرده لكفره إذ كان من أشد المتحمسين  
لمذهب طبيعة المسيح الواحدة فى غرفة من غرفاتها الداخلية ، وقد خبأته منذ  
اثنى عشر عاما . وغضب الإمبراطور وأحس أن ثيودورا كانت تعصف  
بأركان ملكه . ولو كان قلب ثيودورا ينبض بين جنبها لقاتل زوجها : « لو  
آمنت يا مولاي بوحدة طبيعة المسيح لشددت إليك مستعمراتك المؤمنة  
بوحدة طبيعة المسيح ، أما وإنك من المؤمنين بلاهوت المسيح وناسوته فأبشر  
بانفصام وحدة الإمبراطورية » .

عاد الحارث بن جبلة ملك الغساسنة إلى الشام بعد أن قتل المنذر ملك الحيرة ، ودفن ولديه في أرض خصمه ، ونهب عرب الشام عرب الفرس إرضاء لقيصر وانتقاماً من كسرى .

كان العرب مبعثرين في الأرض قد تمزقت كلمتهم وتباينت أهواؤهم وألقت البغضاء في قلوبهم ، فراح العربي يقاتل العربي ويسفح دمه لينال الحظوة عند يوسطنيانوس أو كسرى أنو شروان ، فقد ملئ قلب الحارث بالفرح لما أنعم عليه قيصر بلقب « الحارث البطريق ورئيس القبيلة » بعد أن انتصر على المنذر وقتله . وابتهج أبو كرب بن جبلة لما عينه القيصر عاملاً على غابات النخيل الواقعة على حدود فلسطين الجنوبية ، وخاض غمار المعارك مع الروم في حربها مع الفرس وقدم جنوده العرب وقوداً لنار المعركة . وقد انتفخت أوداجه غروراً لما أهدى إليه القيصر عشرين ألف أسير حرب فباعهم للفرس والأحباش وملاً جيوبه ذهباً .

ولم يقف تنافر عرب الحيرة وعرب الغساسنة عند حد العداوة السياسية وانضمام كل منهما إلى معسكر من المعسكرين المتنازعين على سيادة العالم ، بل وصلت العداوة إلى لب عقائدهم الدينية ، فلم تكن ممالك العرب وقبائلهم على قلب رجل واحد فقد كان نصارى الحيرة من النساطرة بينما كان نصارى غسان على مذهب القسطنطينية ، حتى سعى الحارث بن جبلة لدى الإمبراطورة ثيودورا لتعيين أساقفة للمقاطعات السورية من القائلين بوجود

طبيعة واحدة في المسيح . وقد بذل الحارث جهودا مضنية للتقريب ما أمكن بين الكنيستين المتنازعتين في قلب مملكته ، وفي تخفيف حدة غضب حكومة القسطنطينية على رجال المذهب الذي آمن به وعمل على انتشاره بين السريان وعرب الشام .

ولم يكن العرب الوثنيون في مملكة الحيرة ومملكة غسان يتعبدون لصنم واحد ، بل كان لكل قبيلة صنمها المعبود الذي ترفعه فوق الأصنام جميعا وتجعله شريكا لله في ملكه أو تجعله ابنا له أو بنتا . وكانت العداوة الدينية مستعرة بينهم وإن كانوا جميعا يحجون إلى البيت المقدس الذي أقام قواعده في مكة إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل صادق الوعد الأمين .

وكان التنافس قد دب بين الأوس والخزرج في يثرب ، فتحالفت كل قبيلة منهما مع قبيلة قوية من قبائل اليهود لتشد أزرها وتقف إلى جانبها إذا ما عدت القبيلة العربية الأخرى عليها ، فقد كانت كلمة اليهود هي العليا في يثرب ، وكانت البغضاء قد أقيت في قلوب الأوس والخزرج وإن كانوا يخرجون معا ليحجوا إلى مناة إلهتهم العظيمة التي نصب تماثيلها عند المشلل بقديد على ساحل البحر الأحمر على بعد أميال من المدينة ، وإلى البيت المحرم الذي كان مشابة للناس وأمنا .

وتقطعت الأوصال بين قبائل بنى إسماعيل من معديين ونزاريين وإياديين ومضريين وقرشيين ، فتنصر بعضهم وأشرك بعضهم وجعلوا لله أندادا ، وظل آحادهم على دين أبيهم إبراهيم حنفاء لا يشركون بربهم أحدا . ولم يعد يربط بينهم إلا ذلك البيت المحرم الذي يأتون إليه مهطعين ليذكروا الله ويتشفعوا إليه بشفعائهم في أيام معدودة .

وكان عرب اليمن يثنون من وطأة حكم الأحباش ، فقد فقدوا حریتهم

وصاروا تحت حكم أبرهة الأشرم الذى بنى كنيسة فخمة فى صنعاء جلب إليها أمهر صناع الروم ، واستورد لها الفسيفاء والزينة ليجذب عرب الجزيرة وليصدهم عن الكعبة التى يعظمها العرب جميعا وتهفو إليها أفئدة الناس . وانقسم العرب فى اليمن بين مسيحيين قائلين بوحدة طبيعة المسيح ، ومسيحيين قائلين بلاهوت المسيح وناسوته ، وبين متهودين يمارسون شعائر دينهم سرا خشية بطش أبرهة وأساقفته ، وبين وثنيين يعبدون الكواكب والنجوم ويتقربون إلى الرحمن بالأوثان والأصنام حتى إذا ما استدار العام وجاء أوان الحج شدوا الرحال إلى مكة ليطوفوا بالبيت العتيق وليؤدوا مناسك الحج ، ولتجاوب أرجاء مكة : « لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إلا شريك هو لك . تملكه وما ملك » .

وكان القرشيون يعيشون حول البيت العتيق تخرج قوافلهم من دار الندوة ويجتمع فيها ساداتهم الذين قد بلغوا سن الأربعين ليتشاوروا فى أمورهم كما يجتمع شيوخ الرومان فى مجلسهم ليدلوا برأيهم فى أمور إمبراطوريتهم . وقد انقادت زعامتهم إلى هاشم بن عبد مناف ولما يتجاوز الخامسة والعشرين . وقد مات هاشم بغزة فى شرح الشباب فحزنت عليه قريش حزن الشكى على وحيدها ، فتولى أخوه المطلب الرفادة وسقاية الحجيج من بعده ، فقد كان شبيه أكبر أبناء هاشم صبيا يلعب مع الغلمان هناك فى يثرب فى رعاية أخواله بنى النجار وأمه سلمى بنت عمرو الخزرجية .

وكانت سلمى تحدث ابنها عن أبيه زعيم قريش وسيد البطحاء ، وكانت تروى على مسامع الصبى مفاخر قومه فشب شبابه معتزا بقرشيته يذكرها على الدوام وكان يفاخر أترابه من الصبيان بشرف أهله كلما لعب معهم وانتصر عليهم .

وكان يذهب إلى بساتين يثرب وجنات بنى قريظة ويمد بصره إلى المروج  
الخضر ويصغى إلى خرير الماء فترق نفسه ، وكان يرقب نمو الزرع وارتفاع  
النخل فتعلم الصبر ، وكان يمشى في الأسواق وما أكثر ما جلس في حوانيت  
التجار اليهود فتعلم بعض فنون التجارة والحساب .

وكان يلقي سمعه إلى المحاولات الدينية التي كانت تدور بين اليهود فعرف  
شيئا عن التوراة وعن الله ويوم السبت . ولم يعرف شيئا عن البعث والحساب  
يوم الدين فقد كان اليهود يؤمنون بأن المرء يجزى عن عمله في الدنيا وأن اليهود  
وحدهم ينامون في حضن إبراهيم إذا ما ذهبوا إلى الأرض التي لا رجعة منها ،  
وقد جاءتهم تلك المعتقدات بعد أن حملوا إلى بابل وتأثروا بمعتقدات البابليين  
وفسد الدين .

وخرج شيبة ذات يوم ليلعب مع الفتيان وكان أحب اللعب إليه الرماية ،  
فدعا أبناء أخواه إلى مباراة في رمى السهام فاصطف الفتيان أمام هدف صغير  
في مثل الكف . وفي ذلك الوقت مر رجل من بنى الحارب بن عبد مناة ،  
فوقف يرقب المباراة من بعيد .

وراح الصبيان يرمون سهامهم فأخطئوا الهدف ، وتقدم شيبة وأزاح عن  
عينيه خصلة الشعر البيضاء التي تهدلت على جبينه ، ثم وضع سنهمه الصغير في  
قوسه وأطلقه فأصاب الهدف فرفت على شفثيه بسمة انتصار .

ووضع سهمًا آخر وصوبه فأصاب مرة ثانية فهزه الفرح وصاح مفاخرًا :  
— أنا ابن هاشم ، أنا ابن سيد البطحاء .

ورمى الرجل الصبي بنظرة فاحصة فألقى النور الذي كان يتألق في وجه  
هاشم يتلألأ في وجه شيبة ، ورأى الغلام تعلوه مهابة وكأنه ولد ليكون زعيما  
في قومه وسيدا من خيرة ساداتها .

وامتطى الرجل راحلته وانطلق إلى مكة للحج وقد عزم على أن ينبئ  
المطلب نبأ ابن أخيه هاشم الذى يتيه على أقرانه من بنى النجار بشرف منبته .  
وكان المطلب فى الكعبة يغدو ويروح يصدر أوامره لرجاله وعبيده ، فقد  
بدأ موسم الحج وكان عليه أن يوفر للحجاج الماء والطعام وأن يسهر على  
راحتهم . وبينما المطلب فى مجلسه إذ أقبل عليه ذلك الرجل وقال :

— لو رأيت ابن أخيك شيبة فىنا لرأيت جمالا وهيبة وشرفا . لقد نظرت  
إليه وهو يبارى فتياننا فى رمى السهام ويقول كلما أصاب الهدف : « أنا ابن  
هاشم ، أنا ابن سيد البطحاء » .

فرفع المطلب رأسه وقال :

— لا أمسى حتى أخرج إليه فأقدم به .

فقال الرجل :

— ما أرى سلمى ولا أخواله يتركونه لك .

فقال المطلب فى عزم :

— ما كنت لأدعه هناك ويترك مآثر قومه ومكانته ونسبه وشرفه .

وما جاء الليل حتى كان المطلب على ظهر راحلته يجد السير إلى يثرب ليعود

بشيبة ابن أخيه هاشم . ليشب بين أهله وفى بيت هاشم العظيم .

ووصل المطلب إلى يثرب وجعل يسأل عن شيبة حتى اهتدى إليه فوجده

يلعب بين الفتيان فعرفه ، خيل إليه أنه يرى هاشما فخفق قلبه وهاجت شجونه

حتى إنه أحس الدموع تبلل روحه قبل أن تترقرق فى عينيه ، ونادى فى رقة :

— شيبة .

فالتفت الفتى إلى الرجل الذى راح يتقدم نحوه وقد أشرقت ابتسامة حلوة

فى صفحة وجهه ، وأصبح المطلب على بعد خطوة من الغلام فلم يستطع أن

يكبح عواطفه فضم شيبة إلى صدره وقال :

— أنا عمك يا بنى . أنا المطلب .

ووقف الفتیان ينظرون دون أن تتحرك منهم الشفاه . كانت قلوبهم الغضة تستشعر روعة اللحظة وعظمة اللقاء فقد كانت أمجاد يثرب فى أحضان عز مكة وشرفها .

وقال المطلب للفتى الذى كان يرنو إليه فى حب وإكبار :

— ما جئت يا شيبة إلا لأعيدك إلى قومك .

وفى مثل لمح البصر احتلت صورة سلمى رأس ابنها واستولت على وجدانه ، وتدفقت كنوز محبتها فغمرت كل مشاعره فقال فى رقة آسرة :

— لا أبرح حتى تأذن لى أُمى .

وانطلقا إلى سلمى فقال لها المطلب :

— جئت أقبض ابن أخى وألحقه ببلده وقومه .

وأحست سلمى كأن خنجرا صوب إلى قلبها وكأن سقف الدار قد حر عليها وكأنها تهوى إلى واد سحيق ليس له قرار ، وشعرت بلوعة الفراق فإذا بمرارة فى نفسها ووقدة نار فى حلقها ودموع تحجرت فى مآقيها وانتشرت بين جنباتها نار ، فخطفت ابنها وضمته إلى صدرها وقالت فى صوت مرتجف مرعوب يقطر حزنا :

— لا لست بمرسلته معك ، إنه ابنى .

فقال المطلب فى إصرار :

— لن أذهب حتى آخذه معى ، إنه ابن أخى ونحن أهل بيت شريف فى قومنا والمقام ببلده خير له من المقام ههنا .

وصمت المطلب لحظة فقد كانت صفحة وجه سلمى مرآة تعكس

انفعالات نفسها ، كانت في ضيق وحيرة وأسى فقد جاء من يحاول أن ينزع من بين أحضانها ابنتها الحبيب ، ابن هاشم الذى ذهب ولن يعود . وغمرها خوف شديد فقد خيل إليها أن المجهول قد فتح فاه ليطبق على شيبة وكأنما قرأ المطلب أفكارها فقال :

— وهو ابنك حيث كان .

فقالت سلمى فى صوت متهدج وهى تضغط بذراعيها على الفتى النحيل الذى تهدلت خصلة شعره البيضاء على وجهه :

— دعنى ثلاثة أيام أفكر .

وراح شيبة يجوس خلال يثرب يقلب وجهه فيها كأنما يتزود منها بنظراته الأخيرة ، فقد أحس أنه مفارقها إلى شرف أهله . إنه يمد بصره إلى أطام اليهود والأوس والخزرج فيحس كأنما يراها لأول مرة ، إنها عز المدينة . وراح يمشى فى الأسواق يتلفت ، كان الحدادون فى حوانيتهم يصنعون أدوات الزراعة والدروع والسيوف والنجارون عاكفين على أعمالهم وقد ازدحمت سوق الصياغة بالمفتونين بالذهب . ترى ماذا سبرى فى مكة ؟!

وانطلق إلى بساتين المدينة وكانت جميعها فى أيدى اليهود فالعرب يحتقرون الزراعة ، ووقف يدير عينيه فى المكان : كان الزرع مختلفا ألوانه يسر الناظرين ، والمياه تترقرق فى القنوات كاللجين ، والثمار تتدلى كاللواقيت والزبرجد والمرجان . كان المشهد يده القلب ويشرح النفس ويلذ العين ، فجلس على الأرض وأطلق لخياله عنانه يسرح فى الماضى ويحاول أن يخترق ببصيرته حجب الغيب لعله يرى ملاح مستقبله المجهول .

وذهب إلى جبل أحد ، إنه جبل هائل يقف على مشارف المدينة كحارس عظيم فى وجهه صرامة وفى قلبه حب دفين . فاستشعر كأن مشاعره قد شدت

إلى ذلك الجبل وأن بينه وبينه أسبابا قد تتوطد على مر الأيام .  
وسخر شبية من مشاعره فكيف تتوطد الأسباب بينه وبين أحد وعمه في  
الدار ينتظر مرور الأيام الثلاثة ليحمله بعيدا عن أحد وآطام يثرب وبنى النجار  
وبنى قريظة والأوس وبنى النضير وقينقاع ، وبساتين المدينة وعيونها الجارية  
ونخيلها الذى انتشر فى أرجائها كأعمدة مقدسة فى معبد عظيم ؟  
وعاد شبية إلى دار أمه وقد تساوقت نفسه مع الكون كله وأحس تعاطفا  
بينه وبين كل ما وقعت عليه عيناه . ومر بالبيت الذى بناه تبع للنبي الذى حدثه  
عنه أحبار اليهود أنه قد صار فى حوزة بنى النجار ، وألقى عليه نظرة عابرة ثم  
دلف إلى الدار ليحكى مع أمه ينعم بالحب ويشنف أذنيه بمحدثها العذب ويفتح  
قلبه لكنوز العواطف الرقيقة التى كانت تنسكب فيه .  
ومرت الأيام وسلمى فى حيرة تتجاذبها عاطفتها ومصلحة ابنها الحبيب .  
إنها لا تطيق فراقه فأهون عليها أن تستل روحها من بين جبينها من أن ينتزع  
شبية منها ، وإنها لن تغفر لنفسها لو أن أنانيتها انتصرت على مصلحة ابنها  
الحبيب ، ففى ذهابه إلى أهله عزه وشرفه ومستقبله .  
وجاء المطلب ليسمع من سلمى قرارها فراحت سلمى تجمع شتات  
نفسها وتجاهد أن تلم ذاتها التى ذهبت شعاعا ، فكل خلجة من خلجاتها  
ترتجف وكل نبضة من نبضات قلبها تهتف بها أن ترحم نفسها وتبقى ابنها إلى  
جوارها بعد أن ذهب هاشم ولن يعود ، إنه نبضة منها بل هو خفقات الفؤاد  
ونور البصر وروح الروح . وتحرك لسانها وخرج الصوت منها ينطق بأقصى  
قرار تتخذه أرملة ، فخیل إليها أن صوتها غريب عنها كأنما كان آتيا من وراء  
غيب بعيد فقالت بصوت خافت :  
— أذنت لك فى أن تأخذه .

وأحست سلمى أن شيئاً قاسياً قد عصف بها ، وأنها توشك أن تنهار ، ولكنها تجلدت وراحت تقاوم الدموع التي جرت إلى عينيها تريد أن تسيل . واستشعر المطلب ما في مقالاتها من أسى وشجن فتحركت رفته ورأى أن من الأوفق أن يفر من الموقف المشحون بالانفعالات ، فأخذ شيبة من يده لينطلق به إلى الباب ، ولكن شيبة ارتمت في حضن أمه ونشج بالبكاء فانهمرت العبرات . وامتطى المطلب راحلته وأركب شيبة خلفه ووقفت سلمى تودع ابنها ، حتى إذا ما انطلقت الراحلة بالراكبين الكريمين لم تعد سلمى ترى شيئاً فقد حالت الدموع بينها وبين شيبة الحبيب . وأحست في تلك اللحظة أن آخر خيط يربط بينها وبين قريش بل آخر خيط يربط يثرب بمكة قد انقطع . وراح شيبة يتلفت يلقي نظرة وداع على مرتع صباه وأرض منبته ، وما إن خلف يثرب وراءه حتى أحس لأول مرة قسوة اليم فقد كان ذلك اليوم أول يوم تغيب فيه سلمى عن عينيها ، وإن كانت في ذاكرته لا تريم . وعجب الفتى في نفسه كيف قبلت أمه فراقه ولم يدر بخلده أن أمه إنما ضحت بسعادتها في سبيل مستقبل زاهر ينتظره ، فهو وريث هاشم صاحب الرفادة والسقاية ، وإنه لشرف عظيم أن يصبح ابنها ذات يوم الرجل الذي يطعم حجاج بيت الله ويروى ظمأهم .

ومر الفتى وعمه بمناة وكان الأوس والخزرج يعظمونها فألقى الناس يذبجون عندها ويطوفون بها ثم يستأنفون رحلتهم إلى مكة ليحجوا إلى البيت العتيق ، فقفزت إلى ذهنه تلك المحاورات التي كانت تدور بين اليهود عن الله وعن التوراة وعن أنبياء بنى إسرائيل . ولم يقو عقله اليافع على أن يستمر طويلاً في التفكير في الكون وفي رب اليهود وأرباب العرب فراح يشغل ذهنه بمراقبة الطريق والإصغاء إلى حديث المطلب .

وانقضت الرحلة وكان الوقت ظهرا عندما دخل المطلب مكة وهو راكب جملة وخلفه شيبة كأنه البدر يتألق وجهه بالنور ، كان كيوسف الصديق حسنا فلما رآهما الناس حسبوا أن المطلب اشترى له عبدا فراحوا يشيرون إلى شيبة ويقولون :

— عبد المطلب .. عبد المطلب .

وأطرق شيبة برأسه كما أطرق يوسف الصديق يوم أن أسروه بضاعة وباعوه في مصر بيع العبيد . كان شيبة يستشعر غربة وكان يوسف يستشعر غربة ولكن شيبة كان في حمى عمه وإن لم تحس نفسه بعد بالاطمئنان والهدوء . وأناخ المطلب راحلته ونزل عنها وأخذ بيد ابن أخيه ثم انطلقا إلى الكعبة ليطوافا بها ، وكان موسم الحج قد وافى فكانت الكعبة تغص بالعرب الذين أتوا من كل فج عميق ، فراح شيبة يطوف حول أول بيت وضع للناس وهو مأخوذ قد انشرح صدره للحرم الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا . وما أتم المطلب وابن أخيه طوافهما وانطلقا إلى الدار حتى عاد الناس يرمقون شيبة في إعجاب ويقولون :

— عبد المطلب .. عبد المطلب .

فصاح المطلب بهم :

— ويحكم ! إنما هو ابن أخى هاشم قدمت به من المدينة .

ودخل المطلب بيته فهرعت إليه زوجته ووقفت ترنو إلى الفتى الجميل ، فقال لها زوجها :

— شيبة ، ابن أخى هاشم .

ولم يكن للمطلب ذرية فقال لامرأته كما قال الذى اشترى يوسف من مصر لامرأته :

— أكرمى مشواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا .  
وذهب المطلب وشيبة إلى السوق واشترى المطلب لابن أخيه حلة جديدة ،  
ثم خرج به إلى الناس وقال :  
— هذا شيبة ابن أخى هاشم ، عدت به من المدينة .  
فنظر الناس إلى شيبة فى إكبار فقد كان وجهه يتلأأ بالنور كأبيه ، وكان  
على الرغم من حداثة سنه فخما كهاشم العظيم . وراح شيبة يغدو ويروح بين  
الكعبة ودار الندوة ودور بنى هاشم ودور قريش . لم يدعه الناس بشيبة بل  
أطلقوا عليه عبد المطلب .

كان لليهود في يثرب تسعة وخمسون أطما قد وضعوا فيها أسلحتهم وأموالهم وكدسوا فيها المؤن حتى إذا ما خافوا عدوا لهم دخلوا في آطامهم وتحصنوا بها ودافعوا عن أموالهم وأنفسهم وذرائعهم . وكان للعرب النازلين عليهم قبل قدوم الأوس والخزرج ثلاثة عشر أطما ، فلما قدم الأوس والخزرج من اليمن إلى يثرب تفرقوا في عالياتها وسافلتها . منهم من نزل مع قوم من بنى إسرائيل ومنهم من نزل وحده لا مع بنى إسرائيل ولا مع العرب . وأقامت الأوس والخزرج بالمدينة ووجدوا الأموال والآطام والنخيل في أيدي اليهود ووجدوا العدد والقوة معهم ، فمكثوا لا يحركون ساكنا خشية أن يجلبهم اليهود عن البلاد .

وعلى مر الأيام زاد عدد العرب القادمين من اليمن وصار لهم مال من التجارة ، فلما رأت قريظة والنضير — وكانتا أوفر قبائل اليهود عددا وأكثرها قوة — حال الأوس والخزرج خافوهم أن يغلّبوهم على دورهم وأموالهم فسألوهم أن يعقدوا بينهم جوارا وحلفا يأمن به بعضهم من بعض ويمتنعون به ممن سواهم . فتعاقدوا وتحالفوا واشتركوا في التجارة معا وكثرا الأخذ والعطاء بينهم .

وعلى الرغم من العداوة التي بين الصدوقيين والفريسيين من اليهود فقد وجدوا من مصلحتهم أن يتفقوا وأن ينصبوا عليهم ملكا خشية أن ينتهز الأوس والخزرج فرصة انقسامهم ويشبوا عليهم ويتزعروا الأرض منهم ، فرضوا

بالفيطوان ملكا عليهم .

وظهر في العرب القادمين من اليمن مالك بن العجلان أخو بني سالم بن عوف بن الخزرج ، فاتفق الحيان من الأوس والخزرج على أن تتول كلمتهم إلى مالك فصار مالك بن العجلان زعيم القوم وسيدهم .

وأحس الفيطوان قوة فراح يستبد بالناس ويشرع فيهم بما يشاء ، وقد كان مما شرعه أن ما من عروس في يثرب تهدي إلى زوجها حتى تدخل عليه فيكون هو الذي يغتصبها قبل زوجها .

وخطبت أخت مالك بن العجلان وتحدت ليلة زفافها فسال لعاب الفيطوان واشتهى أن يفرض ما سنه في قومه على الأوس والخزرج ، فلو أن أخت منافسه خضعت له لذل قومها وخضد شوكتهم وجللهم بعار لا يرفعون بعده رعوسهم أبدا ، فأرسل الطاغية أعوانه إلى أخت مالك بن العجلان ليبلغوها ما فرضه الفيطوان عليها .

وذعرت أخت مالك ولم تستطع صبرا فخرجت تبحث عن أخيها فوجدته في نادى قومه ، فنادت في لهفة :

— مالك ! أخى مالك .

فغضب مالك واربد وجهه وقام إلى أخته والغضب يعصف به ، فقال لها في حدة :

— لقد جئت بسببة يا هنتاه تنادينى ولا تستحي ؟!

فقالت له أخته وقد شرقت بدموعها :

— الذى يراد بى أكبر .

— وماذا يراد بك ؟

فأطرقت حياء وسالت عبراتها على خديها وقالت :

— أهدى إلى غير زوجى .

فشارت دماء مالك في عروقه فقال في ثورة :

— إلى من ؟

— إلى الطاغية ، إلى ملك اليهود .

— أكفيك ذلك .

وتزيا مالك بن العجلان بزى النساء ودخل مع أخته وقد أخفى سيفه في طيات ثيابه ، وجاء الطاغية ودخل حيث كانت أخت مالك وبعض النسوة فأشار للنسوة بالانصراف ، وأقبل على أخت مالك وقد ابسطت أساريه وأطلت الشهوة من عينيه وملأت بسمه الزهو والانتصار صفحة وجهه ، فإن هى إلا لحظات حتى يذل الأوس والخزرج وتساق إليه بناتهم قبل أن يدخلن إلى أزواجهن .

وأحس مالك كأن أتون نار اندلع في كيانه وامتلاً صدره بالحقد والغضب وثار كرامته ، فإذا بالسيف يرتفع في الهواء ثم ينقض كالصاعقة على عنق الطاغية قبل أن يضم فريسته بين برائته ، فإذا به ينهار كالجدار يخبط في دمه . ووقف مالك ينظر إلى ملك اليهود وهو يلفظ آخر أنفاسه والأفكار تنثال على رأسه ، إنها الحرب بين قبيلتيه وقبائل اليهود المنتشرة في كل مكان ، وإنه لا قبل له على حرب سافرة إذا ما أفاق اليهود من هول المفاجأة وجمعوا كلمتهم واتفقوا على الثأر لزعيمهم الذى اغتاله زعيم العرب في البلاد . فرأى أن يستعين بملك من ملوك العرب لينصره على اليهود الذين أرادوا أن يعبثوا بشرف العرب وأن يذلوا كبرياءهم .

إن آباءه قد خرجوا من اليمن فلماذا لا يفزع إلى ملك اليمن يطلب منه المؤازرة ؟ وكاد يستريح لذلك الخاطر ولكنه تذكر أن اليهودية انتشرت في اليمن

وأن رابطة الدين قد تكون أقوى من العصبية القبلية فرجع عن ذلك ترى وراح يفكر في حل آخر ، فهداه تفكيره إلى أن الحارث بن جبلة من أصل يمني مثله وأنه من أعوان يوسطنيانوس ملك الروم وأن ملك الروم يمقت اليهود وأن الحارث بن جبلة يسعده قتال اليهود إظهارا لنخوته وإرضاء لسيده .

واستراح لذلك الخاطر فانطلق إلى الرmq بن زيد بن امرئ القيس أحد بني سالم بن العوف بن الخزرج ، وكان دميما شاعرا بليغا وقال له :

— انطلق إلى ملك الغساسنة و صف له ما نحن فيه من ذلك وغلبة اليهود علينا واسأله النصرة .

فقال له الرmq :

— وماذا أنت فاعل ؟

— سأعمل على إنامة الفتنة حتى تقبل خيل الحارث بن جبلة .

وانطلق الرmq إلى الشام وقد راحت أفعال الحارث بن جبلة تمر بذهنه ويقيس عليها مستقبل سفارته . تذكر أن الحارث خرج إلى فلسطين وأحمد ثورة السامريين التي نشبت بين اليهود فاستراح لخوابه ، فإذا كان الحارث قد خرج إلى فلسطين لغزو اليهود فسيلبي نداء مالك بن العجلان وسينطلق إلى يثرب ليقضى على اليهود هناك كما قضى على ربوعهم في السامرة من قبل . ووصل الرmq إلى حوران فإذا بالكنائس قد انتشرت في ربوعها ، وإذا بالقصور والدور على جانبي طرقاتها التي ازدهرت بالأشجار ، وإذا بالناس في غدو ورواح يجوسون خلال أسواقها التي غصت بالسلع التي جلبت من القسطنطينية ومن روما ومن مصر ومن بلاد اليمن .

ولاح لعيني الرmq قصر ملك الغساسنة فخفق قلبه وراح يجمع شتات أمره ويستلهم فصاحته ، فإذا بأبيات من الشعر تتراقص على لسانه تعبر عن

حال قومه أصدق تعبير أهاجت عواطفه وأمدته بقوة شدت عزائمه .  
ودخل قصر الملك والتمس مقابلة العاهل الغساني فأذن له ، فسار في  
طرقات القصر وهو مبهور فقد كان القصر في فخامة قصور أباطرة الروم  
وأكاسرة الفرس قد زين بتماثيل رائعة ، وكان أفخمها تمثال يوسطنيانوس ملك  
الروم وحامي كنيسها .

وفتح باب قاعة العرش وما إن لمح الرmq الحارث بن جبلة وحوله وزرأؤه  
ورجال مملكته حتى خر ساجدا . وأذن له الملك أن يرفع رأسه فلما قام على  
قدميه رماه الملك بنظرة فاحصة فألفاه دميما غاية الدمامة فعجب في نفسه  
كيف يختار قوم مثل ذلك الدميم ليكون سفيرهم !

وأذن الحارث بن جبلة للرمق أن يسط قضيته فراح الرmq يتحدث في  
بلاغة كانت أعذب من الموسيقى ويصف حال قومه شعرا رصينا استولى على  
أفئدة سامعيه وراح يعمل فيهم عمل السحر ، فلما انتهى الرmq من مقالته قال  
له الملك :

— عسل طيب في وعاء خبيث .

ورفت على شفتى الرmq بسمة خفيفة ثم قال :

— أيها الملك ، إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه : لسانه وقلبه .

فقال الملك وهو يرمقه في إعجاب :

— صدقت .

وجمع الحارث بن جبلة جيوشه وخرج من حوران وقد أظهر أنه خارج إلى  
اليمن ليشارك في المعركة التي ستنشب هناك بين النصرانية واليهودية ، بين  
جنود الحبشة النصارى وبين ذى نواس اليهودى الذى خد لنصارى نجران  
أخدودا وأشعل فيه نيرانه وألقى فيه التصدي الذى الذين أبوا أن يرتدوا عن دينهم

ويدخلوا في دين اليهود . فلما كان في الطريق عرج إلى يثرب ليقاتل يهود المدينة وينصر أهله فقد قال له الرمتي فيما قال :

— إن الغساسنة من جفنة بن عامر وأن الأوس والخزرج من جفنة أيضا فعلى ذلك فجدهم الأعلى واحد .

ونزل جيش الحارث بن جبلة بذي خُرص وجاء إليه مالك بن العجلان سرا ، فراح الرجلان يتشاوران فقال مالك للملك :

— إن علم القوم ما تريد تحصنوا في آطامهم فلم تقدر عليهم ، ولكن ادعهم للقائك وتلطف معهم يأمنوك ويطمئنوا إليك ، فتباغتهم ، وتمكن من رقابهم .

وأرسل الحارث إلى أهل المدينة من الأوس والخزرج فأتوا إليه فوصلهم وأعطاهم ، فلما عادوا إلى دورهم وإلى أعمالهم راحوا يحدثون اليهود عن كرم ملك الغساسنة وعن الهدايا التي وصلهم بها وعن التحف التي يفيض بها معسكره وعن الأموال التي يحملها معه فسأل لعاب اليهود وتحرك فيهم طمعهم وباتوا يرقبون دعوة الملك .

وأرسل الحارث بن جبلة إلى اليهود يدعوهم إلى وليمة أعدها لهم وقال لهم رسله :

— من أراد العطاء من الملك فليخرج إليه .

وهز الفرح اليهود ودفعهم الطمع إلى الخروج بأولادهم وخدمهم رجاء أن يحبوهم الملك وأن يعودوا من عنده بأجزل عطاء . وانطلق اليهود رجالا ونساء زمرا إلى حيث أعد لهم الملك وليمة فاخرة وخلت الآطام من حراسها . وعلى ضوء المشاعل لاحت الموائد التي مدها الملك ككنوز ألقيت في الصحراء ، فهرع اليهود إليها وراحوا يتناولون ما لذ وطاب وكان وجوه القوم

ورؤساؤهم يحلمون بالهدايا الفاخرة التى سيحبوهم بها ملك الغساسنة .  
وامتد السمر وانتشر المرح فبدا كأن ذى حرض فى عيد من أعياد اليهود .  
ودبت حركة فى المكان فالتفت ضيفان الملك إلى مصدرها فإذا بجنود  
مقبلين ، فتهللت الوجوه وانشرحت الصدور ولاح الطمع فى العيون فقد جاء  
الجند بعطاء الملك الكريم ، واتجه الجنود إلى وجوه بنى إسرائيل وأشرافهم وإن  
هى إلا لحظة حتى ارتفعت السيوف وقطعت الرؤوس ، فبرقت أبصار النساء  
والغلمان ودب الخوف فى القلوب وندت من الشفاه أنات الهلع وماج الناس  
بعضهم فى بعض يستبقون إلى الآطام والحصون فرارا من الفرع الأكبر .  
وقتل الحارث بن جبلة أشراف اليهود ، وقد أراضى ذلك الأوس والخزرج ،  
فقد صارت لهم الكلمة العليا فى المدينة وسيرضى ذلك الإمبراطور  
يوسطنيانوس فقد كان ذو نواس ملك اليمن الذى تهود يعذب نصارى مأرب  
ونجران ، ولم تكن الحرب قد نشبت بين ذى نواس والحبشة ولم يكن أبرهة قد  
تربع على عرش اليمن بعد .

وكانت الأفراح فى دور الأوس والخزرج فراحوا يعبرون بالشعر عن  
مشاعرهم يمتدحون مالك بن العجلان الذى قتل طاغية اليهود ، ويمتدحون  
الحارث بن جبلة الذى نصر أهله وأعزهم فى المدينة فراح أحدهم يمدح مالكا :  
فليشهد بما أقول عصابة      بلويّة وعصابة من سالم  
وهل كان للفيطون عُقر نساكم      حكم النصيب وليس حكم الحاكم  
حتى حباه مالك عن عرسه      حمراء تضحك عن نجيعة قاتم  
وقام الرمق — العسل الطيب فى الوعاء الخبيث — يمدح ابن جبلة ،  
فأرهفت الأذان وساد السكون . وتدفق الرمق ينشد الملك شعرا ساحرا أخاذا :

الراشقات الفاتنات المرشقات بما جزيئنا  
أمثال غزلان الصرائم يأتزرن ويرتديننا  
الرَّيْطُ والديجاج والحلى المفصل والبريننا<sup>(١)</sup>  
وأبو جبيلة خير من يمشى وأوفاه يميننا  
وأبرهم براً وأعلمهم بهدى الصالحيننا  
القائد الخيل الصونع بالكمأة المعلميننا  
أبقت لنا الأيام والحربُ الملمة تعتريننا  
كَبْشاً له در يغل متونها الذكر السميننا  
ومعاقلاً شُمَّاً وأسيافاً يقمن وينحنيننا  
ومعله زوراء تجحف بالرجال الظالميننا

كان العرب ينشدون الشعر تعبيرا عن سرورهم وكان اليهود ينوحون على قتلاهم في دورهم وآطامهم ، وقد راحت سارة القرظية ترى من قتل من قومها :

بأهلى رمة لم تغن شيئا	بذى حرض تُغفئها الرياح
كهول من قريظة أتلستهم	سيوف الخزرجية والرماح
ولو أذنوا بأمرهم لحالت	هنالك دونهم حرب رَدَاخُ <sup>(٢)</sup>

وقفل الحارث بن جبلة ملك الشام عائدا إلى حوران وقد مهد المدينة للأوس والخزرج فتفرقوا في عالية المدينة وسافلتها واتخذوا الأموال والآطام وصارت لهم الكلمة والرأى . وأحس اليهود ذلة ومسكنة في المدينة التي كانت

(١) البرين جمع برة : كل حلقة من سوار أو قرط أو خلخال .

(٢) حرب رداخ : حرب ثقيلة تضم كتاب جرارة .

في قبضة يدهم ، ولما كان مالك بن العجلان هو الذى قتل طاغيتهم واستنصر ملك الغساسنة فنصره وقتل أشرافهم وجعل السؤدد في العرب فقد راح اليهود يلعنون مالك بن العجلان في كنائسهم وبيوت عباداتهم ، فبلغه ذلك فقال :

تَحَامَى الْيَهُودُ بَتَّلَعَانِيهَا      تَحَامَى الْحَمِيرُ بِأَبْـوَالِهَا  
وَمَاذَا عَلَى بَأْنٍ يَلْعَنُوا      وَتَأْتَى الْمَنَانِي بِإِذْلَالِهَا  
ولم يدم الوفاء بين الأوس والخزرج طويلا فإن رجلا من الأوس قتل رجلا من بنى ثعلبة وكان حليفا لمالك بن العجلان ، فقام مالك قبيلته الخزرج ليثأروا من الأوس قاتل حليفه ، فهبت الأوس للدفاع عن رجل قبيلتهم فنشبت حرب سُمِّير بين القبيلتين وكان النصر فيها للخزرج ، وكانت تلك الحرب فاتحة العداوة بين الحيين وبداية سلسلة الحروب التى نشبت بينهما على مر الأيام .  
واشتعلت نيران حرب أخرى بين الأوس والخزرج بسبب امرأة من بنى سالم ، وقد كانت الحرب بين بنى جحججا من الأوس وبنى مازن بن النجار من الخزرج ، وقد وقعت في موضع الرحابة انهزمت فيه بنو جحججا .  
وقد كانت الحروب تنشب بين الحيين العربيين لأسباب تافهة تثيرها العصبية الضيقة ، يشعل فتيلها في الغالب أفراد لا منازل كبيرة لهم في المجتمع يقومون بأمور سخيفة ، فإذا ما وقع على أحدهم اعتداء نادى قومه للأخذ بثأره فتشور الحروب وتسيل الدماء وتتسع هوة الخلاف وتلقى في القلوب العداوة والبغضاء .

كان عبد المطلب يجلس في الملتزم بين باب الكعبة والحجر الأسود يتعلم الكتابة والحساب مع صبيان قريش ، وقد كان الغلام جميل الصورة لين الجانب فطنا هذبت الفترة التي قضاها في يثرب نفسه ومنحته سماحة كسماحة أرضها الخضراء ورقة كركة جداولها الجارية بالخير والنماء ، وقد شب يتيما بعيدا عن أمه ليصلب عوده ويعتمد على نفسه ليصبح شخصية قوية فريدة في قريش .

وكان عبد المطلب إذا ما غادر الملتزم انطلق إلى دار الندوة ليجلس إلى جوار عمه المطلب ، وليصغى إلى شيوخ قريش وهم يتناجون ويتشاورون في أمر دينهم ودنياهم ، ويتخاصمون أحيانا وتشتد بينهم المنازعات أحيانا ثم يتداعون للصلح في أغلب الأحيان . فتلقن منذ نعومة أظفاره أساليب الإدارة وفنون السياسة وكان من يرشف منهم رحيق علمه سادة محنكين . وكان في مواسم التجارة يمشى في الأسواق ويمد بصره إلى السلع الواردة من الفرس والشام ومصر وبلاد الروم واليمن والحبشة ، فتسع مداركه ، ويرى الموازين والمكاييل والمقاييس والأخذ والعطاء بين الناس فيتعلم شيئا من الحساب وأصول التجارة ، وكان يلقي سمعه إلى أحاديث الوافدين من أنحاء الأرض فيلم بطرف من فنون الشعوب وآدابها ومن تاريخها ومن علاقة الدول بعضها ببعض .

سمع عبد المطلب ولا شك بالعداوة الناشبة بين كسرى أنو شروان وبين

يوسطينيانوس قيصر الروم ، ووصلت إليه أنباء العداوة بين الحارث بن جبلة والمنذر بن النعمان واضطهاد ذى نواس الذى تهود لنصارى اليمن ، فقد كانت قوافل التجارة تحمل الأنباء والجواسيس مع السلع التى تعرض فى الأسواق ، وقد سرت الأنباء من دولة إلى دولة عبر طرق التجارة واستفادت من تعبيدها كما استفاد الرسل والمصلحون والمبشرون وجحافل الجيوش .

وفى أوان الحج كان عبد المطلب يعاون عمه المطلب فى إطعام الحجيج وفى نقل الماء إليهم وتوفيره لسقايتهم وسقاية إبلهم ورواحلهم ، وقد عرف أن ذلك الشرف كان لأبيه وأنه ورثه فكان يتعجل الأيام لتكون له الرفادة والسقاية كما كانت لهاشم العظيم .

ونسى عبد المطلب يتمه ولم يعد يذكر إلا أنه قرشى من قريش سادات مكة وحكامها ، وقد توطدت أواصر المحبة بينه وبين شباب قبيلته إلا أنه اصطفى من بينهم حرب بن أمية بن عبد شمس فقد كانا لا يفرقان أبدا ، يتسامران حول الكعبة ويجوسان معا فى مكة وينطلقان إلى الأسواق يصغيان إلى الشعراء الذين يحولون الأسواق التجارية إلى نوادى أدبية ، فكان رنين النظم يربو أحيانا على رنين الذهب والفضة .

وعرف عبد المطلب العلاقة بين عملة قيصر وعملة كسرى وعملة النجاشى وعملة فرعون وعملة ملوك الحيرة والغساسنة واليمن ، والقروض والعقود والفوائد والربا . وقد عرف بعض ذلك أيام كان يلعب فى يثرب مع أقرانه ولكنه فى مكة أتقن معارفه فقد كان فى بيئة تعيش بالتجارة وفى التجارة وللتجارة .

ومرت الأيام وصار ابن هاشم رجلا فلم يهرع إلى الحانات يحتسى الخمر كأقرانه من قريش ، ولم ينطلق إلى البغايا المنتشرات فى كل مكان ولم يشد

الرجال إلى يثرب متعللاً بزيارة أخواله ليذهب إلى صاحبات الرايات الحمر اللاتي كان شباب العرب يمم إليهن ليروى شهوات الأبدان ، بل كتب على نفسه العفة ونأى عن رذائل الجاهلية .

وعزم عبد المطلب على الزواج فراح يفكر . إن سادات قريش يتمنونه زوجاً لبناتهم وإن أشرف مكة يرحبون به ، فإنه لشرف عظيم أن يتزوج قرشي فيهم فما بالك إذا كان ذلك القرشي بكر هاشم ومن ستول إليه الرفادة والسقاية بعد عمه المطلب ، فما أعقب المطلب وقد أشرف على الهلاك . ولكن عبد المطلب وطد نفسه على ألا يتزوج فتاة من مكة ، فقد انتشرت الرذائل في القبائل التي تحضرت وهو يريد زوجة طاهرة لم تدنس الحضارة حميد خصاها . وولى عبد المطلب وجهه إلى القبائل فألقى أن قبيلة هوازن لا تزال على فضائل بداوتها ، فشد الرجال إليها وخطب من جندب بن حجير ابنته السمراء . وقد ماجت القبيلة بالفرح إذ ارتبطت الأسباب بهذه المصاهرة بين القبيلة وبين قريش سادات الحرم .

وحمل عبد المطلب سمراء إلى داره فكانت نعم الزوجة ، ملأت حياته حبا وحبورا . ولكن لم تكن له عصبية من نسبه في مكة بل كانت عصبته في قريش ، وإن قريشا قد تنفس عليه مكانته يوما وتنكر لصلة الدم التي بينها وبينه ، إلا أن عبد المطلب لم يستشعر ذلك الخطر في ذلك اليوم فقد كان شابا يافعا ولم يكن زعيما في قومه حتى يكثر حساده وشائثوه .

وأنجبت له سمراء الحارث فقربه عينا ، وتهللت قبيلة سمراء بالفرح فقد ولد فيها سيد من سادات البيت المعظم وقد أصبحوا أخواله ، وعمما قريب يمرح أبناء سمراء حول الكعبة ويدرجون إلى دار الندوة ليلقنوا فيها الحكمة . ولكن سمراء لم تنجب لعبد المطلب غير الحارث فمنحوه كل حبهم وأحاطوه برعايتهم .

وتأهبت قوافل قريش للانطلاق إلى اليمن ، وامتلأت الكعبة بوجوه الناس  
ينتظرون خروج زعيم القافلة من دار الندوة . ومر الوقت وأزيمحت الستارة  
التي أسدلت على بابها فإذا برجل مهيب فخم قد علت السنون وجهه يحيط به  
هالة من قريش ، فهمس الناس :

— الفيض .

وتقدم المطلب ومن حوله عبد المطلب وحرب بن أمية ونوفل وعبد شمس  
وأشراف الناس وذهبوا إلى حيث أناخت البعير . وتعانق الرجال ثم ركب  
المطلب راحلته وأشار للقافلة أن تنطلق ففصلت العير وسارت في قطار طويل  
قاصدة اليمن ، فما كانت الحرب قد نشبت بعد بين حمير والأحباش ، وما كان  
أبرهة الأشرم قد استقر على عرش بلقيس .

ومرت الأيام والشهور وعادت القافلة إلى الحرم وقد نكس الرجال  
رعوسهم فقد مات الفيض ، مات المطلب صاحب الرفادة والسقاية الشهم  
الكريم في أرض اليمن غريبا ، كما مات هاشم غريبا في أرض عرة من الشام .  
وأراد عبد المطلب أن يتولى إرث أبيه وأن يصبح صاحب الرفادة والسقاية  
في مكة ، ولكن كان هناك عمه نوفل فهو أسن منه وأشرف ، وقد طمع فيما في  
يد ابن أخيه فمشى عبد المطلب إلى رجالات قومه فسألهم النصرة على عمه  
فقالوا :

— لسنا بداخلين بينك وبين عمك .

وأحس عبد المطلب أنه فرد ليست له عصبة تنصره في مكة ، فقد تزوج في  
القبائل فرأى أن يستعين بأخواله على عمه الذي ظلمه فكتب إلى أخواله :  
يا طول ليلي لأحزاني وأشغالي      هل من رسول إلى النجار أخوالي  
ينبى عديا ودينارا ومآزنها      ومالكا عصمة الجيران عن حالي

قد كنت فيكم ولا أخشى ظلامه ذى  
حتى ارتحلت إلى قومي وأزعجني  
وكنت ما كان حيا ناعما جديلا  
فغاب مطلب في قعر مظلمة  
إن رأى رجلا غابت عمومته  
أنهى عليه ولم يحفظ له رحما  
فاستنفزوا وامنعوا ضيم ابن أختكم  
ما مثلكم في بنى قحطان قاطبة  
أنتم ليان لمن لانت عريكته  
فخرج سعد بن عدى النجارى في ثمانين راكبا حتى أتى الأبطح، وبلغ ذلك  
عبد المطلب فخرج يتلقاه فلما اجتمع به قال :

— المنزل يا خال .

فقال سعد في عزم :

— أما حتى ألقى نوفلا فلا .

فقال عبد المطلب :

— تركته جالسا في الحجر في مشايخ قريش .

فأقبل سعد ورجاله من الخزرج حتى وقف على رأس نوفل، فلما رآهم نوفل

قال :

— أنعموا صباحا .

قالوا :

---

(١) في مشيته بغى من نشاطه .

— لا نعم صباحك أيها الرجل . أنصف ابن أختنا من ظلامته .

— أفعل بالحب لكم والكرامة .

وأنصف نوفل ابن أخيه وانصرف أخوال عبد المطلب من بنى النجار إلى يثرب ، ورأى نوفل أن ابن هاشم قد امتنع عليه بأخواله فحالف بنى عبد شمس على بنى هاشم . فدعا ذلك عبد المطلب إلى الحلف فدخل مع رجالات خزاعة الكعبة وكتبوا كتابا تحالفوا فيه وتعاهدوا على أن ينصر بعضهم بعضا على من عاداهم فكان في مكة حلف بنى عبد شمس وحلف بنى هاشم وخزاعة . وتأهبت قوافل قريش للخروج إلى العراق فراح العبيد يغدون ويروحون بين مخازن التجار ورواحلهم يضعون على ظهورها السلع التي ستباع في أسواق العراق ، ولما انتهى كل شيء خرج نوفل بن عبد مناف على رأس القافلة وكان نوفل آخر من بقى من بنى عبد مناف .

وانطلقت القافلة في ملك الله حتى إذا ما بلغت سلمان من ناحية العراق فاضت روح نوفل ، وقد هلك قبله أخوه هاشم بأرض الشام ثم عبد شمس بمكة ثم المطلب بردمان من أرض اليمن ، فراح الشعراء ييكون بنى عبد مناف أهل الجود والكرم ، وقال مطرود بن كعب الخزاعي ييكيهم جميعا :

يا عين جودى وأذرى الدمع وانهمرى

وابكى على السر من كعب المغيرات

يا عين واستنفرى بالدمع واحتفلى

وابكى خبيثة نفسى فى الملمات

وابكى على كل فياض أخى ثقة

ضخم الدسيعة<sup>(١)</sup> وهاب الجزيلات

---

(١) الدسيعة : العطية الجزيلة

محض الضريسة على الهم مختلق  
جلد النـحيرة ناء بالعظيمات  
صعب البـديهة لا نـكس<sup>(١)</sup> ولا كل  
ماضى العزيمة متلاف الكـريـمات  
صقـر تـوسط من كعب إذا نسبوا  
بُحبوحـة المجد والشم الرفيعات  
ثم اندبى الفيض والفياض مـطـلبا  
واستخرجى بعد فيضات بجـمات  
أمسى بردمان عنا اليوم مغتربا  
يا لهف نفسى عليه بين أمـوات  
وابكى لك الويل إما كنت باكية  
لعبـد شمس بشرفـات البـنيـات  
وهاشم فى ضريح وسط بلقعة  
تسفى الريحاح عليه بين غزات  
ونوفل كان دون القوم خالصتى  
أمسى بسلمـان فى رمس بمومة  
لم ألق مثلهم عُجـما ولا عـربا  
إذا استقـلت بهم أدم المطيمات  
أمست ديارهم منهم معطلة  
وقد يكونون زينا فى السريات

---

(١) لا نـكس : غير جبان .

أفناهم الدهر أم كلت سيوفهم  
 أم كل من عاش أزواد المنيات  
 أصبحت أرضى من الأقوام بعدهم  
 بسط الوجوه وإلقاء التحيات  
 يا عين فابكى أبا الشعث الشجيات<sup>(١)</sup>  
 يكينه حُسرًا مثل البليات  
 يكين أكرم من يمشى على قدم  
 يُعولنه بدموع بعد عبرات  
 يكين شخصًا طويل الباع ذا ثجر<sup>(٢)</sup>  
 آوى الهزيمة فراج الجليات  
 يكين عمرو العُلا إذ حان مصرعه  
 سمح السجية بسام العشيات  
 يئسه مستكينات على حزن  
 يا طول ذلك من حزن وعزلات  
 يكين لما جلاهن الزمان له  
 حُضر الحدود كأمثال الحميات  
 محتزمت على أوساطهن لَمَّا  
 جَرَّ الزمان من أحداث المصيات  
 أبیت لیلی أراعى النجم من ألم  
 أبكى وتبكى معى شجون بنياتى

(١) الشجيات : يقصد هاشم بن عبد مناف .

(٢) ذا ثجر : التمر يخلط بغيره ، يريد وصفه بالكرم .

وجاء أوان الحج فخرج كل غنى في قريش عن جزء من ماله إلى عبد المطلب ليصنع منه طعاماً للحجاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد ، وراح عبد المطلب يضع حياضاً من آدم بفناء الكعبة ، وراحت الإبل تجلب الماء من الآبار خارج مكة وتملاً الحياض ليشرب منها ضيف بيت الله .

وأشرف عبد المطلب على راحة الحجيج ، حتى إذا ما انتهى الموسم نام عبد المطلب ذات يوم في حجر إسماعيل يتفياً ظلال الكعبة فأتاه آت فقال :  
— احفر طيبة .

فقال عبد المطلب وهو لا يزال في نومه .

— وما طيبة ؟

واستيقظ عبد المطلب وقد أحس كأن قول الهاتف قد حفر في نفسه ، فراح يعدو إلى دار الندوة ويروح إلى بيته ويصغى إلى محدثيه قد شغل عن كل شيء بذلك الهاتف الذى أمره أن يحفر طيبة ، وما يدرى ما طيبة !

وأشرقت شمس يوم جديد فانطلق عبد المطلب وابنه الحارث إلى الكعبة وطافا بها ، ثم دخل عبد المطلب دار الندوة ليصرف شئون مكة ويجمع بساداتها يتشاورون في أمور دينهم ودنياهم ، وذهب الحارث ليشرف على عبيد عبد المطلب من روم وفرس وأحباش وبرابرة وأوروبيين أسرهم يوسطنيانوس من بلاد الشمال وباعهم بيع الرقيق .

وأشرف اليوم على الانتهاء وخرج عبد المطلب من دار الحكومة وذهب إلى مضجعه في الحجرة ونام فيه ، فجاءه الهاتف فقال :

— احفر برة .

— وما برة ؟

وذهب عنه الهاتف .

واستيقظ عبد المطلب وقد شغل بالرؤيا التي رآها وبذلك الهاتف الذى أمره مرة بحفر طيبة ومرة أخرى بحفر برة ، وما يدرى ما طيبة وما برة ، فلما كان الغد رجع إلى مضجعه ونام فيه فجاءه الهاتف فقال :  
— احفر المذنونة .

فقال عبد المطلب فى لهفة :

— وما المذنونة ؟

وذهب عنه وقام عبد المطلب وهو فى حيرة من أمره ، إن الهاتف هتف به أن يحفر طيبة وأن يحفر برة وأن يحفر المذنونة ، حتى إذا ما سأله ما طيبة وما برة وما المذنونة ذهب عنه ولم يوضح له أمره . وجعل عبد المطلب يفكر فى حلمه ويتساءل فى نفسه : الأضغاث أحلام أم أمر من السماء ؟ وإذا كان أمرا من الإله فلم لا يرشده الهاتف إلى كيفية تنفيذ ذلك الأمر وتحقيق رغبة السماء ؟ !  
وانقضى اليوم فلما كان الغد رجع عبد المطلب إلى مضجعه ونام فيه ، فجاءه الهاتف فقال :

— احفر زمزم .

— وما زمزم ؟

— لا تنزف أبدا ولا تئذم ، تسقى الحجيج الأعظم .

فقام عبد المطلب من نومه متهللا فقد عرف أن طيبة والبرة والمذنونة إنما هى زمزم بئر أبيه إسماعيل ، فانطلق إلى قريش فقال :  
— تعلمون أنى قد أمرت أن أحفر لكم زمزم .

فقالوا له :

— فهل بين لك أين هى ؟

— لا .

— فارجع إلى مضجعك الذى رأيت فيه ما رأيت فإن يك حقاً من الله بين لك ، وإن يك من الشيطان فلن يعود إليك .

فرجع عبد المطلب إلى مضجعه فنام فيه فأتى الهاتف فقال :  
— احفر زمزم .

— وأين هى ؟

— بين الفرث والدم ، عند نقرة الغراب الأعصم ، عند قرية النمل .  
وفهمها عبد المطلب ، إن زمزم عند منحدر قريش بين إساف ونائلة ، فغدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث وليس له يومئذ ولد غيره ، فوجد قرية النمل ووجد الغراب ينقر عندها بين الوثنين فامتلاً قلبه بالفرح . لقد صدقت رؤياه فجاء بالمعول وجاء بابنه الحارث ليشاركه فيه ، فشرع حفر زمزم ، ولم يأت بأحد من عبيده الروم والفرس والأحباش ليعاونوه فقد أبى إلا أن يكون ذلك الشرف فيه وفى الحارث ولده الحبيب .

وراح عبد المطلب وابنه يحفران وقد تصبب العرق منهما ، وزاح سادات قريش يمرون بهما ويسخرون من اللذين استجابا لوحى الشيطان . ولم تفت سخريتهم فى عضد عبد المطلب فقد كان الإيمان بالعثور على بئر زمزم ميراث أبيه إسماعيل يملاً أقطار نفسه .

وضرب عبد المطلب المعول فإذا به يرتطم بالحجارة التى طوى بها البئر ، فصاح صيحة فرح تجاوبت لها أرجاء مكة ، وجاء الذين كانوا يسخرون من عبد المطلب وابنه يهرولون ليسمعوا النبأ العظيم .

وعلمت قريش أن عبد المطلب قد عثر على بئر زمزم فحسدوه أن يكون له ذلك الشرف وحده ، فقالوا :

— والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما .

فقال عبد المطلب لابنه الحارث :

— رد عني حتى أحفر فوالله لأمضين لما أمرت به .

وعجز الحارث عن أن يرد عن أبيه وأن يحجز قريشا عنه حتى يتم حفر البئر التي أمره الله أن يحفرها ، فأحس عبد المطلب قهرا فلو كان له عشرة أبناء لما قدرت قريش على أن تحول بينه وبين ما يريد ، فالتفت إلى الكعبة فنذر لئن أكمل الله له عشرة ذكور حتى يراهم أن يذبح أحدهم قربانا إلى ربه .

وقالت له قريش :

— يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل وإن لنا فيها حقا ، فأشركنا معك فيها .

فقال في عزم :

— ما أنا بفاعل ، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم .

— فأنصفنا فإننا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها .

— فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه .

— كاهنة بنى سعد هذيم .

— نعم .

وركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى أبيه من بنى عبد مناف ، وركب من كل قبيلة من قريش نفر وانطلقوا ناحية الشام ، فقد كانت الكاهنة بأشراف الشام .

وساروا أياما حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام ، فنى ماء عبد المطلب وأصحابه فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة ، فذهبوا إلى من معهم من قبائل قريش وقالوا :

— اسقونا .

فأبوا عليهم وقالوا :

- إنا بمفازة ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم .  
فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه وأصحابه قال :  
— ماذا ترون ؟  
— ما رأينا إلا تتبع لرأيك فمرنا بما شئت .  
— فإني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرة لنفسه بما بكم الآن من القوة ،  
فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرة ثم واروه ، حتى يكون آخركم رجلا  
واحدا ، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعا .  
— نعم ما أمرت به .  
فقام كل واحد منهم فحفر حفرة ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشا ، وراح  
عبد المطلب يفكر فيما أشار به على أصحابه فأحس أنه تخادل . وضايقه أنه  
ركن إلى اليأس واستسلم للموت فهب واقفا وقد ارتسم العزم في وجهه فقال :  
— والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض ولا نبتغي  
لأنفسنا لعجز ، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد ، ارتحلوا .  
وذهب أصحاب عبد المطلب إلى رواحلهم فراح من معهم من قبائل  
قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون ، وتقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها ،  
فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفها عين من ماء عذب ، فصاح عبد  
المطلب فرحا وصاح أصحابه وتهللوا بالسرور ، ثم نزل فشرب وشرب  
أصحابه واستسقوا حتى ملأوا أسقيتهم .  
وذهب إلى القبائل من قريش الذين أبوا أن يسقوه ويسقوا أصحابه ،  
فقال :  
— هلم إلى الماء فقد سقانا الله ، فاشربوا واستقوا .  
فجاءوا فشربوا واستقوا وجعلوا ينظرون بعضهم إلى بعض يتلاومون ، إن

ربهم قد هدى عبد المطلب إلى بئر زمزم وقد فجر له الماء في الصحراء لما نفذ  
ماؤه وماء أصحابه ، لقد حكم الله لعبد المطلب مرتين فقالوا له :  
— قد والله قضى علينا يا عبد المطلب ، والله لا نخاصمك في زمزم أبدا . إن  
الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاوة هو الذى سقاك زمزم ، فارجع إلى  
سقايتك .

فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة ، وخلوا بينه وبين زمزم وكفوا  
عنه فراح يحفر هو وابنه الحارث ، فوجد فيها غزالين من ذهب وهما الغزالان  
اللذان دفنتهما جُرهم فيها حين خرجت من مكة ، ووجد فيها أسيافا وأدرعا  
فعاد الطمع إلى قريش ، إنهم خلوا بينه وبين البئر ولم يتصالحوا على أن يدعوا له  
ما فيها من كنوز ، فقالت له قريش :

— يا عبد المطلب لنا معك في هذا شرك وحق .  
قال في عزم :

— لا ولكن هلم إلى أمر نصف بينى وبينكم ، نضرب عليها بالقداح .  
— وكيف ؟

— أجعل للكعبة قدحين ولى قدحين ولكم قدحين ، فمن خرج له قدحاه  
على شيء كان له ، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له .  
— أنصفت .

وانطلقوا إلى هبل وكان في جوف الكعبة وكان أعظم أصنامهم ، وانطلقوا  
إلى صاحب القداح فجعل قدحين أصفرين للكعبة وقدحين أسودين لعبد  
المطلب وقدحين أبيضين لقريش ، وكان القدح سهمما يستقسمون به . فوضع  
صاحب القدح السهام في جراب وتأهب لإخراج أول سهمين .  
وراح عبد المطلب يدعو الله الذى هداه إلى بئر زمزم والذى فجر له في

الفلاة أن يؤيده وأن ينصره ، وضرب صاحب القداح يده في الجراب فخرج الأصفران على الغزالين .

فصاح عبد المطلب في فرح :  
— إنهما للكعبة . لبيت الله .

ومد صاحب القداح يده مرة أخرى في الجراب فخرج الأسودان على الأسياف والأدرع ، فقال صاحب القداح :  
— إنهما لعبد المطلب .

وتخلف قدحا قريش الأيضان .

فضرب عبد المطلب الأسياف بابا للكعبة ، وعلق في جوفها الغزالين من ذهب ، وشكر الله على أن هداه إلى زمزم ، لا تنزف أبدا ولا تدم ، تسقى الحجاج الأعظم .

كانت الأرض تنبض بالكراهية فقد وقعت العداوة بين كسرى أنوشروان ويوسطنيانوس ملك الروم ، وحارب المنذر ملك الحيرة وحليف الفرس الحارث بن جبلة ملك الغساسنة وحليف الروم ، وقد قتل المنذر في المعركة فاشتدت ضراوة نار العداوة بين عرب الفرس وعرب الروم ، ووطأت الحبشة بخيلها ورجلها أرض اليمن وصار أبرهة الأشرم ملك حمير دون منازع ، وإن كان يظهر الود لنجاشي الحبشة في الوقت الذي يلقي فيه سمعه إلى يوسطنيانوس الذي يزين له غزو الحجاز ليتصل نصارى بيزنطة بنصارى اليمن والحبشة .

وكانت تلك الدول جميعا تقاسى من الانقسام في داخلها ، وإن كان عواهلها يحاولون أن تبدو أمهم وحدة متماسكة تقف صفا واحدا خلف ملكها وقائدها وصاحب السلطان الدينى الذى يزعم أنه خليفة الله فى الأرض يفعل ما توحىه إليه السماء ، وإن كانت أبواب السماء قد أغلقت دون الجميع فقد طال عليهم العهد وقست قلوبهم وضلوا عن الصراط .

كان كسرى أنوشروان يحاول أن يقيم العدل فى مملكته ، فدعا إلى إيوانه بالمدائن الكبراء والعظماء وأصحاب الإقطاعيات وكبار الموظفين وقال لهم : — قد أتاح الله لى ملك الدنيا فأشرككم فيه وأعطيت كلا منكم ولاية ، ولم أمنع رزق من له على حق فى أثناء حكمى وتركت لعظمائكم ما أعطاهم أبى إياه من ولايات أو مناصب ، فما خفضت من عيش أحدكم ولا حططت

من قدر أحد .

فوعدوه جميعا بالإنصاف والعدل بين الناس ، وعاد الولاية إلى ولاياتهم غير مبالين بنصائحه ، وقد رأى كل منهم في غروره أنه أجلس الملك على العرش وأنه حر إن شاء اعترف به وإن شاء خلعه .

وكان أشدهم عتواً أحد القواد الذين عبنهم كسرى على الولايات وقد ولاه إقليم أذربيجان ولم يكن له مثل في القوة والجاه . فكان أكثر القواد أسلحة وحرسا وكانت قصوره أفخم القصور وأكثرها بذخا ، وقد أراد هذا الوالي أن ينشئ بيتا ريفيا فأراد أن يشتري كوخا صغيرا الفقيرة عجوز ، فأبت صاحبه بيعه واستولى على ملكها .

وحاولت العجوز أن يعوضها الحاكم عن كوخها ولكنه أعرض عنها ، وألحت في طلبها دون جدوى فلم تجد مفرأ من أن تفزع إلى كسرى فذهبت تلتمس مقابلة الملك في الصيد ورفعت إليه ظلامتها ، فأخذ الملك الشكوى وأمر أن تنزل ضيفة عند حاكم أقرب قرية منه ، ثم أمر بنقلها إلى قصره حين عاد من الصيد .

وأرسل كسرى رسولا إلى أذربيجان ووكل إليه أن يقوم بتفتيش جميع المدن والنواحي ، وأن يتحرى حالة الحقول والبساتين ليرى ما إذا كانت الضرائب التي فرضت عليها عادلة ، ويتأكد أأصاب المزروعات ضرر من الأمطار ثم ينظر في حالة المراعى وأماكن الصيد ، ولكن الرسالة السرية كانت بحث شكوى العجوز الفقيرة .

وعاد الرسول بعد أن علم أن العجوز محقة في شكواها ، فجمع الملك العظماء والموابذة وسألهم :

— كم يملك والى أذربيجان من نقود الذهب والفضة ؟

- لديه ما يساوى خمسمائة ألف دينار من أدوات الذهب والفضة .  
— ما قيمته ستمائة ألف دينار .  
— وكم لديه من الأملاك ؟  
— ليس فى خراسان أو العراق أو أذربيجان ناحية أو مدينة لا يملك فيها  
بيوتا أو حانات أو أرضا مشمرة أو بيوتا تستغل .  
— كم لديه من الخيل والبغال ؟  
— ثلاثون ألفا .  
— كم لديه من الغنم ؟  
— مائتا ألف .  
— كم لديه من العبيد إناثا وذكورا .  
— ألف وسبعمائة عبد تركى ورومى وحبشى ، وإن لديه أربعمائة وألف  
جارية .  
— أى عقاب يستحق رجل يملك هذا كله إذا طمع فى كوخ امرأة عجوز .  
فقيرة تقية فيسلبها كوخا والقليل الذى عندها ؟  
— إنه يستحق العذاب .  
فأمر كسرى أنو شروان بسلخه ورمى لحمه للكلاب ، وبملء جلده  
بالقش وتعليقه على باب القصر ، وأن ينادى المنادى سبعة أيام بأن من يرتكب  
عملا ظالما يلقى هذا الجزاء . وانتصف كسرى أنو شروان لعجوز فقيرة ولم  
يتنصف شعبه فقد كانت الضياع والأموال فى أيدي حفنة صغيرة من الولاة  
وكبار الملاك بينا كان سواد الشعب يقاسى الفقر والحرمان .  
وقد حالف كسرى رجال الدين الزردشتى لكى يخلص نهائيا من  
المزدكية ، وكان حر التفكير فكانت نفسه قابلة لبحث الآراء المختلفة فى

المسائل الدينية والطبيعية . ولم يكن يتردد في استخدام النصارى فى الوظائف ذات النفع العام وقد سمح لليعاقة أن يكونوا لأنفسهم فرقة وأن ينتخبوا جاثليقا لهم ، وعلى الرغم من ذلك التسامح فقد أعلن الموبدان موبد داد - هرمز على نصارى إيران حربا شعواء حينما بدأت الحرب بين الفرس والروم . وألف المسيحي بولس برسا وكان مطران نصيبين بعد ما تم الصلح بين إيران وبيزنطة سنة ٥٦٢ م مختصرا لمنطق أرسطو باللغة السريانية لكى يقرأه الملك ، وقد عرض فيه الآراء المختلفة بالله والعالم : « فقد وجد من يعتقدون فى إله واحد ، ويدعى آخرون بأنه ليس بواحد ، ويقول آخرون بأن له صفات متضادة ، وينفى آخرون عنه الصفات ، وبعض يقول إنه قادر على كل شىء ، وبعض آخر يقول إن قدرته لا تشمل كل شىء ، بعض يقول إنه خلق الدنيا وكل ما فيها ، وآخرون يقولون إنه ليس خالق كل شىء ، وهناك من يقول إن العالم محدث ، وآخرون يقولون إنه قديم .. » .

وراح يولس برسا مطران نصيبين بعد أن طال عليه الأمد وفسدت المسيحية السمحة يزين لكسرى أنوشروان الفلسفة ويفضلها على الدين ، ولم يكن الحال فى الدولة الرومانية أحسن منه فى مملكة الساسانيين ، فإن يوسطنيانوس أطلق العنان لهواه كلاهوتى ففرض على البطارقة والباباوات أنفسهم أن يتبعوا نظريته فى اللاهوت ، وكان يزج فى السجون من يعارض مذهبه الدينى .. وراح يجمع المجالس الدينية ، وقد جمع ثلاثة مجامع كنسية متعاقبة كان يقرر مبدأ جديدا فى المسيحية فى كل مجمع منها . وفى عام ٥٥٣ م عقد المجلس المسكونى الخامس واستنكر فيه قرارات المجامع الثلاثة السابقة ، وندد بالكفر المستتر الذى أقرته تلك المؤتمرات ! وراح يتنكر صيغا لقانون الإيمان رأى أنها لا بد أن تحوز رضا أصحاب

وحدة طبيعة المسيح ، وراح الإمبراطور يتعمق في خوضه في دقائق مذهب صورة المسيح وخفاياها في أثناء بحثه عن حل للمعضلة التي وضع فيها بولس الذي زعم أنه رسول جميع الذين آمنوا بفلسفته التي مزجها بالمسيحية ، فكان يوسطنيانوس يتأرجح بين لاهوت المسيح وناسوته ، وبين وحدة طبيعة المسيح وبين عقيدة التثليث التي يجذ العقل صعوبة في تصورها ، فوقع أخيرا في الضلالة ولم يكن رعاياه أحسن منه حالا .

وأخفقت سياسة يوسطنيانوس الدينية في أداء غرضها الرئيسي ، فولايات الإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت في شك من أمره وأمرها ، وكانت الولايات الغربية تستريه ، ولولا فداحة الضرائب التي أثقلت كاهل الناس لاندلعت السنة نيران الثورة ولقامت حرب أهلية بين القائلين بلاهوت المسيح وناسوته وبين القائلين بوحدة طبيعة المسيح ، فقد أقيمت العداوة بين الطائفتين وبينهما وبين القائلين ببنوة المسيح : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون ﴾ .

وكانت الحيرة توج بالشعراء في عهد عمرو بن المنذر الذي نسب إلى أمه هند ، فعرف بعمر بن هند . وكان رجلا سريع الانفعال يتألم كثيرا مما يقال له ، وكان الشعراء يحضرون إليه من أماكن نائية لإنشاده شعرهم ولنيل جوائزهم ، ولم تكن مجالسه لتخلو من منافسة الشعراء بعضهم لبعض ومن نقد بعضهم شعر بعض . وقد حدث أن جاء إليه طرفة بن العبد والمسيب بن علس فراح كل منهما ينقد شعر صاحبه ، ومال عمرو بن هند إلى أجدهما فهجاه الآخر ، وأصبح هجاء الشعراء له أمرا مألوفا ما دام قد قبل أن يكون حكما بينهم .

وكان للشعر والشعراء في ذلك الوقت منزلة عند العرب لا تدانيها منزلة ،

وكانت المفاخرات والمنافسات بينهم تؤدي إلى غضب القبائل وغضب الملك الذي كثيرا ما كان يتهم بتحييزه في أحكامه لشاعر على شاعر . وقد هجته الخرنق أخت طرفة بن العبد وهجت عبد عمرو بن بشر الذي وشى بطرفة عند ابن هند .

وكان امرؤ القيس الشاعر ابن عتمة وقد لجأ إليه مستجيـرا به أيام أن كان أبوه المنذر يتعقبه فأجاره ومكث عنده زمانا . فلما سمع به المنذر طلبه من ابنه فأنذره عمرو ، فهرب حتى أتى حمير مستجيـرا بها .

وقد طلب عمرو بن هند من بني تغلب حينما تولى الملك مساعدته في الأخذ بالثأر من الغساسنة ومن ملكهم الحارث بن جبلة قتلة أبيه فامتنعوا ، فانصرف عنهم وجمع الجموع ، فلما تهيأت كان أول عمل قام به غزو تغلب فأوجعهم وآذاهم انتقاما منهم لامتناعهم عن نصرته ومعاضدته .

وأغار عمرو على تميم وأغار على الشام وأغار على طيء وتوسط بين بكر وتغلب ابني وائل فأصلح بينهما بعد حرب البسوس وأخذ رهائن من كل حي من الحيين غلاما من أشرافهم ليكف بعضهم عن بعض . فكانوا يصحبونه في السلم والحرب .

وقد بنت أمه هند دير هند الكبرى في الحيرة ، وقد لقبت فيه بالملكة بنت الأملاك وأم الملك عمرو بن المنذر . وكان الملك وأمّه على دين النصارى من المؤمنين بوحدة طبيعة المسيح ، فقد كان العرب في كل مكان يؤمنون بأن لهذا العالم إلها واحدا ولكن الوثنيين منهم جعلوا لله شركاء فعبدوا في أرض الحيرة العزى والأصنام الأخرى وقالوا إنهن يقربنهم إلى الله زلفى .

وقد فسد الدين في الحيرة كما فسد في كل مكان على وجه الأرض ، وشغل الناس بشعر الشعراء الذين كانوا يفدون من كل أنحاء بلاد العرب

لينشدوا شعرهم ولينفثوا نار العداوة في القبائل والنفوس . « والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون » . وكان عرب الشام في كنف الروم فكانوا وعرب الفرس في الحيرة ألد الخصوم . فكانت وحدة العرب ممزقة ولم يكن بينهم إلا الحروب والدماء والثرارات : وكان الحارث بن جبلة ملك الغساسنة على دين عمرو بن هند ، كان من المؤمنين بوجود طبيعة واحدة للمسيح ، ولكن السياسة فرقت بينهم وأشعلت نار الحروب التي جعلت العربى يقتل العربى إرضاء لكسرى وقبصر .

كانت المدائن قبله ملوك الحيرة ، وكانت القسطنطينية قبله ملوك الغساسنة . ففي سنة ٥٦٣ م ولى الحارث بن جبلة وجهه شطر القسطنطينية ليفاوض رجال الحكم فيمن سيخلفه على العرش بعد وفاته من أولاده ، وفي السياسة التي ينبغي سلوكها قبل عمرو بن هند ملك الحيرة !

واستقبل الحارث استقبالا حافلا في القسطنطينية ، وترك أثرا عميقا في نفوس أهل العاصمة وفي رجال القصر والحاشية . وقابل الحارث الإمبراطور يوسطيانوس وأبرمت بينهما معاهدة تعمل على زيادة شقة الخلاف بين عرب الفرس وعرب الروم ، فقد كان رجال السياسة في القسطنطينية يرون أن في اتفاق كلمة العرب قضاء على سلطان الروم والفرس جميعا .

وكان الدين قد فسد في أرض الشام كما فسد في الحيرة ولم يبق منه إلا القشور ، وكان الفساد قد تغلغل في كيان شعوب الأرض حتى النخاع ، وقد ران على نفوس البشر ظلام من جور السادة ، وقلق أثاره من لبسوا مسوح الرهبان وراحوا ينهلون من مناهل الفلسفة ، وضياع مذضل قواد سفينة البشرية عن مرفأ الدين وهم يحسبون أنهم على الطريق .

وكان اليهود يقاسون مر الاضطهاد في أرض الروم وفي البلاد التي تخضع للروم أو تعتنق مذهبها الدينى ، ففى القسطنطينية وفي أرض الشام وفي اليمن بعد أن وطئتها جيوش الحبشة وانتصرت على ذى نواس المنهود ، قامت المناظرات العنيفة بين أحبار اليهود ورهبان النصارى . « وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب » . وقد ذلك اليهود فى المدينة بعد أن انتصر عليهم الأوس والخزرج كما ذلوا فى كل مكان . « وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباعوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

ولم تتحد كلمة الأوس والخزرج طويلا ، فسرعان ما دب بينهم الشقاق ودارت رحى الحرب تطحن حلفاء الأوس القريب ، وكانت حروب كثيرة لم يسمع قط فى قوم أكثر منها ولا أطول . تفرقت كلمة الحين ، فلم يجتمع لهم أمر ، ولم ينفعهم تدينهم ، فقد زاد تفرقهم على مدى الأيام على الرغم من أنهم جميعا كانوا يحجون إلى مناة وينحرون لها ويقدمون القرابين . وتربع أبرهة الأشرم على عرش سبأ وبني فى صنعاء كنيسة جلب لها أمهر الصناع من روما والقسطنطينية ، وزينها بالفسيفساء ووضع فيها الصليبان وتمثال المسيح المصلوب ، السيد الذى جاء ليحقق القرابين فجعله البشر أعظم قربان استجابة لفكرة فلسفية استعارها بولص من عباد بعل الوثنيين . وراح أبرهة يبنى الكنائس فى اليمن فبنى كنيسة فى نجران عرفت بكعبة اليمن ، وكنيسة فى صنعاء عرفت « بالقليس » وهى كلمة مشتقة من Ekklessia اليونانية ومعناها « الكنيسة » ، وأنشأ الحبش كنيسة أخرى فى « ظفار » ، وانتشر الأساقفة والمبشرون فى العربية السعيدة يدعون العرب إلى

دينهم وإلى الانشقاق والتشاحن المنتشر بين النصارى بعد أن استبدلت عقيدة الأيام الأولى الصافية بالسخف والخرافات .

وانتزع أبرهة حامى المسيحية فى اليمن وحامل لوائها امرأة من زوجها أبى مرة بن ذى يزن وتزوجها ، فصارت ربحانة ابنة علقمة بن مالك بن يزيد بن كهلان زوجة الملك رغم أنف زوجها اليمنى ، وقد أقيمت مراسيم الزواج فى القليس كنيسة التى يريد أن يكره الناس على الحج إليها وأن يصددهم عن بيت الله الذى أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل ، أول بيت وضع للناس .

وتتصر بعض العرب فى اليمن وبقي بعضهم على وثنتهم الأولى ، ولم تجلب المسيحية فى ركابها الهدوء والسكينة للناس بل أوقعت الفرقة بين الذين آمنوا بالتثليث والذين آمنوا بوحدة طبيعة المسيح وقد كان كل ما أخذه العرب الذين تنصروا عن الكنيسة معاقرة الخمر فقد استقر فى وجدانهم من تعاليم الأساقفة والمبشرين أن المسيح كان شارب خمر بل كان يدمن شربها !

وفى مكة حيث وضع أول بيت للناس ليكون منارة التوحيد كان الناس يؤمنون بإله قادر رفع السماء وبسط الأرض وهو الرزاق ، إلا أنهم جعلوا له شركاء فجلبوا الأصنام من مصر وسورية والعراق وأرض النبط وكدسوها فى جوف الكعبة ، بل أصبح فى كل دار صنم يتمسحون به ويطوفون حوله كلما خرجوا من دورهم أو عادوا إليها .

اعتقد العرب أنهم إنما يعبدون الأصنام ليقرّبوهم إلى الله زلفى فجعلوا لله أندادا ، وعبدوا الشمس والقمر والنجوم على أنها زوجة رب الأرباب وأبنائه وبناته ، وزعموا أن الله قد خلى لنفر من الآلهة بعض تصرفات مثل شفاء المرضى والإتيان بالذرية والنسل وإبعاد المجاعة وإقصاء الوباء فكانوا يتقربون إليها بالذبائح وينزلون لها عن قسم من نتاج أراضيهم ومواشيهم قربانا .

وانتشرت بينهم الخرافات فزعموا أن على كل صنم شيطاناً موكلًا بأمر الله ، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله وإلا أصابه الشيطان بنكبة بأمر الله . وأن الإنسان إذا مات أو قتل اجتمع دم الدماغ أو أجزاء منه فانتصب طيراً هامة فرجع إلى رأس القبر كل مائة سنة ، وأن روح القتيل الذى لا يدري بثأره تصير هامة فتزقو وتقول : اسقوني اسقوني ، وإذا أدرك بثأره ذهبت ولا تعود .

وكانوا يخرجون النساء فى الحرب ليُبلن بين الصفين يرون أن ذلك يطفىء نار الحرب ويقودهم إلى السلم ، وقد سخر بعض شعرائهم من هذه العادة فقال :

هيات رد الخيل بالأبـوال إذا غدت فى صور السعالى<sup>(١)</sup>  
واشتغلوا بالرقى والعزائم وبالخرافات التى تجلب الحب وتنسى العاشق  
حبيبته ، فكانت الهنمة يجتلب بها الرجال ويستعطف بها قلوبهم ، فكان النسوة يحرقن البخور فى دورهن أو خيامهم ويقلن للخرزة فى إيمان عميق :  
— أخذته بالهنمة ، بالليل زوج وبالنهار أمة .

وكانت المرأة إذا أرادت منع الحمل شدت على حقوبها خرزة العقرة ، وإذا أرادت التزين لجأت إلى الوشم فتنقش أغلب بدنّها بألوان من النقوش من صور حيوانات وغيرها ، وتنقش شفّتها بالوشم الأزرق .

وكانت المرأة إذا مات زوجها تدخل بيتاً حقيراً وتلبس شرثيابها لاتمس ماء ولا تقلم ظفراً ولا تزيل شعراً حتى تمر بها سنة ، فتهرع إلى بيت أبويها وتأتى بشاة أو طائر تمسح به جلدها ثم ترمى بكرة إشارة إلى أنها رمت العدة رمت

---

(١) السعالى : أخبث الغيلان .

البعرة ، وتفاؤلا بعدم عودتها إلى ما كانت فيه وشوقا إلى التزويج لبعدها به .  
وكان الرجل منهم يجمع بين الأختين ويختلف على امرأة أبيه ، فإذا مات  
الرجل عن المرأة أو طلقها قام أكبر بنيه فإن كان له حاجة فيها طرح ثوبه عليها ،  
وإن لم يكن له حاجة فيها تزوجها بعض إخوته بمهر جديد .

وكان الرجل يرث امرأة ذى قرابة فإن كانت جميلة تزوجها وإن كانت  
دميمة حبسها حتى تموت فيرثها ، وكان له أن ينكح ما يشاء من النساء أحرارا  
وإماء وأن يرغم إماءه على احترام الدعارة ليحصل على ما يرغب من أموال .  
وكان الاستبضاع منتشر بينهم وهو أن يسمح الرجل لزوجته أن تضاجع  
رجلا قويا أو شريفا أو ذى رأى لياقى النسل قويا أو شريفا أو من ذوى رأى  
والحصافة .

وكان الرجال يوصون أهلهم بالبكاء والنوح عليهم إذا ماتوا ، وقد قال  
طرفة بن العبد لابنة أخيه معبد لما أحس أن عمزو بن المنذر ملك الحيرة يلمس  
قتله :

فإن مت فانعنى بما أنا أهله      وشقى على الجيب يا بنة معبد  
وكان الاعتقاد بوجود إله واحد قادر قد اختفى مذراح بولص يعبت  
بالمسيحية السمحة ويطعمها بفلسفات الوثنيين ، وكانت عقيدة الثالوث  
المقدس قد أثارت الاختلافات المعقدة وتنافست الشيع والطوائف الكثيرة  
مظهرة الحذق فى تفسير كيف أمكن الإنسان أن يصبح إلها وكيف أمكن أن  
يصير الثلاثة واحدا ، وقد أدى ذلك إلى ظهور تلال من مؤلفات الجدل  
والمناظرة باعدت بين الإنسان والغرض المنشود من الدين . وقد أطلق العنان  
للخمر والميسر والزنا .

كان العالم على شفا السقوط فى هاوية الفوضى فقد انهارت العقائد التى

تعين على إقامة الحضارة ، وقد بدا أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف من السنين مشرفة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية فقد طال على الناس الأمد وقست قلوبهم وتسرب العطب حتى اللباب إلى شجرة المدنية التى كانت تظلل العالم كله .

ظهر الفساد فى البر والبحر وراح الناس يضربون فى دياجير الجاهلية يتناحرون ويتحاربون تشجعهم عقائدهم على التفرقة والانحياز بدلا من الاتحاد والنظام ، فبدا أن البشرية تنتظر مولد النور ، وبين مظاهر ذلك الفساد الشامل ولد محمد ليكون رحمة للعالمين .

## التذييل

قال الذين يتشككون في كل شيء وينكرون ما لا يجدون له سنداً من كتابة مسمارية أو كتابة على ورق البردى أو نقش على الحجر : إن سيل العرم وخراب سد مأرب وتمزيق أهل سبأ كل ممزق إن هو إلا أسطورة من أساطير الأولين . وزعم المؤرخون الإسلاميون والإخباريون أن سد مأرب قد تهدم قبل مولد المسيح عليه السلام ورتبوا على ذلك أحداثاً وكتبوا تاريخ منطقة الشرق الأوسط معتمدين على ذلك الزعم ، فقال ابن هشام في السيرة النبوية : « وكان خروج عمرو بن عامر من اليمن — فيما حدثني أبو زيد الأنصاري — أنه رأى جُرَذاً ( فأراً كبيراً ) يحفر في سد مأرب الذي كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أرضهم ، فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة من اليمن ، فكاد قومه فأمر أصغر ولده إذا أغلظ له ولطمه أن يقوم إليه ويلطمه ، ففعل ابنه ما أمره به . فقال عمرو : لا أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصغر ولدي وعرض أمواله فقال بعض أشراف اليمن : اغتشموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله . وانتقل في ولده وولد ولده . وقالت الأزد : لا نتخلف عن عمرو بن عامر . فباعوا أموالهم وخرجوا معه ، فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان فحاربهم عك فكانت حربهم سجالا ، ثم ارتحلوا عنهم ففارقوا في البلدان فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ، ونزلت

الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مَرًّا ، ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عُمان عمان ، ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه ففيه أنزل الله تبارك وتعالى على رسوله محمد ﷺ : « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم »<sup>(١)</sup> .

وعلى هذه الرواية يكون الغساسنة ملوك الشام من اليمن وتكون خزاعة التي حكمت مكة قبل أن ينتزع منهم قصى ولاية البيت من اليمن أيضا ، وقد كانت ولايتهم للبيت بعد سيل العرم . ويقال خزاعة : بنو حارثة بن عمرو بن عامر وإنما سميت خزاعة لأنهم تخزعوامن ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام فنزلوا بمر الظهران فأقاموا بها ، ثم نفوا جرهم عن مكة واستولوا على ولاية البيت .

وعلى هذه الرواية يكون الأوس والخزرج من اليمن انطلقوا بعد سيل العرم إلى يثرب ، ونزلوا بها بين قبائل اليهود وفي حمايتهم .

أنكر المنكرون وقوع سيل العرم وأرجع الإخباريون ذلك الحادث إلى ما قبل الميلاد ، وحدد التاريخ المكتوب زمن سيل العرم ما بين سنة ٥٤٢ و ٥٧٠ ميلادية . وقد محق ذلك التاريخ المكتوب قول القائلين بأن العرم كان أسطورة من الأساطير. فقد ترك لنا « أبرهة » وثيقة مهمة على جانب خطير من الأهمية وهي النص الذى وسم به Glaser, 618 وب Cis, 15 عند الباحثين فى العربية الجنوبية ، وهذه الوثيقة تبحث فى تجديد أبرهة لسد مأرب مرتين المرة الأولى فى شهر « ذو المدرج » من سنة ٦٥٧ من التاريخ الحميرى المقابلة لسنة ٥٤٢ للميلاد ، والثانية فى شهر « ذو معان » من سنة ٦٥٨ من التاريخ الحميرى أى فى

سنة ٥٤٣ ميلادية أى بعد سنة واحدة من التجديد الأول .  
ومن هذه الوثيقة يثبت أن سد مأرب قد خرب بعد سنة ٥٤٣ ميلادية ،  
وأن سيل العرم وتمزق سبأ كل ممزق كان بعد تلك السنة أو فى أثنائها . ولم  
أستطع أن أفر من هذه الحقيقة وأنا أروى تاريخ هذه الحقبة رواية تاريخية تعتمد  
أول ما تعتمد على تسلسل الأحداث واحترام تسلسلها الزمنى ، فلم أعتد  
على رواية ابن هشام والإخباريين الإسلاميين الذين حسبوا أن سيل العرم كان  
قبل الميلاد بل أرجعت واقعة خراب سد مأرب إلى تاريخها الحقيقى ، ورحت  
أأخذ بالروايات التاريخية التى تتفق مع هذه الحقيقة فلم آخذ برواية القائلين  
بأن خزاعة من اليمن وإنما سميت خزاعة لأنهم تخزعوا من ولد عمرو بن عامر  
بعد سيل العرم ، بل أخذت بالرأى القائل بأن عمرو بن لحي جد الخزاعيين من  
عدنان وليس من قحطان .

ولم تضطرب روايات الإخباريين مثل اضطرابها فى هذه الحقبة الواقعة بين  
قريش ومولد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد كانت رواياتهم تناقض  
بعضها بعضا ، بل إن المؤرخ منهم كان يروى عن حادث واحد روايات  
متعارضة مما يدل على أنه كان يدون ما يسمع دون نقد أو تمحيص .

ومن مواضع الاختلاف بين الإخباريين اختلافهم فى تسلسل أسماء من  
حكموا اليمن والحيرة وغسان فى هذه الحقبة التى ندرسها ، وقد اعتمدت فى  
تسلسل الأحداث فى هذا الجزء من السيرة على روايات المؤرخين الرومان  
واللاتين الذين عاصروا الأحداث المروية فى منطقة الشرق الأوسط وعلى  
روايات الإخباريين التى تتفق مع منطق التاريخ فيما لم أجد له سنداً فى نصوص  
جاهلية أو نصوص مؤرخين معاصرين .

وقد أكثر الإخباريون والمؤرخون الإسلاميون من رواية الأساطير

والمعجزات التى وقعت من الصالحين الذين كانوا على دين سماوى ، وقد استعنت ببعض تلك الأساطير للدلالة على سمة العصر الذى أروى قصته . وكذلك أثبت بعض ما جرى بين الكهان والحكام فقد كانت الكهانة بمثابة الدين عند العرب قبل الإسلام ، وسأعرض نموذجاً من النماذج الكثيرة التى لم أعتمد عليها والتى تفيض بها كتب المؤرخين الإسلاميين .

قال ابن هشام فى « السيرة النبوية » تحت عنوان « ابتداء وقوع النصرانية بنجران » : قال ابن إسحاق : حدثنى المغيرة بن أبى ليلى مولى الأحنس عن وهب بن منبه اليماني أنه حدثهم :

أن موقع ذلك الدين بنجران كان أن رجلاً من بقايا أهل دين عيسى ابن مريم يقال له فيميون وكان رجلاً صالحاً مجتهداً زاهداً فى الدنيا مجاب الدعوة . وكان سائحاً ينزل بين القرى لا يعرف بقرية إلا خرج منها إلى قرية لا يعرف بها ، وكان لا يأكل إلا من كسب يديه وكان بناء يعمل الطين وكان يعظم الأحد ، فإذا كان يوم الأحد لم يعمل فيه شيئاً وخرج إلى فلاة من الأرض فصلى بها حتى يمسي . قال : وكان فى قرية من قرى الشام يعمل عمله ذلك مستخفياً ففطن لشأنه رجل من أهله يقال له صالح ، فأحبه صالح حباً لم يحبه شيئاً كان قبله فكان يتبعه حيث ذهب ولا يفطن له فيميون . حتى خرج مرة فى يوم الأحد إلى فلاة من الأرض كما كان يصنع وقد أتبعه صالح وفيميون لا يدري ، فجلس صالح منه منظر العين مستخفياً منه لا يحب أن يعلم بمكانه ، وقام فيميون يصلى فبينما هو يصلى إذ أقبل نحوه التين — الحية ذات الرعوس السبعة — فلما رآها فيميون دعا عليها فماتت ، ورآها صالح ولم يدرك ما أصابها . فخافها عليه ، فعيل عولُه ( نقد صبره ) فصرخ : يا فيميون . التين قد أقبل نحوك . فلم يتلفت إليه وأقبل على صلاته حتى فرغ منها ، وأمسي فانصرف

وعرف أنه قد عُرف . وعرف صالح أنه قد رأى مكانه فقال له : يا فيميون تعلم والله أنى ما أحببت شيئاً قط حبك ، وقد أردت صحبتك والكينونة معك حيث كنت . فقال ما شئت ، أمرى كما ترى ، فإن علمت أنك تقوى عليه فنعم ، فلزمه صالح .

وقد كاد أهل القرية يفطنون لشأنه وكان إذا فاجأ الضر العبد منهم دعا له فشفى ، وإذا دعى إلى أحد به ضر لم يأت . وكان لرجل من أهل القرية ابن ضرير فسأل عن شأن فيميون فقيل له . إنه لا يأتى أحدا دعاه ولكنه رجل يعمل للناس البنيان بالأجر ، فعمد الرجل إلى ابنه ذلك فوضعه فى حجرته وألقى عليه ثوبا ، ثم جاءه فقال له : يا فيميون إنى قد أردت أن أعمل فى بيتى عملا فانطلق معى إليه حتى تنظر إليه فأشار طك عليه ، فانطلق معه حتى دخل حجرته ثم قال له : ما تريد أن تعمل فى بيتك هذا ؟ قال : كذا وكذا . ثم انتشط الرجل الثوب ( كشفه بسرعة ) عن الصبى . ثم قال له : يا فيميون : عبد من عباد الله أصابه ما ترى فادع الله له ، فدعا له فيميون فقام الصبى ليس به من بأس . وعرف فيميون أنه قد عرف فخرج من القرية واتبعه صالح . فبينما هو يمشى فى بعض الشام إذ مر بشجرة عظيمة فناده منها رجل فقال : يا فيميون . قال : نعم . قال : مازلت أنظرك وأقول متى يجىء حتى سمعت صوتك فعرفت أنك هو . لا تبرح حتى تقوم على فإنى ميت الآن ، قال : فمات وقام عليه وواراه ، ثم انصرف .

وتبعه صالح حتى وطأ بعض أرض العرب فعدوا عليهما ، فاختطفتهما سيارة من بعض العرب فخرجوا بهما حتى باعوهما بنجران وأهل نجران يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد فى كل سنة ، إذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلّى النساء ثم خرجوا إليها

فَعَكَفُوا عَلَيْهَا يَوْمًا ، فَابْتَاعَ فِيمِيونَ رَجُلًا مِنْ أَشْرَافِهِمْ وَابْتَاعَ صَالِحًا آخَرَ ، فَكَانَ فِيمِيونَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ فِي بَيْتٍ لَهُ — أَسْكَنَهُ إِيَّاهُ سَيِّدُهُ — يَصَلِّي ، اسْتَسْرَجَ لَهُ الْبَيْتَ نَوْرًا حَتَّى يَصْبِحَ مِنْ غَيْرِ مُصْبِحٍ ، فَرَأَى ذَلِكَ سَيِّدُهُ فَأَعْجَبَهُ مَا يَرَى مِنْهُ فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِ فَأَخْبَرَهُ بِهِ ، وَقَالَ فِيمِيونَ : إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي بَاطِلٍ ، إِنْ هَذِهِ النَّخْلَةُ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ وَلَوْ دَعَوْتُ عَلَيْهَا إِلَهِي الَّذِي أُعْبَدُهُ لِأَهْلِكَهَا وَهُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . قَالَ : فَقَالَ لَهُ سَيِّدُهُ : فَافْعَلْ فَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ دَخَلْنَا فِي دِينِكَ وَتَرَكْنَا مَا نَحْنُ فِيهِ . قَالَ : فَقَامَ فِيمِيونَ فَتَطَهَّرَ وَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ دَعَا اللَّهَ عَلَيْهَا فَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا رِيحًا فَجَعَفَتَا ( أَتْلَفَتَا وَأَسْقَطَتَا ) مِنْ أَصْلَاهَا فَأَلْقَتَا ، فَاتَّبَعَهُ عِنْدَ ذَلِكَ أَهْلُ نَجْرَانَ عَلَى دِينِهِ فَحَمَلَهُمْ عَلَى الشَّرِيعَةِ مِنْ دِينِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الْأَحْدَاثُ الَّتِي دَخَلَتْ عَلَى أَهْلِ دِينِهِمْ بِكُلِّ أَرْضٍ فَمِنْ هُنَاكَ كَانَتِ النَّصْرَانِيَّةُ بِنَجْرَانَ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ .

فَهَذَا حَدِيثٌ وَهَبَ بَنُ مَنبِهٍ عَنْ ابْتِدَاءِ النَّصْرَانِيَّةِ فِي نَجْرَانَ ، وَهُنَاكَ حَدِيثُ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرْظِيِّ عَنْ أَمْرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الثَّامِرِ وَقِصَّةِ أَصْحَابِ الْأَخْدُودِ ، وَهُوَ حَدِيثٌ عَنِ السَّحَرِ وَتَعْلِيمِ أَبْنَاءِ عِظَمَاءِ نَجْرَانَ السَّحَرِ عَلَى يَدَيِ سَاحِرٍ عَظِيمٍ ، وَاخْتِلَافِ ابْنِ الثَّامِرِ إِلَى فِيمِيونَ . عَوِضًا عَنْ ذَهَابِهِ إِلَى ذَلِكَ السَّاحِرِ ، وَتَعْلَمُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الثَّامِرِ النَّصْرَانِيَّةَ عَلَى فِيمِيونَ فَجَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الثَّامِرِ إِذَا دَخَلَ نَجْرَانَ لَمْ يَلْحَقْ أَحَدًا بِهِ ضَرَّ إِلَّا قَالَ لَهُ : يَا عَبْدَ اللَّهِ أَتُوحِدُ اللَّهَ وَتَدْخُلُ فِي دِينِي وَأَدْعُو اللَّهَ فَيَعَافِيكَ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ . فَيُوحِدُ اللَّهَ وَيَسْلَمُ وَيَدْعُو لَهُ فَيَشْفِي حَتَّى لَمْ يَبْقَ بِنَجْرَانَ أَحَدٌ بِهِ ضَرٌّ إِلَّا أَتَاهُ عَلَى أَمْرِهِ وَدَعَا لَهُ فَعُوفِي ، حَتَّى رَفَعَ شَأْنَهُ إِلَى مَلِكِ نَجْرَانَ فَدَعَاهُ فَقَالَ لَهُ : أَفْسَدْتَ عَلَى أَهْلِ قَرِيَّتِي وَخَالَفْتَ دِينِي وَدِينَ آبَائِي لِأَمْثَلَنِي بِكَ ، قَالَ : لَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ . قَالَ : فَجَعَلَ يَرْسِلُ بِهِ إِلَى الْجَبَلِ الطَّوِيلِ فَيَطْرَحُ عَلَى رَأْسِهِ فَيَقَعُ إِلَى الْأَرْضِ لَيْسَ بِهِ

بأس ، وجعل يبعث به إلى مياه بنجران بحور لا يقع فيها شيء إلا هلك ، فيُلقي فيها فيخرج ليس به بأس . فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر : إنك والله لن تقدر على قتلى حتى توحيد الله فتؤمن بما آمنت به ، فإنك إن فعلت ذلك سلّطت علىّ تقتلني قال : فوحد الله تعالى ذلك الملك وشهد شهادة عبد الله ابن الثامر ، ثم ضربه بعصا في يده فشجه شجرة غير كبيرة فقتله .

ووهب بن منبه ومحمد بن كعب القرظي من اليهود الذين أسلموا ، وقد روى مسلمة أهل الكتاب أحاديث كثيرة متهافئة عن حسن نية أو سوء قصد ، وقد أخذ عنهم الإخباريون المسلمون دون حذر على اعتبار أنهم أهل كتاب وأهل علم ، فماجت جوانب التاريخ الإسلامي بالإسرائيليات وأساطير الأولين والخرافات وخوارق المعجزات ، وقد حاولت وأنا أكتب السيرة أن أبتعد عن الإسرائيليات وأن أعتمد على التاريخ ومنطق الأحداث .

وقد حاولت في هذا الجزء من السيرة أن ألقى ضوءا على أن المهتمين بالديانات في الفترة ما بين المسيح عليه السلام ومولد محمد ﷺ كانوا ينتظرون ظهور « الفارقليط » الذي بشر به المسيح ، فزعم ما في أنه هو « الفارقليط » وكذلك زعم مزدك وقد كذبهما معارضوهما وقالوا لهما إن نبوءة ساسان تؤكد أن « الفارقليط » المنتظر من بلاد العرب وأن زرادشت قد أوصاهم بأن يستمسكوا بما جاءهم به إلى أن يجيئهم صاحب الجمل الأحمر من بلاد العرب . وكان هدي من ذلك تأكيد أن البشرية كانت تنتظر ظهور ذلك النبي العالمي الذي بشر به الأنبياء من قبل وقال عنه المسيح : إن لم أذهب لم يأت « الفارقليط » الذي سيمكث معكم إلى الأبد ، فالفارقليط نبي منتظر رسول عالمي ترقب ظهوره البشرية ، وليس المعزى ولا روح القدس كما حاول أخبار النصارى ورجال الدين المسيحي تفسير معنى « الفارقليط » بعد بعث محمد

رسول الله ﷺ : « ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » (١) .  
وقد راودتني فكرة عن « التصوف عند العرب » عندما كنت أكتب  
الفصل الخاص بولاية الإجازة بالناس من عرفة ومزدلفة ومنى ، فقد كانت  
صوفة هي التي تلى الإجازة بالناس ، وقد عرفت بذلك الاسم لأن الغوث بن  
مر أد بن طابخة بن إلياس بن مضر قد تصدقت به أمه على الكعبة عبدا لها  
يخدمها ويقوم عليها وألبسته الصوف وجعلته ربيطا للكعبة ، فعرف هو وولده  
من بعده بصوفة ، وقد صار ذلك سنة في العرب فكان يقال صوفة وصوفان  
لكل من يقوم بشيء من خدمة البيت . وعندى أنه لما جاء الإسلام وانقطع  
بعض المسلمين للعبادة وهبوا أنفسهم لله عرفوا بالصوفي ، كما عرف الذين  
وهبوا أنفسهم للكعبة قبل الإسلام بصوفة وعرفت طريقتهم بالتصوف . ثم  
بدأ اتصال الإسلام بفارس والهند فنهل التصوف كعلم من فلسفات الفرس  
والهنود .

ولو ألقينا نظرة فاحصة على العالم منذ أيام إبراهيم الخليل إلى يوم مولد  
الرسول ﷺ في الاقتصاد والاجتماع والفلسفة والدين ، لوجدنا أن العالم قد  
مر بكل ما يمر به عالمنا اليوم من تصارع في المذاهب الاقتصادية بين الرأسمالية  
والشيوعية ومن مبادئ أخلاقية ومبادئ تحررية إباحية انحلالية فوضوية ،  
ومن فلسفات جادة تبحث عن جوهر الحقيقة وفلسفات تدعو إلى تحصيل  
اللذة والسرور وتمجيد الجسد وإنكار الروح ، ومن وثنيين وموحدتين  
ومؤمنين بالثالوث المقدس قبل أن يعتنق بولص مبدأ الثلاثية ويورثه  
للمسيحيين الذين آمنوا بما جاءهم به بولص يوم أن سلب كرسى السيد

المسيح ، ومن قدرين ودهريين وطبيين ووجوديين .  
كان الملك في مصر القديمة أيام الفراعين إلها تجبى الضرائب لتملاً خزائنه  
وتقوم الحروب إعلاء لذكره وتشاد العمائر تكريماً له وتشريفاً لمخلوق ما أن  
يكون له نصيب فإن هذا لا يعدو أن يكون عارية يستردها الملك عندما يشاء ،  
وكانت الرعية ملكاً له يتصرف في حياتها وأرواحها كيفما يريد .

ويقوم إلى جوار الملك مستشاروه وطائفة الكهنة والأسرات الغنية من  
النبلاء والقواد ، وقد كان لهم نفوذهم وكان الملك يصدق عليهم على حساب  
الشعب في الوقت الذي يؤلب فيه طائفة على أخرى ليستقيم له الأمر وليضمن  
لنفسه حكماً طويلاً مملوءاً بالخير والبركات .

وفي العراق في أرض بابل قبل أن يتولى العرش حمورابي — ويقال إن إبراهيم  
الخليل قد بعث في عهد أبيه — وهو المؤسس الحقيقي للوحدة البابلية ، كانت  
سومر وأكاد متحدتين تحت تاج واحد ، وكانت المدينة تكون في المجتمع خلية  
لها حياتها الخاصة ويعتبر تأسيسها عملاً دينياً لا يستطيع القيام به إلا بناء على  
أوامر الآلهة العظام ، لأن المدينة هي قبل كل شيء مركز للعبادة ، فكان لاسم  
المدينة واسم الإله الذي تنازل فرضي أن يستقر بها مدلول واحد . ولما أنشأ  
ملوك الأسرة البابلية الأولى مدناً جديدة منحوها اسم الإله المعبود ، مثل  
« كارشماش » ومعناها « قلعة الإله شماش » ، و« نور أداد » ومعناها « نور  
الإله أداد » .

كان الإله في العراق سيد المدينة الحقيقي وكان يسكنها مع زوجته وأولاده  
وخدمه وسدنته ، وكان المعبد مسكنه وكان أفخر مساكن المدينة على  
الإطلاق ، وكان للآلهة أملاك خاصة وصرامع للغلال وعبيد وجيوش . ولم  
يكن الإله يدير شخصياً شؤون المملكة أو المدينة بل كان يختار وكيلاً ، ملكاً

أو إيشاكو ، يعهد إليه رعاية شئون شعبه . فكان الملك أو رجل الدين — وكثيرا ما كان الملك هو الكاهن الأعظم للإله — يستغل الشعب باسم إلهه المعبود .

وكان الملك وهو المشرف على الإدارة المدنية والدينية لا يلبث أن يؤله نفسه فيصبح المتصرف في المعابد وأملاكها وخيرات البلاد وفي شعبه المسكين .

أما في فارس فقد كون الإيرانيون منذ القدم جمعية من الأسر الكبيرة يستند نظام إقليمها إلى أربع وحدات : البيت والقرية والقبيلة والإقليم ، وسمى الشعب آريا وهي الكلمة التي اشتق منها إيران .

وكانت الدولة الأخمينية استمرارا للدولة الأشورية والبابلية ، ولكن التنظيم على أساس الأسرة لم يمح فکان في فارس الأخمينية سبع قبائل ممتازة يجرى في إحداها الدم الملكي . وقد جعل الملك الأعظم لنفسه أتباعا يمنحهم إقطاعات يتوارثونها مع امتيازات خاصة . ولم تعد صلة الأسرات وثيقة بالقرى الفارسية التي نشئوا فيها فحسب بل تعدتها إلى أملاك كبيرة أخرى في شتى أنحاء الدولة . وقد أتيح لأناس من غير الأسرات الكبيرة من الفرس والميديين ومن الأجانب أيضا كالإغريق المنفيين أن يملكوا إمارات يمنحها الملك الأعظم ، وقد تمتعوا بامتيازات تتفاوت خطورة منها الإعفاء من الضريبة أحيانا بحيث كان في مقدورهم أن يستحوذوا على الأموال التي يجبونها من رعاياهم .

وهذا هو مبدأ الإقطاع في فارس . كان الملك هو الرئيس الأعلى وكان الأمراء هم رؤساء البيوت الكبيرة ، وكان لكل منهم حراثون وعليهم يقع

عبء الخدمة العسكرية ، وكانوا خاضعين لضرب من الرق تحت سيطرة ساداتهم الأقوياء .

لم يعرف الشرق منذ فجر التاريخ إلى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام من نظم الحكم غير النظام الملكي المستبد الذى استمد سلطانه من السماء ، بادعائه أنه وكيل الإله فى الأرض مرة وبزعمه أنه هو الإله نفسه مرات . أما فى الغرب فقد استبدلت رومة حكم الملوك بحكم الشيوخ فولدت بذلك الجمهورية ، وظل مجلس الشيوخ صاحب السلطة العليا فى رومة وكان حق المجلس من الوجهة النظرية مقصورا على مناقشة ما يعرضه عليه أحد كبار الحكام من المسائل وإصدار قرار فيها ، وكانت قراراته فى هذه المسائل استشارية محضة ليس لها قوة القانون ، ولكن كان للمجلس من عظم المكانة ما جعل الحكام يعجلون بتوصياته فى جميع الحالات تقريبا .

وظل مجلس الشيوخ هو صاحب السلطة فى رومة إلى أن انتزع يوليوس قيصر السلطة منه وصار الحكم فيها قيصريا . وقد كانت الديمقراطية تختضر فى عاصمة البلاد الإيطالية فكانت الأحكام القضائية ومناصب الدولة وعرش الملوك الخاضعين لسلطانها تباع إلى من يعرض فيها أغلى الأثمان ، من ذلك أن القسم الأول من المقترعين فى الجمعية قد استولى فى عام ٥٣ م على عشرة ملايين سسترس ثمنا لأصوات أفرادهم ، ولما لم ينفع المال لم يتورع ذوو الشأن عن الالتجاء إلى الاغتيال أو كشف الستار عن ماضى الناس والتهديد بالكشف عن فضائحهم فلم يروا أمامهم سبيلا غير الإذعان . وفشا الإجرام فى المدينة كما انتشرت السرقات فى الأقاليم ، ولم تكن فى هذه ولا فى تلك قوة من الشرطة تطمئن الناس على أنفسهم أو أموالهم فكان الأغنياء يستأجرون

عصابات من المجالدين يدفعون عنهم الأذى أو يؤيدونهم في الجمعية .  
واستهوت رائحة المال أو هبات الحبوب أحط الطبقات في إيطاليا فهرعت  
إلى رومة وجعلت اجتماعات الجمعية مهزلة من المهازل ، فكان كل من يقبل  
الاقتراع كما يطلب إليه يؤذن له بدخولها سواء أكان من مواطني رومة أم من  
غير مواطنيها . وكان يحدث في بعض الأحيان ألا يكون من بين من أعطوا  
أصواتهم إلا أقلية صغيرة هي التي لها حق الاقتراع . وكثيرا ما كان الخطباء  
يحصلون على حق الخطابة في الجمعية بالهجوم على المنصة والاستيلاء عليها قوة  
واقدارا ، وأضحت العصابة التي ترفعها قوتها على سائر العصابات المنافسة لها  
هي التي تشرع للدولة كما كان الذين يقترعون على غير هواها يضربون حتى  
يكاد يقضى عليهم ثم تشعل النار بعد الضرب في بيوتهم ، وقد كتب شيشرون  
بعد جلسة من تلك الجلسات يقول :

« لقد امتلأ التير بجثث المواطنين كما سدت بها البالوعات العامة ، واضطر  
الأرقاء إلى امتصاص الدم بالإسفنج من السوق العامة » .

هذه هي أساليب الحكم في العصور الخالية ، ملكية مستبدة أو جمهورية  
سرعان ما يدب في ديمقراطيتها الفساد ، أو قيصرية أو كسروية ، وهي بعينها  
أساليب الحكم في عصرنا ، فلم تستطع البشرية أن تبتدع أسلوبا آخر غير تلك  
الأساليب التي مارستها منذ أقدم العصور . وقد وقع الظلم في جميع صور  
الحكم على سواد الشعب بينما استأثر بخيرات الأرض طبقة مستبدة منحت  
نفسها حقوقا باسم الحق الإلهي تارة ، وباسم الشعب تارة أخرى وبحق القوة  
والقهر على مر العصور .

وقد بعث الله رسله ليقفوا في وجوه الجبارين ولينتزعوا منهم حق الناس

وليشرعوا لهم ما يصلح دينهم ودنياهم ويشحذ ضمائرهم لسعادة البشرية جمعاء ، وقد عرفت البشرية العزة والكرامة والسعادة الحققة في ظل الدين ، وتفيأت ظلال العدالة ما دامت في كنف القوانين السماوية ، وقد تمرغت في حمأة الاستبداد والظلم كلما طال على الناس العهد وقست قلوبهم .

وقد حاولت الفلسفة في بعض الأحيان أن ترسم للناس طريق سعادتهم فأضلّتهم الطريق ، وإن بدا في بعض ما قال به الفلاسفة أن طريقهم وطريق الدين واحد وأنهم على الصراط المستقيم .

كان أفلاطون في جمهوريته ينشد العدالة فراح يسأل ما الإنسان وما مصيره ، وخلص من أسئلته إلى أن الدولة المثلى في نظره يجب أن تكون أرستقراطية تحكمها طبقة من الحكام يتعلمون تعليما عاليا وافيًا ثم يختارون لمنصبهم بفضل مقدرتهم على إدراك المبادئ التي تقوم عليها الدولة وجدارتهم في تطبيقها وحفظها ، وهؤلاء يعيشون عيشة شيوعية لكي لا تغريهم المطامع بالحياذ عن الصراط المستقيم .

قال أفلاطون بشيوعية المال وبشيوعية النساء والأولاد لتحرر البشرية من كل ميل للملكية ، وأسهب في طريقة تربية النساء ومساواة المرأة بالرجل وقيام الدولة على تربية الأبناء غير الشرعيين ، وأورد كثيرا من الآراء الفلسفية في شيوعية المال والمرأة والأولاد ، وقد ظلت آراؤه مجرد خيال فيلسوف في مدينته الفاضلة إلى أن قام مزدك بثورته في فارس وفرض شيوعية المال والمرأة والولد فماذا كان شكل المجتمع ؟

قد وجب في الجماعة المانوية على الصديقين أن يعيشوا بلا نساء وألا يملكوا من الغذاء غير قوت يوم واحد ، ومن الملابس غير ما يكفى سنة

واحدة . وقد فرضت قواعد مماثلة على الطبقات العليا من الفرقة المزدكية ، بيد أن رؤساء المزدكية أدركوا أن الرجال العاديين لا يستطيعون التخلص من حب اللذات المادية ، أى الرغبة فى تملك الأموال والنساء ، إلا فى اللحظة التى يستطيعون فيها إشباع هذه الحاجات بالاختيار . وبهذه الفكرة ظهرت النظرية الاجتماعية للمزدكية ، فإن الله إنما جعل الأرزاق فى الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتساوى بحيث لا يكون لأحدهم أكثر مما لغيره ، وقد نشأ عدم المساواة بالقوة فكل يريد إشباع رغباته على حساب أخيه . والحقيقة أن من كان عنده فضلة من الأموال والنساء والمتعة فليس هو أولى به من غيره فينبغى أن يأخذوا من الأغنياء للفقراء وأن يردوا من الكثيرين على المقلين ، وذلك ليقيموا المساواة البدائية . ينبغى أن تكون النساء والأموال شركة بين الناس كاشتراكهم فى الماء والكلاء .

واعتنق السفلة ذلك المذهب وكاتفوا مزدك وأصحابه وشايعوهم ، فابتلى الناس بهم وقوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على المرء فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لا يستطيع الامتناع منهم . وحملوا قباز إمبراطورهم على تزوين ذلك وتوعدوه بخلعه فلم يلبثوا إلا قليلا حتى صاروا لا يعرف الرجل منهم ولده ولا المولود أباه ، ولا يملك الرجل شيئا فما يتمتع به . وظهر قوم لا يتحلون بشرف العمل ، لا ضياع لهم موروثه ولا حسب ولا نسب ولا حرفة ولا صناعة ، عاطلون مستعدون للغمز وبث الكذب والافتراء ، بل هم مع ذلك يحبون فى رغد من العيش وسعة المال .

عم التطاول كل مكان واقتحم الثوار القصور ناهبين الأموال مغتصبين الحرائر مهملين الأراضى ، فقد كان السادة الجدد لا يعرفون الزراعة .

لقد فتت هذه الاضطرابات الشيوعية في عضد الدولة حتى إن الحارث بن جبلة ملك غسان قد طرد المنذر حليف الفرس من الحيرة ومرغ أنف الإمبراطورية الفارسية في الرغام .

ولما ولى كسرى أنو شروان الحكم بدأ إصلاحاته بالقضاء على الفوضى التي أحدثها أتباع مزدك ، فرد الأموال إلى أهلها منقولة كانت أو ثابتة ، وجعل من الأموال التي لا وارث لها رصيذا لإصلاح ما فسد . وأما من غلب على أمره من النساء فكان ينظر لحالة كل منهن على حدة : فإذا كانت المرأة المغتصبة من طبقة الغاصب ولم تكن قد تزوجت من قبل أو كان زوجها قد توفى عنها يؤخذ الغالب لها حتى يغرم لها مهرها ويرضى أهلها ، فإذا لم يكونا من أهل طبقة واحدة فالطلاق واجب إذا أصرت الزوجة عليه ، وعلى الزوج أن يدفع لزوجه المهر وأن يرضى أهلها . وإذا كان للمرأة زوج على قيد الحياة وجب ردها إلى زوجها ، وألزم الغالب بأن يدفع لها مهرا مساويا للمهر الذي دفعه زوجها الشرعى من قبل .

وأمر بكل مولود اختلف فيه عنده أن يلحق بما هو منهم إذا لم يعرف أبوه ، وأن يعطى نصيبا من مال الرجل الذي ينسب إليه إذا قبله الرجل . وأمر بكل من كان أضرب رجل في ماله أو ركب أحدا بمظلمة أن يؤخذ منه الحق ثم يعاقب الظالم بعد ذلك بقدر جرمه .

وأمر بعيال ذوى الأحساب الذين مات قيمهم فكتبوا له ، فأنكح بناتهم الأكفاء وجعل جهازهم من بيت المال ، وأنكح شبابهم من بيوتات الأشراف وساق عنهم وأغناهم وأمرهم بملازمة بابه ليستعان بهم في أعماله .

وقضى كسرى على طائفة المزدكية ولكن بقيت الفكرة يتوارثها أجيال من

البشر ، حتى قام القرامطة في أيام الدولة العباسية الأخيرة يدعون إلى شيوعية المال وشيوعية المرأة ، وقد عاث القرامطة فسادا في الدولة الإسلامية حتى أوهنوا الأمة بذلك الفساد الذى كاد أن يجتث جذورها الطيبة التى امتدت في ضمير البشرية .

كان الدين هو الغيث الذى روى شجرة العدالة على مر العصور ، وقد حاولت الفلسفة أن تؤدى رسالة الدين في بعض الأحيان فأقامت مدنا فاضلة في عقول الفلاسفة ورسمت سبلا للعدالة في خيالاتهم ، فلما جاء بعض المؤمنين بالآراء الفلسفية البراقة من ذوى القوة والنفوذ وطبقوا على الناس مذاهب الفلاسفة نشروا الظلم في الأرض وأشاعوا الفساد باسم العدالة والتقوى والحق .

وقد نجح الدين في إسعاد الناس وأخفقت الفلسفة لأن الدين من عند من سوى النفوس ، أما الفلسفة فهى ثمرة عقول أصحاب القلوب المتقلبة ، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ؟

لقد أدت الفلسفة رسالتها أيام كانت تابعة للعقيدة تؤيد بالدليل العقلى ما سلمت به النفوس بالإيمان تسليما لا يقبل رية ولا شكاً ، وقد سار الفلاسفة في ركاب الدين لما كان الدين القوة الوحيدة التى استطاعت أن تثبت لغزوات أمم الشمال المثيرة التى قوضت الدولة الرومانية ، فقد كانت هذه الدولة عاجزة من الوجهة السياسية لا تقوى على حماية نفسها من برايرة الشمال ، وكانت الحضارة العلمية على وشك الانهيار على أيدي أولئك الغزاة خصوصا إذا علمنا أن تلك الحضارة كانت في نفسها منحلة القوى مقوضة الدعائم ، وكانت الحياة الفكرية بأسرها توشك أن تندك على أيدي هؤلاء الفاتحين

السذج الحفاة لو لم تكن هناك تلك القوى الروحية التى اضطرت هؤلاء الغزاة إلى التسليم بها والدخول فى دينها ، والتى عرفت كيف تنقذ هيكل المدينة وتصونه خلال هاتيك القرون ، تلك كانت قوة الدين التى قامت بما لم تستطع أن تقوم به الدولة .

فمن جانب الدين وحده اتصل العالم الجديد بعلم القدماء ، وعن طريق الدين وحده عرفت البشرية السعادة الحقيقية ، ولما وضعت الفلسفة نفسها فى خدمة الدين وأيدت العقائد الدينية قامت بدور إيجابى فى سبيل رفاهية البشرية وراحة النفوس ، ولكن لما عاد الفلاسفة إلى البحوث العلمية مدفوعين بلذة البحث مولعين بجمال المعرفة فى ذاتها معارضين العقيدة الدينية أحياناً ، زعزعوا عقائد البشر وغرسوا فى نفوس الناس الشك والقلق وألقوا بهم فى التيه يتلفتون مفزوعين يقاسون الضياع الأكبر .

« يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون . فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون . فذرهم فى غمرتهم حتى حين . أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نसारح لهم فى الخيرات بل لا يشعرون . إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون . ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون . بل قلوبهم فى غمرة من هذا وهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون . حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم

يجأرون . لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون . قد كانت آياتي تتلى عليكم  
فكنتم على أعقابكم. تنكصون . مستكبرين به سامرا تهجرون . أفلم يدبروا  
القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين» (١)

القاهرة في ٢٩ / ٣ / ١٩٦٧

---

(١) المؤمنون : ٥١ — ٦٨ .

## المراجع

للطبرى	القرآن الكريم
لابن هشام	تاريخ الأمم والملوك
لتقى الدين محمد بن أحمد الفاسى	السيرة النبوية
للدكتور جواد على	شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام
لابن كثير	تاريخ العرب قبل الإسلام
لابن قتيبة	البداية والنهاية
لابن عبد ربه	عيون الأخبار
للألوسى	العقد الفريد
للسمهودى	بلوغ الأرب
لكريستينس — ترجمة يحيى الخشاب	وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى
ول ديورانت	إيران فى عهد الساسانيين
توينبى	قصة الحضارة
أحمد أمين وزكى نجيب محمود	مختصر دراسة التاريخ
ترجمة حنا خباز	قصة الفلسفة الحديثة
لستيفن ونسيमान — ترجمة جاويد	جمهورية أفلاطون
للجاحظ	الحضارة البيزنطية
	تاريخ ابن خلدون
	التاج

Persia Past and Present

Jackson

History of the Jews

By Sachar

رقم الإيداع ٢١٩٧

الترقيم الدولى ٦ — ١٢٢ — ٣١٦ — ٩٧٧

السيرة النبوية

محمد رسول الله

والذي بعثه

مؤيد الرسول

عبد الحميد عبده السخار



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ .

( قرآن كريم )

كانا بيتين متجاورين خلف الكعبة ، أحدهما بيت زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، قريش العظيم ؛ والآخر بيت أخيه قصي أول بني كعب بن لؤى ، أصاب ملكا أطاع له به قومه فكانت إليه الحجابة والسدانة والرفادة والندوة واللواء ، فحاز شرف مكة كله ، وقطع مكة رباعا بين قومه فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التي أصبحوا عليها ، ولما أرادت قريش البنيان قالوا لقصي :

— كيف نصنع في شجر الحرم ؟

فحذروهم قطعه وخوفهم العقوبة في ذلك ، فكان أحدهم يحوف بالبنيان حول الشجرة حتى تكون في منزله .

وجمع قصي قريشا حول الحرم فسمته مجمعا لما جمع من أمرها ، وتيمنت بأمره فما تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش وما يتشاورون في أمر نزل بهم ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا في داره يعقده لهم بعض ولده ، وما تدرع ( تلبس الدرع ) جارية إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا في داره يشق عليها فيها درعا ثم تدرعه ثم ينطلق بها إلى أهلها ، فكان أمره في قومه كالدين المتبع لا يعمل بغيره .

وشرف بيتا الشقيقين زهرة وقصي وظلت أواصر المحبة متينة بين أبناء العم ، وذهب زهرة وذهب قصي فإذا بدار زهرة تضيق بأبنائه وإذا بدار قصي تضيق بأولاد عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى وعبد قصي وتخمر

وبرة ، فابتنى أولاد زهرة دورا حول دار أبيهم وابتنى أبناء قصى دورا حول دار أبيهم . وقامت دور بنى زهرة إلى جوار دور بنى قصى وكانت ألوية السلام ترفرف على الجميع .

ولد عبد مناف أربعة نفر : هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان وذهب كل مذهب ، وكان عبد العزى قد ذاع صيته ، وكان عبد قصى قد علا ذكره ، ولم يكن خاملا من أبناء قصى إلا عبد الدار بكره ، فلما كبر قصى أشفق على عبد الدار وأراد أن يلحقه بإخوته فقال له :

— أما والله يا بنى لألحقتك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ؛ لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له ، ولا يعقد لقريش لواء لحربها إلا أنت بيدك ، ولا يشرب أحد بمكة إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا طعامك ، ولا تقطع قريش أمرا من أمورها إلا في دارك . وأعطاه داره دار الندوة التي لا تقضى قريش أمرا من أمورها إلا فيها ، وأعطاه الحجابة والسقاية والرفادة ؛ وفتح قصى بتلك الوصية أبواب الشحنة بين أولاده .

ورأى بنو عبد مناف أنهم أولى من بنى عبد الدار بالحجابة واللواء والسقاية والرفادة ، لشرفهم عليهم وفضلهم في قومهم ، فأجمعوا على أن يأخذوا ما بأيدي بنى عبد الدار . ففرقت عند ذلك قريش ، طائفة مع عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل يرون أنهم أحق بذلك الشرف من بنى عبد الدار وكان بنو زهرة منهم ، وطائفة مع عبد الدار يرون ألا ينزع منهم ما كان قصى جعل لهم .

وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيبا ووضعوها لأحلافهم عند

الكعبة ، ثم غمض القوم أيديهم فيها ولم يتأخر أحد من بنى زهرة ، فتعاقدوا وتعاهدوا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على أنفسهم ..

كان بنو زهرة وبنو عبد مناف من المطيبين ، وكان بنو زهرة قد تأهبوا لخوض غمار الحرب لمساندة عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل . وكانوا على استعداد لأن يجودوا بدمائهم من أجل بنى عبد مناف ، لولا أن الفريقين المتنازعين قد تداعوا إلى الصلح على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار كما كانت .

وكان عبد شمس رجلا سفارا قلما يعيش بمكة ، فولى هاشم بن عبد مناف الرفادة والسقاية وسن الرحلتين لقريش : رحلتى الشتاء والصيف . وقدم المدينة فتزوج سلمى بنت عمرو أحد بنى عدى بن النجار فربط الأسباب بين مكة والمدينة واليمن ، فقد كانت سلمى من الخزرج ، وكان الأوس والخزرج من اليمن .

وولد لهاشم شيبه وعرف بعبد المطلب ، فكان عبد المطلب جماع حضارة قريش وحضارة يثرب ومدينة سبأ .

ووقعت العداوة بين هاشم وبين أخيه أمية بن عبد شمس ، فقد كان هاشم يحمل ابن السبيل ويؤدى الحقوق ، يتألا وجهه بالنور ويضرب بجوده المثل . وأراد أمية أن يتشبه به فعجز عنه فشمت به ناس كثير من قريش ، فكانت المنافرة بين هاشم وأميه ، وقد حكم الحكم الذى احتكما إليه أن يخرج أمية من مكة عشر سنين وأن تذبح إبله ويطعمها الناس فكانت أول عداوة بين هاشم وأميه . وقد ورث بنو هاشم فيما ورثوا عدواتهم لبنى أميه ، وقد وقف بنو زهرة إلى جوار هاشم وسخروا فيمن سخر بأمية ابن أخيه .

وذاع صيت هاشم حتى طغى على صيت قصي فعرفت داره بدار هاشم

وعرف الحى الذى أقام فيه بنوه من بعده بحى هاشم . وظل اسم زهرة علما على قومه ولم يطغ عليه صيت أحد من بنيه وإن أنجب أشرافا كما أنجب قصى أشرافا ، وقد صار هاشم وزهرة أفضل حين فى العرب .

كانت دور بنى هاشم إلى جوار دور بنى زهرة ، وقد صار عبد المطلب سيد بنى هاشم وزعيم قريش ، وانتهى أمر بنى زهرة إلى وهب ووهيب . وقد تزوج وهب برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى ، وعلى الرغم من زواجه حفيدة عبد الدار فقد كان قلبه مع عبد المطلب حفيد عبد مناف . وقد كان الود متصلا بين وهب ووهيب وعبد المطلب سيد قريش فما كان ينقضى يوم دون أن يجتمعوا فى دار الندوة أو فى ظل الكعبة أو فى دار من دورهم يتشاورون فى أمور دينهم ودنياهم .

وفتحت دار عبد المطلب وخرج منها زعيم قريش يحف به أبنائه الحارث والزبير وحجل والمقدم وضرار وعبد العزى — وقد عرف بأبى لهب لإشراق وجهه — وعبد مناف الذى عرف بأبى طالب . فقد رأى عبد المطلب يوم كان يقوم بحفر زمزم وحده أن ابنه الوحيد الحارث أعجز من أن يصد عنه قومه الذين أتوا ليمنعوه من أن يحفر بين صنميها إساف ونائلة ، فوطن النفس على أن يتزوج فى بيوتات قريش لتكون له عصابة منهم يؤيدونه ويناصرونه ، فتزوج فى بنى نزار وتزوج فى بنى مخزوم وتزوج فى بنى مرة بن كعب بن لؤى وتزوج فى بنى قصى بن كلاب ، فجمع بيوت قريش على قلب رجل واحد .

وكان عبد المطلب قد نذر حين لقى من قريش ما لقى عند حفر زمزم : لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة . إنه ليذكر ذلك النذر ولا ينساه . وقد توافى بنوه عشرة بعد أن وضعت له فاطمة بنت عمر بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى بن

غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابنه عبد الله ، بيد أن عبد الله لم يبلغ الحلم بعد فعاش عبد المطلب ينتظر أن يبلغ عبد الله مبلغ الرجال ليفى بنذره .  
وانطلق عبد المطلب إلى الكعبة وكان مديد القامة أبيض مشربا بحمرة حسن الوجه يتألق بالنور وعز الملك ، يطيف به من حضر من بنيه كأنهم أسد غاب ، ويسير خلفهم عبيدهم من فرس وروم وأحباش فقد كانت تجارة أسرى الحرب أروج تجارة ، وكان الإقبال على شراء الرقيق الأبيض من الجنسین شديداً ، فالرجال آلة جيدة من آلات التجارة والصناعة فهم أهل حضارة وعلم ، والنساء بارعات الحسن يشعلن نار الصبابة في قلوب رجال الصحراء .

وبلغ عبد المطلب وبنوه الحرم فراحوا يطوفون بالكعبة . حتى إذا ما أتموا الطواف انطلق عبد المطلب إلى فراش معد له في ظل البيت العتيق وجلس عليه ، وجلس أبناؤه حوله بعيدا عن ذلك الفراش فما كان يجلس عليه أحد غيره احتراماً له وإجلالاً لقدره .

وجاء أمية بن عبد شمس وابنه حرب ، وكان أمية قصير القامة نحيف الجسم وكان في رفقة ابنه حرب ، وكان حرب نديم عبد المطلب قلما يفترقان وإن كانت الغيرة من عبد المطلب تنهش قلب أمية ، فقد ذهب أبوه هاشم بالشرف يوم أن حكم له الكاهن الذي ذهباً إليه ليحكم بينهما أيهما أعز نفراً وأكثر فضلاً . وها هو ذا عبد المطلب يذهب بالشرف كما ذهب به أبوه من قبل ، فلقد دعاه الناس « شيبه الحمد » لكثرة حمد الناس له ، ودعوه بالفياض لجوده ، ومطعم طير السماء لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رعوس الجبال ، وقد أسلس قومه له القيادة يفرعون إليه في النوائب ويلجئون إليه في الأمور .

كان أمية يؤمن في قرارة نفسه أنه أحق بزعامة قريش من هاشم عمه ، وإنه لعل يقين من أن ابنه حرب أحق بزعامة قريش من عبد المطلب بن هاشم . فإن كان عبد المطلب يطعم الناس فإن نيرانه ونيران ابنه حرب تظل مشعّة طوال الليل تدعو الضيف إلى حيث الكرم والجود ، وإن كان عبد المطلب يبعث بقوافل قريش إلى بلاد فارس وبلاد الروم واليمن فإن ابنه حرب ينطلق بالتجارة إلى العراق ، وقد توطدت الصداقة بينه وبين أشراف الحيرة حتى إنه تعلم الكتابة منهم .

ازدهرت التجارة في مكة وخرجت القوافل تجوب الآفاق تحمل الأقمشة والمعادن والجلود والعطور والأصباغ والجواهر والأصواف والحلى ، وقد حل المكيون محل التجار اليمنيين بعد أن استولى أبرهة على اليمن وشل تجارتها . وأصبح تجار مكة يحملون حرير فارس إلى بلاد الروم بعد أن وقعت البغضاء بين كسرى أنو شروان إمبراطور إيران ويوسطيانوس إمبراطور الروم وقطعت سبل الاتصال بين إمبراطورية الشرق وإمبراطورية الغرب . فإن كانت الأموال قد تدفقت على مكة فإن الظروف السياسية في المنطقة قد خدمت عبد المطلب ، وإن ابن أخيه حرب قد بذل جهدا ضخما في ثراء مكة .

كان أمية بن عبد شمس يحس كأن عبد المطلب قذى في عينيه ولكن ابنه حرب كان يحب عبد المطلب . ولم يكن قد مرضت نفسه من ابن هاشم بعد . فلما رأى عبد المطلب انجفل إلى مجلسه بينا ذهب أبوه أمية إلى الملتزم ، إلى حيث كان الكتاب يرمون العقود ويكتبون الموائيق .

وراح عبد المطلب وحرب بن أمية يتناجيان ، حتى إذا ما جاء وهب ووهيب وبعض رجال زهرة من التجار الذين كانوا يجوبون أسواق مصر

وبصرى والشام دار الحديث حول أخبار تلك البلاد ، فقال الذى كان يأتى  
بالأثواب المنسوجة فى تانيس والمصوغات المجلوبة من منف :

— إن أهل مصر فى ضيق فقد وضع قيصر عليهم ضرائب باهظة ، وهم  
يقاسون ذل الاضطهاد فإذا كانوا على دين النصارى مثلهم مثل الروم  
فالاختلاف بينهم فى الدين شديد ..

وراح الرجل يتحدث عن أوجه الخلاف فى الدين بين أقباط مصر وبين  
نصارى الروم ، فالأقباط على المذهب القائل بوحدة طبيعة المسيح بينا الرومان  
يؤمنون بلاهوت المسيح وناسوته وبالتثليث . وكان العرب على علم بدين  
الروم . فقد كان للرومان بيوت تجارية فى مكة وكانت تلك البيوت تقوم  
بالتجارة وبالتجسس على أحوال العرب ، فقد كان أبرهة الأشرم يتطلع إلى  
غزو الحجاز ليتصل نصارى الحبشة واليمن بنصارى الشام والروم ، فيتحقق  
بذلك حلم الرومان الذى أخفق فى تحقيقه أو ليوس غاليوس يوم أن اتهم صالح  
وزير ملك النبط بالخيانة وبتضليل جيش الرومان فى الصحراء .

وراح حرب بن أمية يتحدث عن عرب دومة الجندل وعن صديقه بشر بن  
عبد الملك أخى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل وعن انتشار الكتابة  
هناك ، وأصغى عبد المطلب وبنوه ومن عنده من الرجال إلى حديث القلم  
العربى فى الحيرة والأنبار وفى دومة الجندل فى عجب وإعجاب ، ولا غرو فقد  
طمر الزمن حقيقة نشأة القلم العربى فما دار بخلد أحد من السَّامِ أنَّهُ على بعد  
خطوات منهم منذ ألفين ومائتين من السنين قد نشأ القلم العربى عند بشر  
زمزم ، فى تلك الأيام التى كانت هاجر المصرية تعلم ابنها إسماعيل مبادئ  
الكتابة والقراءة ، وإن إسماعيل قد كتب الجمل موصولة ، وأن ابنه قيذار قد  
فصل بينها ، وأن أبناء إسماعيل حملوا معهم ذلك القلم يوم أن خرجوا من مكة

ليتفسحوا في الأرض إلى دومة الجندل وإلى صحراء سيناء وإلى أرض النبط .  
وقد ازدهر ذلك القلم في البتراء وانتشر فيما حولها من البلاد ثم عاد مرة أخرى  
إلى مكة بعد أن تهذب ليصبح قلم قريش ويتنظر النبأ العظيم .

ودار الحديث حول الفرس وكسرى أنو شروان وعدله وكرمه ، وراح  
الحاضرون يقصون بعض نوادر كرمه فقال قائل منهم :

— قعد كسرى أنو شروان ذات يوم في المهرجان ووضعت الموائد .  
ودخل وجوه الناس الإيوان على طبقاتهم ومراتبهم ، وقام الموكلون بالموائد  
على رعوس الناس وكان كسرى بحيث يراهم .

فلما فرغ الناس من الطعام جاءوا بالشراب في آنية الفضية وجامات  
الذهب ، فشرب الأساورة وأهل الطبقة العالية في آنية الذهب . فلما انصرف  
الناس ورفعت الموائد أخذ بعض القوم جاما ذهباً فأخفاه في خبائه وأنو شروان  
يلحظه ، فصرف وجهه عنه . وافتقد صاحب الشراب الجام فصاح :  
لا يخرجن أحد من الدار حتى يفتش .

فقال كسرى : « لا تتعرض لأحد » . وأذن للناس فانصرفوا ، فقال  
صاحب الشراب : « أيها الملك إنا فقدنا بعض آنية الذهب » . فقال الملك :  
« قد أخذها من لا يردها عليك ، وقد رآه من لا ينم عليه » .

وجاء رجل يهودى يسعى حتى إذا بلغ مجلس عبد المطلب ألقى التحية ثم  
جلس ، فقد كان في جوار عبد المطلب وفي حمايته ، وقد كانت مكة تفيض  
باليهود ونصارى الروم والأحباش الذين يشرفون على تجارتهم في المدينة  
المقدسة التي يحج إليها العرب ويأتون إليها من كل فج عميق ، وكانوا يمارسون  
ديانتهم في حرية فقد كانت كل العبادات تمارس في مكة .

شب عبد المطلب في يثرب في كنف أمه سلمى بنت عمرو الخزرجية ،

وكان في صباه يدور على جوانيت اليهود في السوق في النهار ويمضي بعض  
الأمسيات يصغي إلى حديث الدين ، فاعتنق بعض آراء اليهود دون أن  
يدري ، فلما بدأ عبد المطلب يتحدث أسفر عن أثر اليهود في معتقداته قال :  
— لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبه .

فقال اليهودي في فرح :

— صدقت .

كانت اليهودية قد فسدت بعد أن حمل بختنصر اليهود أسرى إلى بابل ، فقد  
نسوا الآخرة والبعث بعد الموت وما دعاهم إليه إبراهيم وإسحاق ويعقوب  
ويوسف وموسى ، واعتنقوا معتقدات البابليين وقالوا بما كان يقول البابليون  
من أن المرء يثاب على عمله في الدنيا إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وأنكروا  
البعث والقيامة والحساب في الدار الآخرة .

وراح أحد الحاضرين يؤيد رأى عبد المطلب فقال :

— إن هي إلا حياتنا الدنيا .

وأخذ اليهودي طرف الحديث وراح يحدث أخبار بني إسرائيل فصار  
قطب الرحي في مجلس أشراف قريش وسادتها ، وضايق ذلك حرب بن أمية  
فنهز اليهودي وأغلظ له فرمى عبد المطلب حرب بن أمية بنظرة قاسية فهمها  
حرب ، فقد كانت تقول في فصاحة قد يعجز عنها اللسان : « إنه في جوارى  
وإني لا أسمح لك أن تنهره في مجلسي » . فنهض حرب بن أمية وقد لاح في  
وجهه الغضب ، ثم انصرف لا يلوى على شيء .

كانت العداوة مستعرة الأوار بن عرب الفرس وعرب الروم . فإن كان عمرو بن هند ملك الحيرة قد أصبح في الغابرين وإن كان الحارث بن جبلة ملك الغساسنة قد لحق بآبائه ، فإن قابوس أخا عمرو بن هند كان أول ما فكر فيه بعد أن صار ملك الحيرة أن يغزو الشام وأن يأسر المنذر بن الحارث بن جبلة ملك الغساسنة وحليف الروم .

تولى قابوس الحكم وهو رجل مسن حنكته التجارب وعركته الأيام ، ولكنه لم يفكر في أن يجمع شمل العرب بأن يعقد صلحا بينه وبين عرب الشام ويوحد صفوف الحيرة وغسان ليصبح للعرب قوة تهابها فارس وتخشأها الروم ، بل عمل على فرقة العرب وإشعال نار البغضاء في النفوس فجمع جيوشه وخرج من الحيرة قاصدا عرب الشام . وقد كان على علم بالطريق فإنه قد حمل حملة انتقامية على الغساسنة في أيام أخيه .

وأغار الشيخ قابوس على الشام وأعمل القتل في الرجال وسبى ما وقع في يده من النساء وأسر الشباب لبيعههم في أسواق الحيرة وفارس ويثرب ومكة ، وغنم غنائم كثيرة ثم قفل عائدا وهو يحلم برضا كسرى أنو شروان إمبراطور الفرس العظيم .

وأفاق المنذر بن الحارث بن جبلة من هول المفاجأة فجمع جيوشه وخرج في أثر عدوه يطير على جناح الكراهية حتى لحق به ، فالتحم عرب الحيرة بعرب الشام ودارت معركة رهية سالت فيها دماء العرب على الأرض إرضاء

لكسرى وقيصر ، ولم يتمكن قابوس من الثبات فانهزم هزيمة منكرة وفر هو ومن سار معه من الناجين في اتجاه نهر الفرات ، تاركاً عدداً من الأمراء اللخميين أسرى في أيدي المنذر .

واقضى جيش الشام أثر جيش الحيرة فقد كان المنذر يطمع في أن يقضى على غريمه في المعركة ، ولكن قابوس كان قد نجح في انسحابه في أن يدخل مملكته . فلما رأى المنذر أنه أصبح على ثلاث مراحل من الحيرة وأنه قد أخذ من قابوس أموالاً كثيرة وعدداً من الجمال كبيراً أثر أن يعود منتصراً ليرضى بنصره يوسطانيوس قيصر الروم .

كان قابوس يبغي من حروبه وجه كسرى ، وكان المنذر بن الحارث يبغي وجه قيصر ، وكانت دماء العرب تسيل أنهاراً إرضاء لكسرى وقيصر . وكان كل من كسرى أنوشروان ويوسطانيوس راضياً عن تلك الحروب كل الرضا فقد كانت توهن العرب وتمنع كلاب الحراسة من أن يتحولوا إلى أسد غاب ينقضون على قلب الفرس وقلب الروم .

وجلس قابوس في قصره الخورنق يفكر في أمره : إنه هزم من المنذر بن الحارث هزيمة تجرح النفس وتدمى القلب ولن يذوق الراحة قبل أن يثار لهزيمة ويعيد للحيرة كرامتها . وطار فكره إلى المدائن عاصمة فارس فقد كانت قبلة ملوك الحيرة ، كما كانت القسطنطينية قبلة ملوك الشام .

آه لو كان عدى بن زيد العبادي في الحيرة لانطلق معه إلى المدائن وافتحت لهما أبواب قصر كسرى ، فما كان كسرى أنوشروان يرد لعدى طلباً . ولكن عدى في جفير في البحرين ينعم برياضها ومائها ومنازعها ، وإنه ليشتم في الحيرة ويأتي المدائن في خلال ذلك فيخدم كسرى .

وشرد قابوس يفكر في عدى ، فإذا بالسنين تطوى في ذهن الملك الشيخ

وإذا بالأحداث تترادف على رأسه فتفتح الرؤيا لعين الخيال ، وإذا بتاريخ قد طوته السنون يبعث في نفس الملك المتهالك على أعتاب فارس .

وكان منزل أيوب بن محروف بن عامر بن عقيّة بن امرئ القيس بن زيد بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار ، جد عدى في اليمامة ، فأصاب دما في قومه فهرب فألحق بأوس بن قلام أحد بنى الحارث بن كعب بالحيرة . وكان بين أيوب بن محروف وبين أوس بن قلام هذا نسب من قبل النساء . فلما تقدم عليه أيوب أكرمه وأنزله في داره فمكث معه ما شاء الله أن يمكث ، ثم إن أوسا قال له :

— يا بن نخال ، أتريد المقام عندي وفي داري ؟

— نعم . علمت أني إن أتيت قومي وقد أصبت فيهم دما لم أسلم ، ومالي دار إلا دارك آخر الدهر .

— إني قد كبرت وأنا خائف أن أموت فلا يعرف ولدي لك من الحق مثل ما أعرف ، وأخشى أن يقع بينك وبينهم أمر يقطعون فيه الرحم ، فانظر أحب مكان في الحيرة إليك فأعلمني به لأقطعك به أو أبتاعه لك .

فابتاع له موقع داره بثلاثمائة أوقية من ذهب وأنفق عليها مائتي أوقية ذهبا ، وأعطاه مائتين من الإبل برعائها وفرسا وقينة . فمكث في منزل أوس حتى هلك ثم تحول إلى داره التي في شرق الحيرة . واتصل أيوب بالملوك الذين كانوا بالحيرة وعرفوا حقه وحق ابنه يزيد ، وثبت أيوب فلم يكن منهم ملك يملك إلا ولولد أيوب منه جوائز وحملان .

وتزوج زيد بن أيوب امرأة من آل قلام فولدت حمادا . فخرج زيد بن أيوب ذات يوم يريد الصيد في ناس من أهل الحيرة فانفرد في الصيد وتباعد من أصحابه ، فلقيه رجل من بنى امرئ القيس الذين كان لهم الثأر قبل أبيه فعرف

فيه شبه أيوب ، فقال له :

— ممن الرجل ؟

— من بنى تميم .

— من أيهم ؟

— مرئى ( نسبة إلى امرئ القيس ) .

— وأين منزلك ؟

— الحيرة .

— أمن بنى أيوب أنت ؟

— نعم ، ومن أين تعرف بنى أيوب ؟

واستوحش من الأعرابي وذكر الثأر الذى هرب أبوه منه ، فقال الأعرابي

في خبث :

— سمعت بهم .

ولم يعلمه أنه عرفه ، فقال له زيد بن أيوب :

— فمن أى العرب أنت ؟

— أنا امرؤ من طيء .

فأمنه زيد وسكت عنه .

ثم إن الأعرابي اغتفل زيد بن أيوب فرماه بسهم فوضعه بين كتفيه ففلق

قلبه ، فلم يبرح حافر دابته حتى مات .

ومكث حماد في أخواله حتى أيفع فخرج ذات يوم يلعب مع غلمان بنى

لحيان ، فلطم اللحياني عين حماد فشجه حماد ، فخرج أبو اللحياني فضرب

حمادا فجزعت من ذلك أم حماد وحولته إلى دار زيد بن أيوب وعلمته الكتابة

في دار أبيه ، فكان حماد أول من كتب من بنى أيوب فخرج من أكتب الناس .

وطلب حتى صار كاتب النعمان الأكبر ، فلبث كاتباً له حتى ولد له ابن من امرأة تزوجها من طيئ فسماه زيدا باسم أبيه ، وكان لحماذ صديق من الدهاقين ( التجار ) العظماء يقال له فروخ ماهان ، وكان محسناً إلى حماد ، فلما حضرت حمادا الوفاة أوصى بابنه إلى زيد الدهقان وكان من المرازبة ، فأخذ الدهقان إليه فكان عنده مع ولده .

كان زيد قد حذق الكتابة العربية قبل أن يأخذه الدهقان ، فعلمه لما أخذه الفارسية وكان لبيبا ، فأشار الدهقان على كسرى أن يجعله على البريد في حوائجه ، ولم يكن كسرى يفعل ذلك إلا بأولاد المرازبة ، فمكث يتولى ذلك لكسرى زمانا . ثم إن النعمان النصرى اللخمى هلك فاختلف أهل الحيرة فيمن يملكونه إلى أن يعقد كسرى الأمر لرجل ينصبه ، فأشار عليهم المرزبان يزيد بن حماد فكان على الحيرة إلى أن ملك كسرى المنذر بن ماء السماء .

وتزوج زيد بن حماد نعمة بنت ثعلبة العدوى فولدت له عدثا ، وملك المنذر وكان لا يعصيه في شيء . وولد للمرزبان ابن فسماه « شاهان مرد » فلما تحرك عدى بن زيد وأيقع طرحه أبوه في الكتاب ، حتى إذا حذق أرسله المرزبان مع ابنه « شاهان مرد » إلى كتاب الفارسية ، فكان يختلف مع ابنه ويتعلم الكتابة والكلام بالفارسية ، حتى خرج من أفهم الناس بها وأفصحهم بالعربية .

وقال الشعر وتعلم الرمي بالنشاب فخرج من الأساورة الرماة ، وتعلم لعب العجم على الخيل بالصوالة وغيرها . ثم إن المرزبان وفد على كسرى ومعه ابنه « شاهان مرد » فبينما هما واقفان بين يديه إذ سقط طائران على السور فتطاعما كما يتطاعم الذكر والأنثى ، فجعل كل واحد منقاره في منقار الآخر ( مولد الرسول )

فقال كسرى للمرزبان وابنه :

— ليرم كل واحد منكما واحدا من هذين الطائرين فإن قتلتكما أدخلتكما بيت المال وملأت أفواهكما بالجواهر ، ومن أخطأ منكما عماقته .

فاعتمد كل واحد منهما طائرا منهما ورميا فقتلاهما جميعا ، فبعثهما إلى بيت المال فملئت أفواههما جوهرا . وأثبت « شاهان مرد » وسائر أولاد المرزبان في صحابته ، فقال فروخ ماهان عند ذلك للملك :

— إن عندي غلاما من العرب خلفه أبوه عندي فربيته ، فهو أفصح الناس وأكثهم بالعربية والفارسية ، والمملك محتاج إلى مثله ، فإن رأى أن يُثبته في ولدي فعل .

— ادعه .

فأرسل إلى عدّي بن زيد وكان جميل الوجه فائق الحسن وكانت الفرس تترك بالجميل الوجه ، فلما كلمه الملك وجدته أظرف الناس وأحضرهم جوابا ، فرغب فيه وأثبته مع ولد المرزبان . فكان عدى — حفيد عدنان — أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى . فرغب أهل الحيرة إلى عدى ورهبوه ، فلم يزل بالمدائن في ديوان كسرى يؤذن له عليه في الخاصة وهو معجب به قريب منه ، وأبوه زيد بن حماد يومئذ حى ، إلى أن ارتفع ذكر عدى وخمل ذكر أبيه ، فكان عدى إذا دخل على المنذر قام جميع من عنده حتى يقعد عدى ، فعلا له بذلك صيت عظيم ، فكان إذا أراد المقام بالحيرة في منزله ومع أبيه وأهله استأذن كسرى فأقام فيهم الشهر والشهرين وأكثر وأقل . وأرسل كسرى عدى بن زيد إلى ملك الروم بهدية من طُرف ما عنده ، فلما أتاه عدى بها أكرمه وحمله إلى عماله على البريد ليريه سعة أرضه وعظيم ملكه ، فمن ثم وقف عدى بدمشق وقال فيها الشعر .

وفسد أمر الحيرة وعدى بدمشق حتى أصلح أبوه بينهم ، لأن أهل الحيرة كان عليهم المنذر أرادوا قتله لأنه كان لا يعدل فيهم وكان يأخذ من أموالهم ما يعجبه ، فلما تيقن أن أهل الحيرة قد أجمعوا على قتله بعث إلى زيد بن حماد وكان قبله على الحيرة فقال له :

— يا زيد أنت خليفة أبى وقد بلغنى ما أجمع عليه أهل الحيرة فلا حاجة لى فى ملككم دونكموه ملكوه من شئتم .

فقال له زيد :

— إن الأمر ليس إلتى ، ولكنى أسيرُ لك هذا الأمر ولا آلوك نصحا .

فلما أصبح غدا إلتيه الناس فحيوه تحية الملك وقالوا له :

— ألا تبعث إلى عبدك الظالم فتريح منه رعيتك .

وفهم زيد أنهم يعنون المنذر فقال لهم :

— أولا خير من ذلك ؟

— أشر علينا .

— تدعونه على حاله فإنه من أهل بيت مُلك ، وأنا آتية فأخبره أن أهل الحيرة

قد اختاروا رجلا يكون أمر الحيرة إلتيه ، إلا أن يكون غزوا أو قتال فلك اسم

الملك وليس إلتيك سوى ذلك من الأمور .

— رأيك أفضل .

فأتى المنذر فأخبره بما قالوا ، فقبل ذلك وفرح وقال :

— إن لك يا زيد على نعمة لا أكفرها ما عرفت من حق سبد .

وكان سبد صنما لأهل الحيرة ، فولى أهل الحيرة زيدا على كل شىء سوى

اسم الملك فإنهم أقروه للمنذر .

ثم هلك زيد وابنه عدى يومئذ بالشام ، وكانت لزيد ألف ناقة كان أهل

الحيرة أعطوه إياها حين ولوه ما ولوه ، فلما هلك أرادوا أخذها فبلغ ذلك المنذر فقال :

— لا واللات والعزى لا يؤخذ مما كان فى يد زيد شئ ، وأنا أسمع الصوت .

ثم إن عدى قدم المدائن على كسرى بهدية قيصر ، فصادف أباه والمرزبان الذى رباه قد هلكا جميعا ، فاستأذن كسرى فى الإلمام بالحيرة فأذن له فتوجه إليها . وبلغ المنذر خبره فخرج فتلقاه الناس ورجع معه وعدى أنبل أهل الحيرة فى أنفسهم ولو أراد أن يملكوه للمكوه ، ولكنه كان يؤثر الصيد واللهو واللعب على الملك فمكث سنين يبدو فى فصل السنة ، فيقيم فى جفير ويشترى بالحيرة ويأتى المدائن فى خلال ذلك فيخدم قيصر .

وكان المنذر لما ملك جعل ابنه النعمان بن المنذر فى حجر عدى بن زيد فهم الذين أرضعوه وربوه ، وكان للمنذر ابن آخر يقال له « الأسود » أمه مارية بنت الحارث بن جلهم من تيم الرباب ، فأرضعه ورباه قوم من أهل الحيرة يقال لهم مرينا ينسبون إلى لحم وكانوا أشرافا .

وكان للمنذر سوى هذين من الولد عشرة ، وكان ولده يقال لهم « الأشاهب » من جمالههم . وكان النعمان من بينهم أحمر أبرش قصيرا ، وأمهم سلمى بنت وائل بن عطية الصائغ من أهل فذك على بعد يومين من المدينة . ومرت الأيام وقدم عدى بهدية من كسرى إلى المنذر والنعمان يومئذ فتى شاب ، وبعد أن قدم عدى هدية كسرى إلى المنذر دخل البيعة ليصلى لله فى الوقت الذى دخلت فيه هند بنت النعمان .

كانت هند من أجمل نساء أهل زمانها وكانت مديدة القامة عبله الجسم ولها حينئذ إحدى عشرة سنة ، فرآها عدى وهى غافلة فلم تنتبه له حتى تأملها ،

وقد كان جواربها رأين عديا وهو مقبل فلم يقلن لها كى يراها عدى .  
ورأت هند عديا ينظر إليها فشق ذلك عليها وسبت جواربها ونالت بعضهن  
بضرب ، فوقعت هند فى نفس عدى فلبث حولا لا يخبر بذلك أحدا .  
وجاءت جارية من جواربها إليها وراحت تزين لها بيعة توما وتصف لها من  
فيها من الرواهب ومن يأتيها من جوارى الحيرة وحسن بنائها وسرجها ، ثم  
قالت لها .

— سلى أملك الإذن لك فى إتيانها .  
فسألتها ذلك فأذنت لها ، وبادرت الجارية إلى عدى فأخبرته الخبر فبادر  
فلبس قباء كان « فرخان شاه مرد » قد كساه إياه وكان مذهبا لم ير مثله حسنا ،  
وكان عدى حسن الوجه مديد القامة حلو العينين حسن الميسم نقى الثغر ،  
وأخذ معه جماعة من فتيان الحيرة فدخل البيعة ، فلما رأته الجارية قالت لهند :  
— انظرى إلى الفتى ! فهو والله أحسن من كل ما تريد من السرج  
وغيرها !

— ومن هو ؟  
— عدى بن زيد .  
— أتخافين أن يعرفنى إن دنوت منه لأراه من قريب ؟  
— ومن أين يعرفك وما رآك قط من حيث يعرفك !  
فدنت منه وهو يمازح الفتيان الذين معه وقد برع عليهم بجماله وحسن  
كلامه وفصاحته وما عليه من الثياب ، فذهلت لما رأته وبهتت تنظر إليه ،  
وعرفت الجارية ما بها وتبينته فى وجهها فقالت لها :  
— كلميه .

فكلمته وانصرفت وقد تبعته نفسها وهويته وانصرف وقد شغف بها

حبا . فلما كان الغد تعرضت له الجارية فلما رآها هش لها وكان قبل ذلك لا يكلمها ، وقال لها :

— ما غدا بك ؟

فعاهدته على أن تحتال له في هند ، ثم تركته فأئت هنداً فقالت :

— أما تشتهين أن ترى عدياً ؟

— وكيف لي به ؟

— أعدده في ظهر القصر وتشرفين عليه .

— افعلی .

فواعدته إلى ذلك المكان فأتاه ، وأشرفت هند عليه فكادت تموت وقالت :

— إن لم تدخله إليّ هلك .

فبادرت الأمة إلى النعمان فأخبرته خبرها وصدقته ، وذكرت أنها قد شغفت به وأنه إن لم يزوجها به افتضحت في أمره أو ماتت ، فقال لها :

— ويلك ! وكيف أبدؤه بذلك !

— هو أرغب في ذلك من أن تبدأ أنت ، وأنا أحتال في ذلك من حيث لا يعلم أنك عرفت أمره .

وأئت عدياً فأخبرته الخبر وقالت :

— ادعه ، فإذا أخذ الشراب منك فاخطب إليه فإنه غير رادك .

— أخشى أن يغضبه هذا فيكون سبب العداوة بيننا .

— ما قلت لك هذا حتى فرغت منه معه .

فصنع عدي طعاماً واحتفل فيه ، ثم أتى النعمان فسأله أن يتغدى عنده هو وأصحابه ففعل ، فلما أخذ منه الشراب خطبها إلى النعمان فأجابته وزوجه

وضمها إليه بعد ثلاثة أيام .

طافت كل هذه الأحداث برأس الملك قابوس وهو جالس في مكانه ثم غمغم : « ذلك عدى بن زيد وقد تزوج فيها ، وهذه مكانته في بلاط كسرى . إنه سيعاوننى ولا ريب وسيلتمس من كسرى أن يجهزنى لقتال المنذر بن الحارث بن جبلة حليف الروم » .

وتأهب الشيخ قابوس للسفر إلى المدائن وهو يحلم باستقبال رائع كذلك الاستقبال الذى قوبل به الحارث بن جبلة فى القسطنطينية ، ترى أخرج كسرى أنو شروان لاستقباله كما خرج يوسطانيوس لاستقبال الحارث ؟ ووصل قابوس إلى عاصمة فارس فإذا بضابط عظيم فى استقباله ، وبعد أن حياه فى إجلال قاده إلى قاعة العرش ليقابل « الإنسان الأول » . فما كان أحد ليجرؤ أن ينادى الملك باسمه أو لقبه ، فملوك الساسانيين من الكائنات الإلهية .

وفتح باب قاعة العرش ونادى الحارس الواقف بالباب بصوت جهورى :  
— الملك المبجل قابوس ملك الحيرة .

ودخل قابوس يحف به رجال القصر فإذا بكسرى أنو شروان على عرشه وعلى رأسه التاج من الذهب محلى بالجواهر والياقوت الذى رصع به يشع عظمة ، وقد أحيط بصف من اللائى كانت تلمع فوق التاج وقد انعكس نورها المتموج على ألوان الزمرد الزاهية ، فلما وقعت عينا قابوس على ذلك التألّق وقعتا على عجب محير .

وكان كسرى يلبس سروالا مزخرفا بالذهب منسوجا باليد على لون السماء ، وكان العرش محمولا على الخيول ذات الأجنحة ، وعلى بعد عشرة أذرع جلس الأساورة وأبناء الملوك وكان عدى بن زيد فيهم . وعلى بعد عشرة

أذرع من هذه الطبقة جلست بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم .

وتقدم قابوس من العرش حتى إذا ما أصبح على بعد خطوات من كسرى جذب من كفه ششتقة بيضاء نقية غطى بها فمه ليمنع أنفاسه من تلويث الأشياء المقدسة ووقاية لجلال الملكية ، ثم بدأ حديثه بالتحية ، وتمنى أن يحقق الله رغبات قدسية الملك الطاهر والإنسان الأول .

وأجلس كسرى أنو شروان الملك قابوس ملك الحيرة إلى جواره ثم راح يسأله عن رحلته وعن حالة بلاده وجيشه ، فأخذ قابوس يصف ما لقي من كرم رجال الملك الطيب أينما نزل ، وراح يصف حال بلاده وحال جيشه الذى يريد أن يقويه ليغزو أهل الشام نكاية فى قيصر ، وكان يقول بين كل جملة وجملة « خلدك الله » أو « حقق الله رغبات قدسيتمكم » ليستميل كسرى أنو شروان وينال رضاه وعطفه .

وانتقل كسرى وقابوس إلى مائدة الملك ، وكان عن يمين كرسى الملك كرسى من الذهب وكرسیان آخران من الذهب عن يساره وورائه ، فأحد هذه الكراسى الثلاثة كان خاصا بملك الصين ، والثانى لملك الروم ، والثالث لملك الخزر ، بحيث إنهم إذا أتوا إلى بلاط كسرى جلسوا على هذه الكراسى . وهذه الكراسى الثلاثة توضع طول السنة ، فلم تكن ترفع ولا يجرؤ أحد على الجلوس عليها ، ولكن كسرى أجلس قابوس عن يمينه إكراما له وتعظيما . وكان أمام العرش كرسى من ذهب جلس عليه البزرك فرمادار — ومن تحته كراسى حجزت للمرازية والعظماء ، وكان لكل كرسى خاص حسب مكانته .

وأمر كسرى بالتأهب للخروج للصيد إكراما لقابوس ، فراح الأساورة

والموبدان موبد وخاصة الملك يعرضون دوابهم على صاحب دواب الملك ،  
لأنه لا ينبغي أن يكون حصان أحدهم بليدا أو كثير النفور أو العثار أو  
الجماح ، فيكون على الملك من ذلك بعض ما يكره .

ولما كان ينبغي على الحصان ألا يروث أو يبول أو يتحصن أو يتشعب في  
حضرة الملك فقد امتنع الأساورة عن أن يطعموا دوابهم ، ففى الغد  
سيخرجون مع الملك وضيفه إلى رحلة صيد ، وكانت مصاحبة الملك في  
رحلة واجبا ثقيلًا وشرفا غير مساغ عند عظماء مملكته !

وخرج كسرى وقابوس وعدى بن زيد للصيد ، وقد كانت فرصة طيبة  
لقابوس فاهتبلها وحدث الملك الطيب عن رغبته في تقوية جيشه ليغزو المنذر  
ابن الحارث بن جبلة حليف قيصر ، وقد شد عدى بن زيد أزر قابوس حتى  
إن كسرى وعد بمعاونة ملك الحيرة وتجهيزه لقتال عرب الشام .

وعاد قابوس إلى عاصمة ملكه وقد تدفقت الدماء حارة في عروق الشيخ  
وراح قلبه يخفق بالكراهية لعرب الروم ، وما كاد يستقر في قصر الخورنق حتى  
أصدر أوامره بتجهيز الجيوش للخروج لقتال الغساسنة .

وراح العرب يتأهبون لسفك دماء العرب . أما من رجل رشيد من العرب  
يوحد صفوفهم لوجه الله لا لوجه كسرى ولا لوجه قيصر ؟!

خرجت آمنة بنت وهب ، وابنة عمها هالة بنت وهيب ، وبعض بنات  
بنى زهرة وصبيانهم ، وبعض بنات بنى هاشم وصبيانهم ، من دورهم ليلعبوا  
على روابى مكة وفى وديانها ، وانطلقوا فى طرقات مكة الضيقة يضحكون فى  
براءة الملائكة . وإن هى إلا خطوات حتى أشرفوا على الكعبة ، فقد كانت  
الدور تحيط بالحرم تقترب منه أو تبتعد عنه لما لكل أسرة من مكانة ومقام ،  
فكان بنو زهرة وبنو هاشم أقرب أهل مكة إلى البيت المقدس فقد كانا أشرف  
حين من العرب .

كانت الشمس قد أشرقت فغمرت أشعتها الدور التى انتشرت على سفوح  
الجبال المحيطة بأول بيت وضع للناس ، وبدأت الحياة تدب فى الوادى المقدس  
فانحدر الناس ليطوفوا بالبيت العتيق قبل أن ينصرفوا إلى أعمالهم . واستقبل  
غلام من بنى زهرة قرص الشمس وقد أخذ بين سبابته وإبهامه سنا له قد  
سقطت ، ثم قذف بها وهو يقول :

— يا شمس ، أبدلينى بسن أحسن منها ، ولتجر فى ظلمتها آياتك .

وضحكت آمنة وغلمان بنى زهرة وبنى هاشم ثم انطلقوا كفراشات  
طليقة إلى الصفا ووقفوا فوقه ينظرون إلى الكعبة وإلى بئر زمزم وإلى قوافل  
الحجاج التى بدأت تفد على مكة ، فقد دنا موسم الحج . ولمح أحدهم قافلة  
قادمة من ناحية الطائف فصاح فى فرح :

— قافلة عبد المطلب ، جاءت بالتمر والزبيب .

كان عبد المطلب يأتي بالتمر والزبيب من حر ماله ويضعها في ماء زمزم ليسقى الحجيج تقرباً إلى الله ، وقد كان غلمان قريش ينهلون في الموسم من أحواض الماء القريبة من الحرم التي وضع فيها التمر والزبيب ، كانوا يجدون سعادة في مزاحمة الحجاج على الماء فقد كانوا يحسون إحساس من بدأ كفاح الحياة لأول مرة .

وانحدرت آمنة من فوق الصفا ، وانحدر معها لداتها ، وراحت تهول بين الصفا والمروة كما يفعل الحجاج ، تشبهاً بهاجر لما كانت تهول بينهما بحثاً عن الماء لتنقذ وحيدها إسماعيل من الموت عطشاً قبل أن يفجر الله له زمزم . وكانت آمنة سعيدة في سعيها ، رقيقة كنسيم الصبا ، متفتحة كزهرة الربيع ، تستشعر على الرغم من حداثة سنّها أنها من أشرف بيت من بيوت قريش ، إلا أنها لم تكن تحس في أعماقها أنها أشرف من وطئت قدماها الرمال التي وطأتها قدما هاجر أم العرب ، فإن كان لها جر فضل تكوين المجتمع المكي حول زمزم . فمنها سينبعث النور الذي سيخرج من مكة ليغمر وجه الأرض كلها .

واتخذت آمنة وبنات بنى زهرة وبنى هاشم وغلمانهم طريقهم إلى الكعبة ، وقد نصب الخمس قبابهم الأحمر بين الصفا وباب الحرم ، وكانت القباب من الأدم ، فالخمس في الأشهر الحرم لا يغزلون صوفاً ولا وبراً ولا يدخلون بيتاً من الشعر والمدر . إنهم أبناء الحرم المتزمتون في دينهم لا يعظمون شيئاً من الأرض التي وراء الحرم ، وقد تركوا الوقوف على عرفة لأنه خارج عن الحرم واكتفوا بالوقوف بالمزدلفة .

وكان الخمس يقولون : لا نطوف في الثياب التي قارفنا فيها الذنوب ، ولا نعبد الله في ثياب أذنبتنا فيها ، ولا نطوف في ثياب عصينا الله فيها ، فكانوا

يعيرون الناس ثيابا جديدة أو يبيعونها للقادرين . وكان الفقراء يطوفون بالبيت عرايا ، أما من يطوف بثيابه فقد كان عليه أن يطرحها بعد الطواف حتى تبلى من وطأة الأقدام ولفح الشمس وزجرة الرياح .

ودخلت آمنة ولداتها الحرام . كان أمامهم مقام إبراهيم وباب الكعبة وعن شمائلهم بئر زمزم ، فانطلقوا إلى البئر ليطفئوا عطشهم ثم ذهبوا ليطوفوا بالبيت مع الطائفين .

وكانت الأصنام منصوبة في الكعبة ومن حولها ، وكان الناس يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى ، وكانت آمنة تنظر إلى الأصنام في رية فجدها أبو كبشة قد كفر بالأصنام جميعا وعبد كوكب « الشعري العبور » وهو من نجوم الجوزاء ، وقد سخر من عبادة الأصنام التي لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، وقد سمعت آمنة ولا ريب من رجال الأسرة ونسائها بدعوة أبي كبشة وما سنه للعرب من عبادة الكواكب وتسفيه أحلام قومه .

كانت مكة قد انتقلت من مرحلة الورع إلى مرحلة الخرافة فراح أهلها ينسجون حول كل ظواهر الطبيعة أسطورة . فقالوا إن الشعري العبور كانت و « شعري الغميصاء » و « سهيل » مجتمعة ، لذلك يقال للشعريات أختا « سهيل » ، فانحدر سهيل فصار يمانيا ، واتبعته العبور فعبرت « المجرة » ، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت ، وذلك هو سبب أن الشعري العبور أشد ضياء من الشعري الغميصاء التي أضعف البكاء نور عيناها .

كانت آمنة تحس راحة كلما لاذت بالحرم وانشراحا يملأ وجدانها ونورا ينتشر في جوانب نفسها ، وأن قلبها الصغير قد اتسع ليحتوى الكون كله ، فهي تستشعر تناسقا مع الوجود وتعاطفا مع كل ما تقع عيناها عليه .

وحانت من آمنة التفاته فرأت مجلس عبد المطلب وقد جلس حوله أبنائه العشرة كأنهم أسد غاب ، وقد كان عبد الله فيهم قطافت بذهنها حقيقة لم تظن إليها من قبل ؛ إن الدنيا لا تثبت على حال ، فعبد الله منذ عهد قريب كان بين غلمان بنى هاشم يلعب معهم في الحجون ويجرى بين الصفا والمروة وينطلق معهم إلى السوق ، وها هو ذا اليوم قد بلغ مبلغ الرجال وجلس بين سادات قريش شريفا من أشرف بيت ، ترى ماذا يسمع عبد الله من حديث وماذا يقول في مثل ذلك المجلس الجليل ؟!

وضم عبد المطلب ابنه عبد الله إلى صدره في حب ، فقد كان عبد الله أصغر بنيه وأحبهم إلى قلبه ، وتوجت شفتى عبد الله ابتسامة رقيقة فبدا لآمنة أن وجه الدنيا كلها قد أشرق بالابتسام ، وأحست آمنة أنها ليست وحدها التي ترسل النظر إلى عبد الله فقد لمحت رقيقة بنت نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي أخت ورقة بن نوفل ، واقفة عند حجر إسماعيل تختلس النظر إلى عبد الله . كان ورقة بن نوفل قد تنصر بعد أن كفر بأوثان قومه وطلب الدين في الآفاق ، فكان يعكف على التوراة والإنجيل وديانات الأقدمين ، حتى إذا ما دخلت عليه أخته رقيقة راح يحدثها عن الدين ويقول لها فيما يقول : — إنه كائن في هذه الأمة نبي .

فكانت رقيقة تحلم بأن تكون أم ذلك النبي المنتظر ، وكانت تقلب بصرها في وجوه شباب قريش كأنما كانت تبحث عن وجه والد ذلك النبي ، وقد كانت رقيقة ذات فراسة فاستراحت إلى وجه عبد الله .

وأقبل وهب سيد بنى زهرة ووهيب أخوه على مجلس عبد المطلب وجلسا ، وراح وهب يحدث عبد المطلب وقد أخذ بذقنه ملاطفا ، ورأته آمنة فقالت لهالة :

— قد جاء أبا وأبوك .

والتفتت هالة فوقعت عيناها على أبيها وهيب وقد راح بحادث أمية بن حرب بن عبد شمس نديم عبد المطلب زعيم قريش ، فلاح في وجهها خوف فابتعدت وقد اتخذت طريقها ناحية الباب الذي يفضى إلى سوق مكة ، وفتيات بنى زهرة وبنى هاشم وغلمانهم في أثرها ..

وخرجت آمنة وهالة والذين معهما إلى سوق مكة وكان سقيفة قد حجبت أشعة الشمس الحامية ، وقد انتشرت على جانبي السوق حوانيت التجار التي غصت بالأقمشة المصنوعة في تانيس والحلى المجلوبة من منف والحرير الوارد من فارس والطرف السورية .

وراحت ذرية زهرة وهاشم يتفرسون في وجوه الناس الذين كانت السوق تموج بهم ، كانوا عربا ونصارى ويهودا وسوريين ومصريين وأحباشا ورومانيين قد عرفوا الراحة والاستقرار في مكة ، بعد أن ذاقوا مرارة الاضطهاد في بلادهم .

كانت السوق قد ازدحمت بكل أجناس الأرض ، تترد في جنباتها لغات متباينة ، فكان أهل مكة يلتقطون كلمة من هنا وكلمة من هناك فتثري بذلك لغتهم ، ويقتبسون ما يروق لهم من حضارة الشعوب التي جاء أبنائها إليها مختارين يلتمسون الأمن ، أو جاءوا إليها كارهين في ركاب تجار الرقيق الذين كانوا يبيعون أسرى الحروب في أسواق العرب ، فازدهرت حضارة مكة ، وانتشر الترف في بيوت أغنيائها .

ووقفت آمنة وابنة عمها ومن معها أمام صائغ ينظرن إلى ما يصنع من حلى في إعجاب ، كان الصائغ يهوديا وكان الذهب في مناجم بنى سليم استخرجه العرب وجلبوه إلى مكة ليصنع منه الحلى أو ليضرب سبائك ذهبية للذين

يكنزون الذهب والفضة .

وظلوا يجوسون خلال السوق حتى أحسوا التعب يمشى في أوصالهم ،  
فقفلوا عائدين إلى دورهم يقصون على أهلهم في فرح ما فعلوا في يومهم وما  
صادفوا من أحداث جذبت انتباههم ، وقد حسبوا أن الأيام كلها لعب وهو  
وزينة .

ومرت الأيام والأشهر والسنون وآمنة تعيش بين أهلها ومع لداتها حياتها  
السعيدة الرتيبة ، وفي ذات يوم رأت أبويها يتناجيان بعيدا عنها ، ثم رأت أمها  
تقبل عليها وتقول لها :  
— سيأخذك أبوك يا آمنة إلى دار الندوة .

دار الندوة ؟ إنها لحظة حاسمة في حياتها ، إنها الفاصل بين طفولتها الحرة  
الطليقة وبين شبابها المحجوب في خدرها ، لقد انتهت أيام انطلاقها كفراشة إلى  
روابي مكة وربوعها كما انتهت من قبل أيام لعب عبد الله معهم ، لقد أصبحت  
شابة وخلفت طفولتها البريئة دبر أذنبا كما أصبح عبد الله فتى من فتيان قريش  
يتطلع إلى مستقبله .

وتأهبت آمنة للانطلاق إلى دار الندوة مع أبيها فراحت تتحرك في تودة ،  
فقد أحست فجأة نضجا في جسمها وفي عقلها وإن كانت رهبة غامضة قد  
انتشرت في جوفها . وجاء أبوها وأخذها وانطلق بها إلى الكعبة .  
والتقى وهب وآمنة وهيب في الحرم وراحوا يطوفون بالكعبة سبعة  
أشواط ، ثم ذهبوا إلى دار الندوة وقد كانت لبنى عبد الدار بن قصي ، فكانوا  
يقومون بمراسم الزواج والختان والفضل بين الناس في قضاياهم ، وإن كان  
عبد المطلب زعيم قريش وصاحب السقاية والرفادة .

وتقدمت آمنة من المكلف بمراسم حجب فتيات مكة فشق قميصها ثم

حجب به وجهها ، فكان ذلك إيذاناً بأن آمنة قد حجبت ولن تقع عليها بعد اليوم إلا عيون المحارم من أهلها .

وتقدمت هالة وشق قميصها وحجبت ، ثم عادت آمنة وهالة إلى دور بنى زهرة وقد ضرب عليهما الحجاب وحيل بينهما وبين شباب الأسرة وبين شباب الأسر القرشية التي كانت تتبادل الزيارات مع بنى زهرة .

وجاءت سودة عمه وهب إلى داره فخف إليها نساء بنى زهرة وفتياتها يرحبن بها وإن كانت زرقاء قبيحة الصورة ، فقد كانت كاهنة قريش ، وكانت تخبرهم بما ستأتى به الأيام .

كانت سودة تنظر في النجوم وكانت تكثر من الصيام حتى تشف روحها وتنسلخ نفسها من البشرية إلى الروحانية ، وكانت تجتهد في الاتصال بالملأ الأعلى لتأتى بخبر السماء ، وقد صدق بعض ما تنبأت فقالت قريش : « إنها تنظر بنور الله » .

وجلست سودة وجلس نساء بنى زهرة حولها وتعلقت بها العيون وأرهفت الأذان ، فراحت سودة تتفرس في وجوه الجالسات عندها ثم قالت :

— إن فيكم يا بنى زهرة نذيرة أو تلد نذيرا ، فأعرضوا على بناتكم .  
وخفقت القلوب في الصدور وزاغت الأبصار ، وساد السكون برهة وإن تحركت في النفوس الأمنيات ، فقد كانت كل أم في بنى زهرة تتمنى أن تكون ابنتها هي النذيرة أو التي ستلد ذلك النذير .

وقدمت أم هالة ابنتها إلى سودة وقد أرهفت حواسها وتعلقت كل آمالها بكاهنة قريش الزرقاء القميئة ، فراحت سودة تتفرس في هالة وتتحدث في طلاقة كأنما كانت تقرأ في كتاب مفتوح . إنها تحدثها عن زواجها بسيد من سادات قريش قد شرف في قومه حتى انقادت له الزعامة ، وعن ولدها

الشهيد ، وعن أشياء رائعة كثيرة ، ولكنها لم تقل لها إنها النذيرة أو من ستلد ذلك النذير .

وعرضت أمهات بنى زهرة بناتهن على سودة فراحت كاهنة قريش تتنبأ بمستقبل كل فتاة وقد ساد المكان ترقب وقلق ولهفة ، فما من فتاة من اللاتي عرضن عليها كانت النذيرة أو التي ستلد النذير .

وقدمت برة بنت عبد العزى ابنتها آمنة إلى سودة ، فراحت الكاهنة تتفرس في آمنة وتنظر في منخارها وتقلب النظر فيها ، وسيطر على المكان سكون رهيب ، ولاح في وجه الكاهنة الاهتمام الشديد وكنمت أنفاسها برهة ، ثم راحت تشهق وتزفر في صوت مسموع وقطبت جبينها ، وسرعان ما انبسطت أساريرها وظهر عليها طمأنينة عجيبة لكأنما قد ألقى الخبر في روعها وأضاء ظلام نفسها ، وتحركت شفتاها وإذا بالنسوة كلهن آذان واعية قالت :

— هذه هي التي ستلد النذير .

وسرى صوت سودة عذبا رقيقا لكأنما كان صوت القدر ، وصوبت العيون إلى آمنة فأطرقت حياء وإن كانت أهازيح الفرح تدوى في جنباتها .

مات يوسطينانوس إمبراطور الروم وخلفه على العرش يوسطينوس الثاني الذى كان متزوجا من صوفيا ابنة أخت تيودورا ممثلة الأوبرا الكوميدية التى صارت إمبراطورة الدولة الرومانية ، والتى قامت بأهم دور فى البلاط الرومانى قبل أن تجود بأنفاسها .

وتجددت الحروب بين الكتلتين المتنازعتين على سيادة العالم : الكتلة الفارسية بقيادة كسرى أنو شروان والكتلة الرومانية بقيادة الإمبراطور يوسطينوس الثاني . وامتشق عرب الحيرة الجسام لقتال عرب الشام ، وسار قابوس على رأس جيشه لغزو المنذر بن الحارث بن جبلة ، ودارت رحى الحرب وانتصر المنذر بن الحارث ملك الغساسنة على قابوس ملك الحيرة فعاد قابوس يلحق جراحه ويتأهب لإعادة الكرة واستئناف القتال .

واشتعلت نار العداوة بين الشرق والغرب ، وانقسم العالم إلى معسكرين : دول تؤيد فارس ودول تؤيد الرومان . وقد كانت الحبشة وأبرهة الأشرم فى اليمن ممن يؤيدون الروم فقد كانوا جميعا على دين واحد وإن اختلفوا فى المذاهب بين قائلين بوحدة طبيعة المسيح وقائلين بالتثليث ولاهوت المسيح وناسوته .

ونزلت الكوارث على الرومان فقد انتصر الفرس على الروم نصرا مؤزرا وانقضت قبيلة جديدة من البرابرة الآفار على الإمبراطورية الرومانية من الشمال . وعزت قبيلة اللومبارد فى الغرب من إيطاليا ، فبدأ أن الإمبراطورية الرومانية تترنح تحت ضربات أعدائها .

ورأى يوسطينوس أن يلجأ إلى حليفه أبرهة ليحارب الفرس ليخفف الضغط عنه ، فبعث إليه يلتمس منه أن يتحرك لمناوأة فارس ليشغلها من تسديد ضربات القاتلة إلى الدولة الرومانية حامية الدين المسيحي ، ففكر أبرهة في تلك الدعوة فوجد أنه إن لم يتحرك فستفرغ فارس من حرب القسطنطينية ثم توجه جيوشها إلى اليمن لتقويض ملكة ، فرأى أن من الحكمة أن يتحرك وأن يؤيد يوسطينوس وأن يسير إليه حتى تتصل جيوش أبرهة النصرانية بجيوش نصارى الشام ونصارى القسطنطينية ، ومن ثم تتجه جميعا إلى المدائن لتطعن قلب المجوس طعنة لا تقوم لفارس بعدها قائمة .

وراح أبرهة يدبر تنفيذ خططه : إنه سيزحف بجيشه على الحجاز ولن تستطيع قوة من قوى القبائل المتناثرة بأرض العرب أن تقف في وجهه . سيستولى على مكة ثم ينطلق منها إلى يثرب ثم يزحف إلى الشام لتلتقى جيوشه بجيوش المنذر بن الحارث بن جبلة ، وفي أرض الشام تتجمع جيوش أبرهة وجيوش المنذر وجيوش يوسطينوس ومنها تخرج جيوش النصارى حاملة الصليب لغزو فارس في عقر دارها .

واستراح أبرهة إلى تدبيره فسيحقق مجد الدنيا وعز الآخرة ، سيدفع عن مملكته شر الفرس وسيقوض كعبة العرب وينشر دين النصارى في مكة كما نشره في اليمن .

كان أبرهة قد اتخذ صنعاء عاصمة لمملكته في اليمن وبنى فيها كنيسة فخمة رائعة ، وقد استدل أهل اليمن في بنائها وجعل ينقل إليها في قصر بلقيس رخاما وأحجارا وأمتعة عظيمة ، وركب فيها صلبانا من ذهب وفضة ، وجعل فيها منابر من عاج وآبنوس ، وجعل ارتفاعها عظيما جدا واتساعها باهرا . وقد كان أبرهة يحلم بأن تكون تلك الكنيسة نواة لدولة مسيحية كبرى في اليمن

تنداح حتى تغطي وجه الجزيرة العربية كلها .  
وكان التفاؤل يملأ جوانح أبرهة فكتب إلى نجاشي الحبشة : « إني قد بنيت  
لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج  
العرب » .

وكان أبرهة يطمع في أن تنافس كنيسته كعبة العرب ، ظن أنه يستطيع  
بالترهيب والترغيب أن يوجه حجاج العرب إلى صنعاء لتجنى اليمن ما تجنيه  
مكة من حجاج بيت الله . ولكن العرب أعرضوا عن كنيسته وانطلقوا إلى  
الحرم من كل فج عميق تهتز بتلبيتهم جبال مكة .

وحقق أبرهة على عبدة الأوثان الذين أبوا أن يدخلوا في دينه ، ولجوا في  
العناد فأولوا كنيسته ظهورهم وقوضوا حلمه الجميل الذي كان يصور له أنه  
يستطيع أن يحقق أغراضه السياسية عن طريق دخول العرب في المسيحية  
أفواجا . فلو أنهم قبلوا النصرانية لمد سلطانه على الحجاز دون قتال ، أما وإنهم  
قد أبوا أن يعتنقوا دينه وظلوا على وثنيته فلم يعد أمامه إلا أن يعلن الحرب على  
مكة مركز إشعاعهم الديني ، وأن يهدم الكعبة إرضاء لغروره وتحقيقا لهدفه  
السياسي .

وجاء إلى صنعاء جواسيس أبرهة من أحباش وروم والتفوا بأبرهة وراحوا  
يقصون عليه أنباء مكة ، فألقى إليهم سمعه وراح يفكر قليلا فيما سمع فأشرق  
وجهه بابتسامة عريضة ، فمكة ليس بها تحصينات وأهلها لا قبل لهم به . إن  
هي إلا وثة واحدة وتكون كعبتها أنقاضا تذروها الرياح .

كان أبرهة يدبر لتدمير مكة وكانت مكة آمنة ، الناس من كل بلاد العرب  
يطوفون بيئتها العتيق والسلام يرفرف عليها ، فزعيمها عبد المطلب ينفر من  
استخدام القوة ويحرص على أن يحل جميع مشاكل مجتمعه بالطرق السلمية ،

فإذا ما حدث بينه وبين أحد خصام التجأ إلى طريق التحكيم ، طريق السلام ، فهو زعيم قبيلة تجارية مصلحتها في إقرار السلام ضمانا لأمن قوافلها التي تجوب الآفاق شمالا وجنوبا وشرقا وغربا .

كانت كل أسرة من الأسر المكية في جوهرها حكومة قائمة بنفسها ، ولكنها وضعت مصالح مكة أولا وقبل كل شيء ، فتجمعت حول الحرم لأغراض اجتماعية واقتصادية ودينية وأسست قيادتها لسادات أسرها العريقة . وراحت جميع الأسر تعمل على أن تجنى خيرات الأرض إلى الوادي المقدس ، وعلى أن يسود الأمن الحرم ، فكان ذلك التجمع هو وحدة التنظيم السياسي الطبيعية للمجتمع المكي ، « أو لم نتمكن لهم حرما آمنا يجبي إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون » .

وكانت نيران الحرب مشتعلة في فارس وفي الحيرة وفي الشام وفي الدولة الرومانية . وكان أبرهة يجمع وقودها بينا كانت النيران على قمم جبال مكة لترشد قوافل التجارة إلى سبلها . وقد أرسل عبد المطلب قوافل قريش إلى فارس وإلى أنطاكية وإلى غزة وإلى مصر وإلى الحبشة ، فقد كانت علاقته طيبة بكل ممالك الشرق الأوسط وجنوب الجزيرة العربية على الرغم من العداوات الناشئة بين تلك الدول .

كانت قوافل قريش إذا ما أهل رجب ترحل إلى عدن والشحر فتقيم في عدن أيام رمضان فتشتري التجارات وأنواع الطيب ، ومنها يرتحلون إلى سوق صنعاء وكانت تقوم في النصف من رمضان إلى آخره . وكان عبد المطلب يؤثر الخروج في هذه الرحلة فقد كان له أصدقاء من سادات اليمن .

وراحت قريش تتأهب لرحلة الشتاء فأناخ الرجال ألفين من البعير خارج الحرم ، وانطلق العبيد من أحباش وروم وفرش ينقلون على أضواء المشاعل

السلع من مخازن ساداتهم إلى ظهور الإبل ، وقد غص المكان بشباب قریش وشيوخها ونسائها فما من رجل أو امرأة موسرة إلا وله نصيب في القافلة . وانتشر في المكان الصيارفة يقرضون المحتاجين بالربا ، وجلس الكتاب يعقدون العقود ويبرمون الموائيق ، وعلى مرمى حجر من قطار الإبل ضربت البغايا خيامهن وجاء طلاب اللذة بالخمر . وسال عرق الفقراء يروى الصحراء بينا كان أشراف قریش في أحضان الغانيات المتطلعات إلى ما في جيوبهم من ذهب وفضة .

وجلجلت ضحكات المجنون تشق الفضاء ، ومزقت أنات المكدودين سكون البیداء ، وامتزجت آهات اللذة بآهات التعب برغاء الإبل بضوضاء الصيارفة والمضاريين وصياح النسوة اللاتي تترقرق الحياة في وجوههن في الأسواق ويطل الجشع من أعينهن كلما رأين الأثرياء ، حتى نال النصب من الجميع فارتموا على الأرض وأنفاسهم مبهورة يترقبون طلوع الصباح . وأشرقت الشمس واستأنف الرجال تجهيز القافلة ، بينا انسحب سمار الليل وندماء البغايا وحلفاء الكأس إلى دورهم ليستریحوا بالنهار حتى يستطيعوا أن يستأنفوا إطفاء شهوة الجسد متسربلين بالظلام .

وتم تجهيز القافلة ، وجاء عبد المطلب يحيط به أبناءه العشرة رجالا أشداء كتمائل الذهب ، ثم راح يودعهم حتى إذا ما أقبل عبد الله ضمه إلى صدره في حنان وقبله قبله أودعها كل حبه ، ثم أذن بالرحيل ففصلت العير وانطلقت في قطار طويل لم تشهد مكة له مثيلا ، فقد بلغ عدد الإبل ألفين وعدد الرجال ثلاثمائة .

وبلغت القافلة الشحر فنزلت بسوقها ، كانت الأشجار وارفة الظلال والأرض قد أخذت زخرفها وازينت ، فالخضرة تمتد إلى الآفاق والجداول

تتدفق من الجبال كأنها شرايين الحياة وروعة الطبيعة تسر القلب ، فقد كانت الأمطار تغسل كل شيء وتبعث الحياة في الأرض الميتة ، ثم تجرى في أودية اليمن إلى مأرب وتفرش شواطئها بالزهور والثمار .

ونعم رجال قريش يطيب المقام ، كانوا يشتغلون بالنهار بالتجارة ويتسامرون بالليل مع رجال قضاة ، فقد كان ثلاثة أبطن من قضاة مُجْتَوِرِينَ بين الشحر وحضر موت ، بنو ناعب وبنو داهن ، وبنو رثام ، أقلهم عددا وأشجعهم لقاء .

وسقط الليل وجلس الرجال إلى الرجال ، ودار الحديث حول الكهان فقد كانت الكهانة والعرافة تستولى على أبواب الناس ، وقد كان الرجال يهرعون إلى الكهان أينما كانوا وعلى أى دين كانوا ، فقد كان بهم شوق إلى الاطلاع على الغيب ، وكانوا يثقون في الكهان ثقة لا حد لها حتى إنهم كانوا يفرعون إليهم لفصل خصوماتهم ومنازعاتهم ، أو إذا حزبهام أمر .

وراح سيد من سادات قضاة يتحدث فقال في زهو :

— كانت لبنى رثام عجوز تسمى خويلة ، وكانت لها أمة من مولدات العرب تسمى زبراء ، وكان يدخل على خويلة أربعون رجلا كلهم لها مَحْرَم : بنو إخوة وبنو أخوات ، وكانت خويلة عقيما وكانت بنو ناعب وبنو داهن متظاهرين على بنى رثام ، فاجتمع بنو رثام ذات يوم في عُرس لهم وهم سبعون رجلا كلهم شجاع بئيس ، فطعموا وأقبلوا على شرايبهم ، وكانت زبراء كاهنة فقالت لخويلة :

— انطلقى بنا إلى قومك أنذرهم .

فأقبلت خويلة تتوكأ على زبراء ، فلما أبصرها القوم قاموا إجلالا لها فقالت :

— يا ثمر الأكباد ، وأنا ، اد الأولاد ، وشجا الحساد ! هذه زبراء تخبركم عن  
أنباء ، قبل انحسار الظلام ، بالمؤيد ( الداهية ) الشنعاء ، فاستمعوا ما  
تقول !

قالوا :

— ما تقولين يا زبراء ؟

ف قالت :

— والليل الغاسق ، واللّوح ( الهواء بين السماء والأرض ) الخافق ،  
والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوداق ، إن شجر الوادي ليأدو  
نَحْتلا ( خداعا ) ويحرق أنيابا غضلا ، وإن صخر الطود لينذر ثكلا ، لا  
تجدون عنه معلا ( منجيا ) .

فوافقت قوما سكارى فقالوا :

— ريح خجوج ( سريعة المر ) ، بعيد ما بين الفروج ، أتت زبراء بالأبلق  
التجوج ( ما لا يمكن ) .

ف قالت زبراء :

— مهلا يا بني الأعزة ! والله إني لأشم ذفر الرجال تحت الحديد !

فقال لها فتى منهم :

— يا حذاق ، والله لا تشمين إلا ذفر ( نتن ) إبطيك !

فانصرف عنهم فارتاب قوم من ذوى أسنانهم ، فانصرف منهم أربعون  
وبقى ثلاثون فرقدوا في مشربهم ، وطرقتهم بنو داهن ، وبنو ناعب فقتلوهم  
أجمعين .

كان عبد المطلب يصفى إلى حديث الرجال في انتباه ثم سرعان ما غفل عنه  
وراح يفكر في نفسه : إنه في شوق إلى الذهاب إلى كاهن من الكهان أو حبر

من الأحبار ، فهو يحس إحساسا غامضا أنه مقبل على أمر ذى شأن ، فراح يسأل من حوله من سادات القوم عن كاهن شهير ، فدلوه على حبر فى أرض اليمن .

وانتقلت قافلة قريش إلى عدن على ساحل بحر الهند جنوبى باب المندب بميله إلى الشرق ، وهو مورد حط وقلاع مراكب الهند ومصر ، فكانت سوقا رائجة للبضائع الهندية والأقمشة المصرية وألقوا أسماعهم إلى أحاديث الأقباط الذين غصت بهم السوق ، حتى إذا ما أقبل رمضان شدوا الرحال إلى صنعاء وهم يحملون بالخضرة والماء ، فقد كانت عدن جرداء يجلب إليها الماء على ظهور الإبل من آفاق بعيدة .

كانت صنعاء من أحسن البلاد مساكن وأطيبها وأصحها هواء ، فانطلق رجال قريش يشاهدون ظفار قصر الملك أبرهة وقصر غمدان وهو قصر عجيب من عشرين طبقة بعشرين سقفا بين كل سقفين عشرين ذراعا ، فيه مائة مسكن ، وأعلى غرفه ممرد بقوارير ، وقد زين بتهاويل وزخارف وقف أمامها أهل مكة فاغرى الأفواه من الدهشة ، أما عبد المطلب فقد انطلق إلى الحبر الذى دل عليه ليخبره بأنباء الغيب ، ويرى من ذلك التشوف الذى استبد به .

ودخل عبد المطلب على الحبر وكان يقرأ فى التوراة ، فألقى عليه التحية ثم جلس فقال له الحبر :

— ممن الرجل ؟

— من قريش .

— من أيهم ؟

— من بنى هاشم .

— أتاأذن لى أن أنظر فى بعضك ؟

— نعم ، ما لم يكن عورة .

ففتح الحبر إحدى منخرى عبد المطلب فنظر فيها ثم نظر فى الأخرى ، فقال :

— أنا أشهد أن فى إحدى يديك ملكا ، وفى الأخرى نبوة .

وصمت الرجل برهة ثم قال :

— إنما نجد ذلك فى بنى زهرة ، فكيف ذلك ؟

فقال عبد المطلب وهو شارد :

— لا أدرى .

وخرج عبد المطلب من عند الحبر وهو يفكر فيما سمع ، أن فى إحدى يديه ملكا وفى الأخرى نبوة ، إن ذلك فى بنى زهرة . وتذكر عبد المطلب ما شاع فى مكة عن سودة كاهنة قريش ، إنها قالت لبنى زهرة ذات يوم : فيكم نذيرة أو تلد نذيرا فاعرضوا على بناتكم ، فعرضت الأمهات عليها بناتهن فقالت فى كل واحدة منهن قولا ، حتى عرضت عليها آمنة بنت وهب فقالت : هذه النذيرة أو تلد نذيرا له شأن وبرهان .

ووقر فى ضمير عبد المطلب أنها آمنة ، وفى تلك اللحظة ملأت صورة عبد الله أقطار نفسه ففاضت جوانحه حنانا ، وأحسب أمنا غامرا ، وسرى فى جوفه همس حبيب يقول : إنهما آمنة وعبد الله .

وأشرقت جنباته بالنور ، ورففت على شفثيه بسمة رقيقة حاملة .

قفلت قافلة قريش بالرجوع إلى مكة وقد أسرى بهم الحادى وأمعن في  
 السير ، وخاصم الكرى العيون ، يطوون القلاة من الشوق للقاء الأحبة على  
 جناح المحبة ، فأفئدة الركب تهوى إلى البيت العتيق ، وإلى فلذات الأكباد ،  
 وإلى الأهل والخلان ، وإلى الأرض الطيبة والوطن الحبيب .  
 وكان عبد المطلب مشغول القلب مشغول البال ، فقد ترك فؤاده هناك  
 حيث الأحبة والصحاب ، وملاً رأسه حديث الخبر ونبوءته ففى إحدى يديه  
 ملك وفى الأخرى نبوة ، وإن ذلك فى بنى زهرة . ترى أيجتمع الملك والنبوة  
 فى رجل واحد ، أم أن الملك فى رجل والنبوة فى آخر ؟  
 واستمر عبد المطلب يجرى وراء أفكاره يقلب الأمر ويبدى ويعيد ،  
 ويتذكر كل ما تنبأ به المتنبئون ، فسودة عمة وهب كاهنة قريش قد تنبأت بأن  
 آمنة نذيرة أو تلد نذيرا ، فإن زوج عبد الله بآمنة فقد تتحقق بشارة حبر اليمن  
 وتأتى النبوة وهو يعرف النبوة حق المعرفة ، فيا طالما أصغى إلى قصص الأنبياء  
 يروىها اليهود أيام كان غلاما فى يثرب فى كنف أمه سلمى بنت عمرو  
 الخزرجية ، أما الملك فإنه لا يدري كيف يقوم فى مكة ، وما عرف المجتمع  
 الذى تكون حول زمزم الملكية يوما ، فسادات مكة وشيوخها هم مصدر  
 السلطات فيها ، إلا أنه قد عزم على أن يزوج ابنة عبد الله فى بنى زهرة ؛ أن  
 يزوجه آمنة بنت وهب وأن يتزوج هو نفسه فيهم ، فمن يدري فقد تتحقق  
 نبوءة حبر اليمن ويأتى الملك والنبوة .

وترادفت الأشواق واضطرم الحشا بالحنين والقافلة تسرى في الكون العريض ، وتتابع الليل والنهار حتى بدت مكة للعيون فإذا بثراها كأنه التبر ، وإذا بالأرواح تستنشق أطيب عبير ، وإذا بدموع الرقة تبلل النفوس ، وراح كل راكب يحث راحلته على الإسراع ولو طاول نفسه لنزل عن راحلته ، وانطلق يعدو وهو يلثم كل الوجود .

وبدا البيت العتيق وركناه فخفقت القلوب وقاضت الأشواق حتى سالت الدموع من غمام الجفون ، وأناخت القافلة خارج الحرم فهرع أهل مكة يستقبلون العائدين بالأحضان والقبلات والعبرات ووجيب الأفئدة المتلهفة إلى اللقاء والعناق ، لإطفاء نار الشوق التي تتلظى في الجوانح والمهج والنفوس .

وخف أبناء عبد المطلب العشرة كأنهم ظباء تتواثب إلى أبيهم الجليل ، فراح يضمهم إلى صدره وهو داعم العين يكاد يذوب رقة ، حتى إذا ما تقدم عبد الله وارتمى بين ذراعى أبيه احتواه عبد المطلب وهو يستشعر نفس الشاعر الفياضة الرقيقة الناعمة التي استشعرها يعقوب يوم أن ضم إلى قلبه بعد طول غياب يوسف الحبيب .

ولم ينس عبد المطلب في غمره اللقاء وفورة العواطف ابنه العباس ، فقد تركه في حجر أمه يوم أن شد الرحال إلى اليمن وكان قد أشرف على الثانية من عمره . إنه ليذكر تلك اللحظة التي جملة فيها ليقبله قبل الرحيل ، وإنه ليفكر كيف تعلق بعنقه وأبى أن يعود إلى أمه وظل متشبثا به إلى أن انتزعت من أحضانه وهو يبكي ، ولم يكف عن العويل إلا بعد أن أخذ يداعبه ويلثمه هنا وهناك ويعده بالتمر والزبيب .

وراح رجال القافلة يطوفون بالكعبة طواف القدوم . كانت الشمس

ترسل أشعتها الحامية فيتفصد العرق من الوجوه ، ولكن الطائفين كانوا يحسون كأنهم بالجنان يطوفون ، فقد كانت نفوسهم مطمئنة لا هم ولا قلق ولا خوف ولا ضياع في الكون العريض ، بل كانوا في حرم الله آمين . ولولا تلك الأصنام التي تكدست في جوف الكعبة ونصبت حولها لفتحت عليهم بركات من السماء وملئت جوانحهم بالنور .

وانطلق رجال القافلة إلى دورهم يحمل كل منهم ما جاء به لأهله من هدايا ، وانطلق عبد المطلب إلى داره وحوله أبناءه وعبيده ورجاله يحملون من الخيرات الشيء الكثير ، عرف بعضها طريقها إلى مخازن عبد المطلب حتى تحمل إلى أصحابها ، واتخذ بعضها طريقه إلى دار زعيم قريش لتقسم بين نسائه وأولاده وإمائه وعبيده ، وليتصدق ببعضها على المحتاجين من المكين .

وملاً الحبور دور قريش فقد كانت رحلة الشتاء موفقة ، وجاء الليل فانساب الشباب إلى مجالس اللهو والسمر وأنجون ، ودخل عبد المطلب ليسترخ ولكنه لم تغمض له عين فتد راح يفكر في نبوءة الحبر اليهودي ، واستولت النبوءة عليه فلم يطف به النوم ، فوطن النفس على أن ينطلق في الصباح إلى دور بني زهرة ، وأن يخطب آمنة بنت وهب لابنه عبد الله وهالة بنت وهيب لنفسه .

وتنفس الصبح ومد فراش عبد المطلب في ظل الكعبة ، وجاء بعض من كانت لهم تجارة في القافلة ليسألوه عن أموالهم ولكنهم لم يجدوه ، فظلوا واقفين لا يجلس أحد منهم على فراشه احتراماً له وإجلالاً لقدره . ثم جاء عبد المطلب ومن حوله أبناءه العشرة كأنهم أسد غاب فحياه الجميع في توقيف .

وجلس عبد المطلب على فراشه وحده وجلس أبناءه على مقربة منه ، وجاء أصحاب الحاجات يسألونه حاجاتهم فرد على كل منهم ماله ، حتى إذا ما

انصرفوا جميعا حانت منه التفاتة إلى بئر زمزم فتذكر حلمه الذى أقض مضجعه  
فى أمسه بعد أن مشى الوسن إلى عينيه ، فقد أمر فى النوم بالوفاء بنذره ، قيل  
له : « قرب أحد أولادك الذى نذرت » .

وراح يتفرس فى وجوه مولده حتى إذا ما التقت عيناه بعيني عبد الله خفق  
قلبه حنانا ، إنه كان يفكر بالأمس فى تزويجه بآمنة بنت وهب ، النذيرة ، أو  
التي ستلد النذير .

وها هو ذا اليوم لا يدري ماذا يخبئ القدر لابنه الحبيب ، ولم يشأ أن  
يسترسل فى عواطفه فقال :

— يا بنى ، كنت نذرت نذرا علمتموه قبل اليوم ، فما تقولون ؟

وساد القلق برهة ثم قالوا :

— الأمر لك وإليك ونحن بين يديك .

وأطرق عبد المطلب برهة فقالوا له :

— كيف نصنع ؟

— لياخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه ، ثم ائتوني .

فانطلق أولاده إلى هبل وكان فى جوف الكعبة ، وراح كل واحد منهم  
يكتب اسمه على سهم ثم عادوا إليه وأتوه بالقداح ، فأخذها ونهض وذهب إلى  
هبل وأولاده من حوله .

ودعا بالأمين الذى يضرب بالقداح فدفع إليه قداحهم وقال :

— حرك ولا تعجل .

ووضعت السهام فى كيس ومد الأمين يده ليخرج سهمها ، فحبست  
الأنفاس وخفقت القلوب وزاغت الأبصار . وراح عبد الله وأبو طالب  
والزبير يتبادلون النظرات فقد كانوا أشقاء ، وكانت أمهم فاطمة بنت عمرو

ابن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب .  
وخرج سهم عبد الله فأحس أبو طالب رأسه يدور ، إنه يحب عبد الله من  
كل قلبه ولا يطيق أن يرى الشاب الوسيم يذبح أمام عينيه ، ومادت الأرض  
تحت قدميه إلا أنه راح يجمع شتات نفسه حتى لا ينهار .

وأخذ عبد المطلب الشفرة ثم أقبل بعبد الله إلى إساف ونائلة ليدبحه وهو  
واله حزين ، فقد كان عبد الله أحب ولده إليه ، وكان عبد المطلب يرى أن  
السهم لو كان قد أخطأه فقد أبقى .

وانتشر الخبر في أرجاء مكة انتشار الريح ، فقامت قريش من أنديتها تهرول  
إلى حيث انطلق عبد المطلب وعبد الله ، وجاء بنو مخزوم أخوال عبد الله وقد  
ارتسم الفزع في وجوههم فقد كان عبد الله حبيبا إلى قلوبهم جميعا .

وأتى بعبد الله وأضجعه ووضع الشفرة على عنقه ليدبحه وعبد الله مستسلم  
كما استسلم إسماعيل لأمر الله من قبل . وهم بذبحه فوثب إليه أبو طالب  
وأمسك يد عبد المطلب عن أخيه وقال رجال من قريش :

— ماذا تريد يا عبد المطلب ؟

— أذبحه .

. فقالت له قريش وبنوه :

— والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه . لكن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي

بإبنه حتى يذبحه ، فما بقاء الناس على هذا !

ووثب بنو مخزوم إلى عبد المطلب فقالوا :

— يا أبا الحارث إنا لا نسلم ابن أختنا للذبح ، فاذبح من شئت من ولدك

غيره .

— إني نذرت نذرا وقد خرج القدح ولا بد من ذبحه .

فقال بنو مخزوم :

— كلا لا يكون ذلك أبدا وفيما ذو روح .

وقال المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم :

— والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه ، فإن كان فداؤه بأموال فديناه .

— إنا لنفديه بجميع أموالنا من طارف وتالد .

— والله ما أحسنت عشرة أمه .

— يا أبا الحارث إن هذا الذى عزمت عليه لعظيم ، وإنك إن ذبحت ابنك لم تهنّ بالعيش من بعده . ولكن لا عليك ، أنت على رأس أمرك تثبت حتى نصير معك إلى كاهنة بنى سعد إن أمرتك بذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بأمر لك فيه فرج قبلته .

وتعلقت العيون بشفتى عبد المطلب فلما قال : « لكم ذلك » زفر الجميع فى راحة ، فقد كان دون ما يغى عبد المطلب خطوب تضطرب .  
وانتشر الخبر فى مكة فأطلت النسوة ينظرن إلى الفتى الذى نذر أبوه ذبحه فى عطف وإشفاق ، إنه عبد الله ابن زعيم قريش وما أكثر ما وقعت عيونهن عليه من قبل ، ولكنه بدا فى تلك اللحظة مسربلا بجلال وجمال ، بجلال اللحظة الرهيبة التى يعيشها وجمال الصبر على ما نزل به من خطوب ، فوقع فى قلب بعض النسوة ما وقع فى قلوب النسوة اللاتى دعتن امرأة العزيز لما سمعت بمكرهن وقلن :

— حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا مَلَك كريم .

وأطالت رقيقة بنت نوفل النظر إلى وجه الفتى الجميل ، إنها لترى فى وجهه شيئا لا ترى مثله فى وجه شباب قريش ، إنه جميل وما أكثر الجمال فى قريش ، ولكن جماله نادر يشف عن جمال الروح . إن كل جارحة من جوارحها تهفو

إليه ، وإنها لتتمنى من كل قلبها أن يكون لها زوجا فهى تحس فى أعماقها أن سيكون لذلك الفتى شأن أى شأن .

وشردت رقيقة ورن فى جوفها صوت أخيها ورقة بن نوفل يقول : « إن لهذه الأمة نبيا وقد دنا يوم مولده » فإن كان ما يزعم ورقة حقا فلن يكون أبوه غير ذلك الفتى الذى يتأهب أهله للانطلاق به إلى خير ل ترى كاهنتها رأيها فيه ، فرقيقة صاحبة فراسة وما خانتها فراستها من قبل .

وتأهب عبد المطلب وبنوه وبنو مخزوم أخوال عبد الله للانطلاق إلى المدينة ، فقد كانوا يرون الكهانة حقا ، ثم شدوا الرحال إلى كاهنة بنى سعد وخلفوا وراءهم قلوبا واجفة ، وقد كانت أكثر القلوب اضطرابا قلب أمه فاطمة وقلب آمنة بنت وهب . فقد كان عبد الله صديق الصبا قبل أن يبلغ مبلغ الرجال وقبل أن يضرب على آمنة الحجاب ، وقلب رقيقة بنت نوفل التى كانت تحلم بالفتى الهاشمى فى يقظتها وفى منامها .

وبلغ الركب المدينة ، وسأل عبد المطلب عن كاهنة بنى سعد ف قيل له إنها بخير ، فركبوا حتى جاءوها ، فراح عبد المطلب يقص عليها نذره وما أراد بابه فقالت لهم :

— ارجعوا عنى اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله .

فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها لم يذهب عبد المطلب إلى أخواله بنى النجار ، ولم ينطلق إلى مراتع صباه ، ولم يذهب إلى أسواق المدينة كما اعتاد أن يذهب أيام أن كان فى حضن أمه سلمى بنت عمرو ، فقد كان مشغول البال بمصير ابنه الحبيب ، فقام يدعو الله ويبتهل إليه أن يوفقه إلى ما يرضاه . رأى إبراهيم عليه السلام فى منامه أن يذبح ابنه الوحيد فامتثل إلى أمر الله ، فأبراهيم خليل الرحمن ، وقد برهن بذلك الامتثال على أن حبه لله أشد من حبه ( مولد الرسول )

لوحيدته وقلدة كبده ، فقد الله الابن الحبيب بذبح عظيم . ونذر عبد المطلب نذرا أن يذبح واحدا من ولده إذا بلغ بنوه عشرة ، وقد أراد عبد المطلب أن يوفى بنذره فمنعه أخوال عبد الله وبنوه ، وأشاروا عليه أن يستشير كاهنة من كواهنهم . ترى لو كان إيمان عبد المطلب كإيمان أبيه إبراهيم أما كانت السماء تفدى ابنه بذبح عظيم ؟ إن إبراهيم كان أمة قاننا لله حنيفا ولم يك من المشركين . وجاء الصباح فغدا عبد المطلب وأبنائه وأخوال عبد الله من بنى مخزوم إلى كاهنة بنى سعد فقالت لهم :

— قد جاءنى الخبر ؟ كم الدية فيكم ؟

قالوا :

— عشر من الإبل .

قالت :

— فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرا من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فإذا خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم .

فخرجوا حتى جاءوا مكة ، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر قام عبد المطلب عند هبل يدعو الله ، ثم قربوا عبد الله وعشرا من الإبل ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل عشرين ، وقام عبد المطلب يدعو الله أحر دعاء ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل ثلاثين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل أربعين .

وقام عبد المطلب يدعو الله وراح أبو طالب يرنو إلى أخيه في قلق وحب ،  
وساد المكان سكون رهيب ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فسرت  
همهمة فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل خمسين ، وقام عبد المطلب يدعو  
الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشر من الإبل فبلغت  
الإبل ستين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد  
الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل ثمانين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ،  
ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله ، فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل  
تسعين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ثم ضربوا فخرج القدح على  
عبد الله .

وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، ولاح الهلع في وجه أبي  
طالب والتفت ناحية أخيه الزبير فألفاه شاحبا لكأثما كان يعاني سكرات  
الموت ، واتجهت الأبصار إلى عبد الله فإذا به صابر وإن غامت صفحة  
وجهه الجميل بسحابة من الحزن ، فقد أغمه أن ربه لم يرض عن  
فدائه .

وزادوا عشرا من الإبل فبلغت مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم  
ضربوا فخرج القدح على الإبل فارتجت جنبات الكعبة بصيحات الفرح ،  
قالت قريش ومن حضر :

— قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب .

وبلغ التهليل مسامع الواقفين خارج الكعبة ، وكانت بينهم رقيقة بنت  
نوفل قد جاءت لترى مصير عبد الله الذي شغفها حبا ، فقالت في لهفة  
للواقفين عند باب الكعبة :

— ماذا جرى ؟

— نجا عبد الله ورضا الإله .

وأحست راحة وإن ظل قلبها يخفق كجناح حمامة في صدرها ، وأشرأبت بعنقها لترى فتى قریش الذى أصبح حديث مكة وقبله الأنظار ليستريح الفؤاد الواجف الولهان ، إلا أن خروج عبد الله قد تأخر فعادت تقول فى قلق :

— ماذا هناك ؟

قال عبد المطلب :

— لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات .

وعاد الخوف مرة أخرى ليستبد بها ، ولفها قلق ، وعجبت لذلك الشيخ الذى يصر على أن يضرب القداح على ابنه ثلاثا بعد أن أعلن الإله رضاه ، ليته يخرج الساعة ويذبح الإبل المائة ويريح القلوب المضطربة ولا يمد فى العذاب مدا .

وضرب الكاهن على عبد الله والإبل وقام عبد المطلب يدعو الله . وذهب أبو طالب إلى أخيه وقد لف ذراعه حوله كأنما يمنع عنه عاديات القدر ، وحبست الأنفاس ، وأخرج الكاهن السهم ، وما إن وقعت عليه العيون حتى انطلقت أصوات الفرع من الحناجر :

— خرج القدح على الإبل .

ثم عاد الكاهن يضرب الثانية على الإبل وعبد الله ، وعبد المطلب قائم يدعو الله ويناشده وقد غمرت الدموع روحه ، فالذبيح أحب أبنائه إليه وإنه ليتهل إلى الله أن يكون رضاه بالدية حقا ، فقد كان حبه لإلهه كحبه لأبنائه أو أشد .

وخرجت يد الكاهن بالقدح وارتجت جنبات الكعبة بأصوات الفرع :

— خرج القدح على الإبل .

وطفرت الدموع في مآقي القوم فقد بلغ الانفعال أشده ، إنها الثالثة فإن  
رضى الإله نجا عبد الله ، وجرت السنة في الدية بمائة من الإبل ، وتأهب  
الكاهن ليضرب بالقدح فانبهرت الأنفاس وزاغت الأبصار وبلغت القلوب  
الحناجر ، وظل عبد المطلب قائما يدعو الله ويبتهل إليه ويناشده في حرارة حتى  
إن أفئدة الناس كادت تنفطر أسي على الشيخ الجليل الذي يكاد يذوب في  
حرارة دعواته .

ووقفت رقيقة بنت نوفل وقد أسندت قلبها بيدها لكأنما تمنعه من أن يفر من  
بين جنباتها ، وقد خنقتها عبراتها وغامت مقلتها بغمام الجفون ، فرأت  
مشاهد مكة تتراقص أمام عينيها ، ونخيل إليها أن نور الوجود يوشك أن  
ينطفئ .

وراحت العيون كلها تتبع يد الكاهن وهو يمدها في الكيس ويخرج  
السهم ، وإذا بأصوات البشرى تدوى في جوف الكعبة :  
— خرج القدح على الإبل .. خرج القدح على الإبل .

وضم أبو طالب أخاه عبد الله إلى صدره ودموعه تجري على خديه ، وقلبه  
يدوى بين جنبيه ، ومشاعره الفوارة تنتشر بين الضلوع ولا تجذ لها متنفسا إلا  
في قبلات الفرع التي كانت تغمر وجه الذبيح بلا حساب .

وأقبل الزبير وأبو لهب والحارث يضمون عبد الله إلى قلوبهم ، وهرع عبد  
المطلب إلى ولده الحبيب ودموعه تبلل لحيته واحتواه بين جنبيه لكأنما يحتوى  
أنفس كنز في الوجود . ثم قال في صوت متهدج يقطر رقة وبشرا وانفعالا :  
— اليوم ولدت لي .

وراحت رقيقة بنت نوفل تزاحم الناس وهي ذاهلة عن كل ما حولها إلا  
مشاعرها التي كانت تدفعها دفعا لرؤية الحبيب الذي أصبح أسطورة قريش ،

لعل قلبها المتشوف لعبد الله يهدأ ، ولعل نفسها تستقر وتعرف السلام ،  
ولكنها عجزت عن أن تشق لها طريقا في الجموع التي كانت تتدافع بالمناكب  
لتصل إلى حيث كان بنو هاشم وبنو مخزوم والذبيح .  
ومرت لحظات وعبد الله قائم بين الجموع وقد صار مستودعا لأحاسيس  
فؤارة غاية الفورة ، فراحت كنوز قلبه تمتد بمشاعر الفرح والنشوة والنصر  
حتى فاضت جوانحه بعواطفه الرقيقة فجرت من عينيه الدموع ، ثم أحس  
الناس جميعا أن الشكر قد وجب لله فخرؤا سجدا وبكيا .

انفرج باب الكعبة عن عبد المطلب وعبد الله وإخوته وسادات بنى هاشم  
وبنى مخزوم ، فصوبت العيون إلى عبد الله أحسن فتى يرى فى قريش وأجملهم  
وقد زاده الفداء سحرا على سحره .

كان عبد الله فى الثامنة عشرة من عمره ، وقد خرج من باب الكعبة يتألق  
فى مجده فراحت فتيات قريش من بنى مخزوم وعبد شمس وعبد مناف يأكلنه  
بأعينهن ، وقد استولت عليهن جميعا أمنية واحدة : أن يصبح عبد الله زوجها  
لهن ، وأن يأتى ذلك اليوم السعيد الذى يغلق فيه عليه وعليهن الأبواب .  
وراحت رقيقة بنت نوفل تخوض فى الجموع التى تكدست فى الحرم فقد  
عزمت على أن تصل إلى عبد الله مهما قاست من مشقة ، فقوادها يهوى إليه ،  
وكل جارحة من جوارحها تشتبه ، وهى لا تستطيع قمعا لعواطفها المشبوبة  
التي تستبد بها ، فراحت تتقدم صوب من خفق بحيه الفؤاد ، وقد استحال  
كل حواسها إلى عيون ترصد الفتى الهاشمى وقلوب تضطرب بالهوى والصباة  
والهيام .

وجىء بمائة من أطيب إبل عبد المطلب ، وجاء صبيان مكة وفقراؤها فى  
أثرها . فماج الناس فى الحرم موجا شديدا ، واشتد الزحام حتى إن رقيقة بنت  
نوفل جرفت بعيدا عن عبد الله بعد أن صارت منه قاب خطوتين أو أدنى ، ولم  
يدب اليأس فى قلبها بل راحت تجاهد لتدنو منه مرة أخرى فقد وقر فى نفسها  
أنها تسعى لخير الدنيا وعز الآخرة .

وراحت الإبل تنحر بين إساف ونائلة ، وراح فقراء مكة ينقضون عليها  
انقضا الصقور وقد رقت على شفتي عبد المطلب ابتسامة رضا ، وسرعان  
ما تذكر وهو في قمة نشوته نبوءة الخبر اليمنى ونبوءة سودة عمه وهب ، فرأى  
أن يتوج أفراحه بتزويج عبد الله آمنة بنت وهب ، واستولت عليه الفكرة فراح  
يتلفت يبحث بعينه عن سيد بنى زهرة فإذا به قريب منه ، فذهب إليه وراح  
يناجيه فأشرق وجه سيد قريش وسيد بنى زهرة بالسرور والبهجة .

ونجحت رقيقة في أن تصل إلى حيث وقف عبد الله فتהלل وجهها بالفرح  
وإن كانت أنفاسها مبهورة وقلبها يدوى دوى بين ضلوعها ، ومالت برأسها  
نحو الفتى المنتصب بين قومه كتمثال الذهب وقالت في صوت مضطرب :  
— أين تذهب يا عبد الله ؟

— مع أبى .

فجمعت نفسها التى ذهبت شعاعا وقالت في وجد :

— لك مثل الإبل التى نحرت عنك وتعال معى .

فقال عبد الله وقد أشاح بوجهه عنها :

— أنا مع أبى لا أستطيع فراقه .

كانت رقيقة من أجمل النساء وكانت تطمع في عبد الله ، فقالت لمن شغفت  
به حبا في حرم الكعبة دون أن تغلق الأبواب : هيت لك ، فأعرض عنها لأن  
الكريم يحمى عرضه ، ولو كان مؤمنا لقال لها ما قال يوسف لامرأة العزيز :  
« معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون » .

وأفاقت رقيقة على طعنة الإعراض التى سددها حبيب الروح إلى قلبها  
الولهان فأحست كبرياءها تدمى ، وحققت على نفسها لذلك الضعف الذى  
استبد بها وجعلها تعرض نفسها رخيصة على فتى قريش .

رخيصة؟! إنها عرضت عليه مائة من الإبل ، ليته بقبل ، فإن فيه شيئاً غامضاً مثيراً يشدها إليه ، إن فيه سحراً تفتح له الروح قبل أن يحن إليه الجسد ، إن فيه إشراقاً لم تر مثله في شباب قريش ، إن فيه سرّاً لا تعرف حقيقة كنهه وإن كانت تحس خطره كأنما قد ألهمته .

وجاء رسول وهب إلى دور بنى زهرة بالبشرى وقال إن زعيم قريش عبد المطلب بن هاشم قادم هو وابنه الذبيح ليزوج عبد الله آمنة بنت وهب ، وانتشر النبأ بين نساء بنى زهرة ففاضت القلوب بالفرح ، وخفت برة بنت عبد العزى إلى حيث كانت ابنتها آمنة وقالت لها وقد تهللت بالسرور وفؤادها يرقص طرباً بين جنبيها :

— إن عبد المطلب قادم ليزوجك عبد الله .

وأطرقت آمنة حياء وإن أشرقت أساريرها ، وإن خفق قلبها أعذب خفقات في الوجود ، خفقات تحقيق أعظم حلم راود فتاة ، فقد كان عبد الله أملها مذ كان يلهو مع الغلمان في ربوع مكة وعلى روابيها ، وكانت ترقب في لهفة ذلك اليوم السعيد الذي يقبل فيه عبد الله الكوكب المنير بين إخوته ليطلبها لنفسه زوجة .

كانت أعز أمنيات حياتها أن يأتي البشير بأروع نبأ يهفو إليه فؤادها ، وها هي ذى أمها الحبيبة تحمل إليها البشرى متهللة الأسارير ، فتستشعر آمنة أن الوجود كله يخفق بالفرح ، وأن جبال مكة ووديانها تترنم بأهازيج البهجة ، وأن إشراقاً ساحرة قد أشرقت على الكون فغمرته بنور لطيف يملأ النفوس أمناً ، إنها رقت حتى أحست كأنما تسبح في فضاء هواؤه النشوة والحبور ، ولكنها راحت تجاهد لتدارى حقيقة مشاعرها غير أنها عجزت عن ذلك ، فقد كان وجهها مرآة صادقة للمشاعر الناعمة المواراة بين الضلوع .

جاءت جدتها قيلة بنت أبى كبشة أم وهب تسعى وقد هزها النبأ ، فما كانت تجد في قريش فتى كفتا لفتاة بنى زهرة مثل عبد الله ، فراحت تقول في صوت متهدج خنقته عبرات الفرح :

— مبارك . مبارك يا آمنة .

وارتمت الفتاة في أحضان جدتها فاحتضنتها وقلبا يتدفق بالحنان ، وغابا عن الوجود لحظة مترعة بأنبل ما في البشرية من عواطف . وراحت برة ترنو إلى تعانق العزيزتين فطفرت الدموع من مآقيها وقد هزتها شدة انفعالها هذا .

كان سادات قريش يتشاورون قبل عقد زواج فتى من قتيانهم في دار الندوة ، فقد كانت المصاهرة أمرا يهم القبيلة كلها ، فالفتى القرشى الشريف سيربط قبيلته بقبيلة أخرى ، فلا بد أن يكون هناك تكافؤ بين الزوجين وبين الأسرتين وبين القبيلتين . وقد كانت آمنة بنت وهب أفضل فتاة في قريش نسبا وموضعا ، وكان عبد الله فتى قريش الذى يتمنى سادات قريش وأشرافها أن يزوجه فتياتهم ، فلم يكن هنالك من سبب يدعو إلى تشاور أهل الرأى في دار الندوة في أمر ذلك الزواج الذى بدا كأنما كل ملابسات الحياة قد مهدت له ، ولكأنه كان أمرا مقضيا .

ودخل وهب على ابنته وقد تألقت عيناه بالفرح وقال لها :

— إن شيخ بنى هاشم قد جاء يطلبك زوجة لفتاه عبد الله .

وأسبلت آمنة جفניה على عينيها فقد خجلت من أن يقرأ أبوها سيد بنى زهرة الفرحة الطاغية التى ملأت جوانحها ، ولم يكن وهب ينتظر منها ردا فموجات الفرح على الوجوه وفي العيون وعلى الشفاه وفي حركات أمه وزوجته وابنته وسكناتهن أبلغ تعبير عن الترحيب بهذه المصاهرة .

وانطلق وهب خفيفا لا تكاد قدماه تلمسان الأرض من فرحته إلى حيث

جلس الرجال ، وجاءت بنات عبد المطلب ونسوة بنى هاشم وقد أشرقت وجوههن بالسرور ، بعد أن كن قياما هناك عند الكعبة يذرفن الدموع على عبد الله الذى كان كاهن هبل يضرب عليه بالقداح ينتظرن أمر الله فيه .

سعادة غامرة وفرحة مجنحة وسرور وجبور لف دار وهب وغمر من فيها من شيوخ وعجائز ورجال ونسوة وفتيان وفتيات ، وفاض حتى ملأ دور مكة وسكانها . ولم يحس بالحسرة والألم إلا الفتيات اللاتي كن يطمعن فى زواج عبد الله ، فقد كانت الغيرة تنهش أفئدتهم بعد أن تحطمت أحلامهن .

واجتمع رجال بنى هاشم وسادات بنى مخزوم أخوال عبد الله وشيوخ بنى زهرة ، وجلس عبد الله متسربلا بالجمال والجلال بين أخويه الزبير وأبى طالب ومن حوله باقى إخوته . وقد كان عبد الله على الرغم من حداثة سنة يحس خطره فقد فداه الله بمائة من الإبل كما فدى جده إسماعيل بذبح عظيم ، وقد أعرض عمن قالت له هيت لك كما أعرض يوسف عن امرأة العزيز .

كان كل سادات قريش ومكة فى دار وهب سيد بنى زهرة يحتفلون بذلك الرباط المقدس الذى سيربط بين أفضل حين فى العرب بنى هاشم وزهرة ، ولو كان هناك فسحة من الوقت لبعث عبد المطلب يدعو أخواله من بنى النجار من يثرب ليشتركوا معه فى أفراحه ، فقد كانت صلة المودة وثيقة بين بنى هاشم وبنى النجار إذ كان عبد المطلب زعيم قريش وسيدها ثمرة مصاهرة مكة ليثرب .

وقام عبد المطلب يعدد مناقب قريش وبنى هاشم ، ثم طلب من وهب أن يزوج عبد الله آمنة بنت وهب . وفى نفس الوقت طلب من أخيه وهيب أن يزوجه ابنته هالة ، فقام وهب وعدد مناقب بنى زهرة ، ثم رحب بزواج عبد الله وابنته آمنة ، وقام بعده أخوه وهيب وأعلن موافقته على تزويج ابنته هالة

لعبد المطلب شيخ بنى هاشم وزعيم مكة .  
وقام أبو طالب والزيير إلى عبد الله يقبلانه مهنيين ، ثم راح باقى إخوته  
يضمونه إلى صدورهم وهم يتمنون لأخيه التوفيق . وأقبل رجال قريش على  
عبد المطلب وعبد الله ووهب ووهيب وراحوا يصفحونهم قائلين بالرفاء  
والبنين .

وهرعت نسوة بنى هاشم وبنى زهرة إلى آمنة وهالة ورحن يقبلنهما ويتمنين  
لهما أطيب التمنيات ، ووقفت سودة عمة وهب كاهنة مكة بعيدا تتفرس في  
وجه آمنة ، إنها تنبأت لها ذات يوم بأنها ستلد نذيرا وإنها لترى في وجهها تلك  
اللحظة شيئا غامضا مثيرا يهز وجدانها وإن عجزت كهانتها عن أن تميظ اللثام  
عن كنهه ، فهو شيء رائع لم تر في وجوه فتيات العرب مثله ، شيء تهفو إليه  
الأرواح ويستعصى على فراسة الكهان والعرافين .

كان رجال قريش ونسائها ورجال بنى زهرة ونسائها فرحين مستبشرين  
بزواج عبد الله وآمنة ، فتى قريش وزهرة بنى زهرة . وكانوا يرجون الخير  
الكثير لهذه المصاهرة ، وعلى الرغم من أن آمنة وأم عبد الله وأبويهما قد حلقوا  
كثيرا في دنيا الأمانى ، فما من أحد من مكة ، قدر خطورة تلك الليلة حق  
قدرها ، فقد كانت ليلة مباركة لم يجد الزمن من قبل بمثلها ، ليلة قدر لها أن  
تكون مبدأ من سيجعله الله رحمة للعالمين ، إن الله لذو فضل على الناس ولكن  
أكثر الناس لا يشكرون .

وكان من عادة العرب أن يبيت الزوج ثلاثة أيام في بيت أهل زوجته ، وقد  
كان لوهب بيت في منى عند الجمرة الصغرى ، فذهب عبد الله وآمنة إلى  
هناك ، بينما بات عبد المطلب وهالة في بيت بنى زهرة بعد أن انسحب  
المهنتون .

وسار عبد الله وآمنة متسربلين بالليل في منى ، في نفس الطريق الذى سار فيه إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل صادق الوعد الأمين وهاجر المؤمنة التى لو وزن إيمانها بإيمان أهل الأرض لرجحتهم ، يوم أن ذهب إبراهيم بابنه الوحيد ليذبحه تصديقا للرؤيا التى رآها فى منامه .

كان النسيم يهب رخاء والقمر يرسل أشعته الفضية فيكسو أرجاء منى بالسحر ، وجبل ثبير يطل على الوادى كحارس أمين ، ولولا ذلك الصنم الذى نصب فى المكان الذى هم إبراهيم فيه بذبح ابنه الحبيب لبدا كأن الرحمة قد تجلت على الكون .

ودخل عبد الله وآمنة بيت وهب فى منى وأغلقا الباب وراءهما ، فإذا بعير طيب يملاً أرجاء الدار ، وإذا بنور القمر يتسلل من النوافذ فينفث فى النفوس راحة وأمنا . ولكن عبد الله وآمنة كانا فى قمة السعادة فغفلا عن كل شىء إلا نفسيهما ، فقد كانت هذه أول ليلة يخلو فيها كل منهما بصاحبه ، وحملت آمنة بنور الهدى وابن الذبيحين .

ومرت الأيام الثلاثة وعبد الله وآمنة يستشفان أريج الماضى التليد ويحسان خفق قلب الوجود ، فقد كانت جبال منى ووديانها تنبض بالذكريات ، فعند الجمرة الصغرى ظهر الشيطان لإسماعيل وقال له : أتدرى إلى أين يذهب بك أبوك ؟ إنه يزعم أن الله قد أمره بذبحك ، فحصبه إسماعيل . وفى ذلك المكان من ذلك العهد رمى العرب الشيطان بالجمرات إحياء لتلك الذكرى .

وأمام البيت الذى بنى به عبد الله بآمنة ، كانت الجمرة الوسطى حيث ظهر الشيطان لهاجر وقال لها : أتدرين أين يذهب الشيخ بابنك ، إنه ذاهب ليذبحه ، فحصبته هاجر المؤمنة المستسلمة لأمر الله . وعلى مرمى البصر الجمرة الكبرى حيث ظهر الشيطان لخليل الرحمن . وجبل ثبير ومجر الكباش .

إنها أماكن هرع إليها الناس منذ أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ،  
ومذ أذن إبراهيم في الناس بالحج ، ومذ قال : « يا بني إني أرى في المنام أني  
أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من  
الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . ونادياه أن يا إبراهيم . قد صدقت  
الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا هو البلاء المبين . وفديناه بذبح  
عظيم » .

أماكن مباركة مذ فرض الله على الناس الحج بعد أن أقام إبراهيم القواعد من  
أول بيت وضع للناس ، ويا طالما ترددت في جنبات ذلك الوادي تلبية المؤمنين  
على مر العصور : لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إن الحمد  
والنعمة لك والملك لا شريك لك . ولما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم  
وأشركوا بربهم ظلت مراسم الحج كما كانت على عهد إبراهيم الخليل ، إلا أن  
الوثنيين المشركين أضافوا إلى التلبية ما يتسق مع شركهم فقالوا :  
— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا شريك هو لك ،  
تملكه وما ملك .

اقضت الأيام الثلاثة السعيدة المباركة التي أمضاها عبد الله وآمنة في بيت  
وهب بمنى عند الجمرة الوسطى ، فأخذ عبد الله آمنة وانطلقا إلى داره بمكة ،  
وما كانت آمنة تدري أنها حملت « بدعوة إبراهيم » . « وإذ يرفع إبراهيم  
القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك السميع العليم . ربنا واجعلنا  
مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك التواب  
الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب  
والحكمة ويذكهم إنك أنت العزيز الحكيم » .

وبلغا دار عبد الله ، إنها دار من دور بني هاشم لم تكن مرتفعة البنيان ،

ولكنها كانت دارا جميلة لعروسين ، فقاد عبد الله آمنة إلى الدرج الحجري وراحا يرقيان فيه هونا حتى بلغا بابا يفتح من الشمال ، فدلقا إلى فناء واسع وسارا فيه كطيفين كريمين حتى وصلا إلى الجدار الأيمن قاصدين الباب الذى فتح فيه .

ودخل عبد الله وآمنة فإذا بقبة فى وسطها مقصورة من الخشب أعدت لتكون مخدع العروس ، والتفت عبد الله إلى آمنة فإذا وجهها قد تهلل بالفرح ، وإذا بابتسامة رضا قد رقت على شفتيها ، فأقبل عبد الله عليها وقد غمره السرور .

وخرج عبد الله ليطوف بالكعبة فلم يطف بها مذ خرج منها بعد أن نحرت مائة من الإبل فدية له لا يصد عنها إنسان ، وانطلق حتى إذا ما بلغ البيت العتيق رأى رقيقة بنت نوفل واقفة عند الكعبة فذهب إليها والتقت عيناه بعينيها ، وسرعان ما أشاحت بوجهها عنه .

وعجب عبد الله ، إنها قد عرضت عليه نفسها ومائة من الإبل منذ ثلاثة أيام فما لها تزور عنه اليوم ؟

وأراد عبد الله أن يعرف سر ذلك التحول فقال لها :

— مالك لا تعرضين علىّ اليوم ما كنت عرضت علىّ بالأمس ؟

فقد عبد الله سحره بعد أن تزوج آمنة بنت وهب وزهدت فيه رقيقة ،

فقالت وهى تحول بصرها عنه إلى الكعبة :

— فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة !

جلس عبد المطلب على فراشه في ظل الكعبة بعد أن غادر بيت وهيب وحمل زوجه هالة بنت وهيب إلى داره ، وكان عبد المطلب متفتح النفس متهلل الأسارير فقد تزوج هو وابنه عبد الله في ليلة واحدة ، وقد توطدت بذلك الأواصر بين بنى زهرة وبنى هاشم ، وامتلأت صدور بنى مخزوم أخوال عبد الله بالسرور بعد أن فدى شيخ بنى هاشم ابنه بمائة من الإبل ، وزوجه آمنة بنت وهب فتاة بنى زهرة التي كانت تتيه بجماها وشرفها ومقامها على بنات أشراف مكة وسادتها .

وجاء إلى مجلس عبد المطلب نديمه حرب بن عبد شمس وعبد الله بن جدعان بعد أن أعرض عن اللهو وأغلق بينه وبين الشر أبوابا ، فقد كان عبد الله بن جدعان شريرا لا يعاشر إلا رفاق السوء ، سريع الغضب كثير الجنايات حتى أبغضه قومه وعشيرته وأهله وقبيلته ، وحتى امتلأ قلب أبيه ببغضه فقد كان عار الأسرة والقبيلة .

أوغل عبد الله بن جدعان في الشرور ثم فكر ودبر ، فرأى أن ارتكاب السوء يقود إلى الضلالة والضياع في تيه الوجود . كانت نفس عبد الله طيبة وإن تبدت خامدة مكبوتة ران عليها ميل إلى الشر والعدوان والفجور ، فقد طمر الجواهر الطيب في أعماق شعوره ، فلما بدأ الصراع في جوفه بين الخير والشر ، بين المغلق والمفتوح انتصرت المعنويات على الماديات ، فهجر العدوان والسلب والنهب إلى المسالمة والأمانة فانتشل نفسه من انهيار سريع

بعد أن خان ذاته بفعل قوى مهلكة خداعة كامنة انطلقت تحت ضغط محنة أخلاقية إلى طريق الآثام والشرور .

حكم عبد الله بن جدعان على نفسه بعدوانه على أهله وعشيرته وقبيلته بمكابدة انهيار معنوى ، فلما نشب في جوفه صراع روحى انزاحت الغشاوة عن جوهر طيب فاختر طريق الخير ، وقد قاده ذلك السبيل إلى الغنى والشرف والسلطان . ولكن الناس لا يستطيعون أن يصدقوا أن النفس قادرة على النهوض من كبوتها من تلقاء نفسها ، وأنها قادرة على أن تقود صاحبها إلى الغنى دون أسطورة ودون وصف صراع البطل الظافر مع جبار أسطورى فى سبيل الاستحواذ على كنز ، فقالوا إن عبد الله بن جدعان لما فر من وجه أبيه وقومه لجأ إلى الجبال ، وبينما هو مختبئ هناك إذ رأى ثعباناً على باب مغارة ، وهم بأن يفر من ذلك الثعبان ولكنه فطن إلى أنه من ذهب وعيناه من جوهر ، فاستولى على الثعبان ودخل المغارة وإذا به يعثر على كنوز مضاض بن عمرو الجرهمي .

إنها نفس الأسطورة التى رددتها الأساطير اليونانية وأساطير الشعوب كلما انتصرت نفس على ضعفها وانطلقت فى طريق الخير لتجمع ثروة ، وقد أصبح عبد الله بن جدعان من أغنياء مكة وأجوادها ، وصار مجلسه مع عبد المطلب زعيم قريش بعد أن كان مع مجان مكة وأشرارها .

وجاء عبد الله بن عبد المطلب متهلل الأسارير وألقى على الموجودين تحية الصباح ، ثم جلس إلى جوار أبيه ومد بصره إلى الكعبة وراح يراقب حمام الحمى وهو يطوف حولها ، والناس وقد ازدحموا عند زمزم ، فامتلاً قلبه بإشراقة من المحبة ، وأحس تعاطفاً مع كل ما حوله وتناسقا مع الوجود ، فقد كانت نفسه راضية وآماله مجنحة بعد أن ذاق السعادة الحقة منذ انطلق مع (مولد الرسول)

زوجة آمنة بنت وهب إلى بيت أبيها بمنى ، وبعد أن عاد بها إلى داره القائمة بين دور بني هاشم خلف الكعبة .

إنه مذ بنى بآمنة يستشعر في أعماقه أن شيئاً عظيماً مثيراً قد حدث ، فقد كانت الليلة الأولى التى أغلق فيها عليه وعلى آمنة الدار ليلة لم ير أروع منها طوال حياته ، كان القمر يرسل أشعته إلى جبال منى ووديانها ، وقد انسكب ضوءه من النافذة فغمر الحجرة بنور لطيف . إنه طالما سرى فى الليل ، وطالما أحس سحر القمر ، ولكن القمر فى تلك الليلة كان شيئاً آخر ، كان أكثر تألقاً مما كان ، وكانت أشعته كأنها عواطف حانية زاخرة بالحبّة تحتوى الوجود كله بين جوانحها ، وقد هب النسيم رخاء كأنما يحمل بشرى ورحمة للناس كافة . إن أريج تلك الليلة لا يزال طيباً فى نفسه ، وإنه فى دهشة من أمره ! أفاح الطيب من أرجاء الدنيا حقاً أم انبعث من روحه ، فقد أحس رائحة المسك فى أنفه مذ قالت له رقيقة بنت نوفل : هَيْتَ لَكَ ، وأعرض عنها وذهب إلى بيت آمنة ، إنه ليشم رائحة المسك الأذفر أينما سار منذ تلك الليلة المباركة ، ويرى الدنيا تتلأأ بالبهجة والإشراق .

كان عبد الله أصغر الموجودين سناً فقد كان فى الثامنة عشرة ، إلا أنه أحس فى أعماقه على الرغم من حداثة سنه أنه أصبح شيئاً جليلاً بعد أن تزوج آمنة . ولم يكن ما أحسه كبيراً فقد سمع أهله فى خطبهم يعددون مناقب قريش : نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو قصي بن كلاب وأرباب مكة وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ومَعْدِنُ المجد ، فلم يملأه ذلك التفاخر زهواً ، ولكن الليلة خيل له فيها أن الأرض كانت تتلقى وحى السماء قد رفعت من شأنه فى عين ذاته ، حتى إن إحساساً غامضاً قد غمره بأنه أصبح أجل شأنًا من كل سادات قريش وأشرافها .

وأفاق عبد الله من أحلام يقظته على صوت فيه غنة يقول :

— أنعم صباحا يا فياض ، يا مطعم طير السماء .

فرفع عبد الله رأسه فرأى ذلك اليهودى الذى كان فى جوار أبيه يحيى عبد المطلب ويجلس ، ولمح التغير الذى اعترى وجهه حرب بن أمية فقد كان حرب يضيق بذلك اليهودى ولا يستريح لحديثه .

والتفت عبد المطلب إلى ولده وراح يأمرهم بترك البغى والظلم ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن سفاسف الأمور ، وفيما هو منطلق فى حديثه قال قائل من الجالسين عنده :

— إنك تقول لنا فى وصاياك لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة .

فقال اليهودى :

— إن المرء يثاب فى الدنيا على أعماله ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .  
كان ذلك هو اعتقاد اليهود بعد أن حملوا أسرى من أورشليم إلى بابل ، وأعادوا كتابة التوراة هناك متأثرين بعقائد البابليين التى كانت تقول إن المرء بعد مغادرة الحياة يذهب إلى الأرض التى لا رجعة منها وأنه يثاب فى دنياه عن أعماله . وقد تأثر عبد المطلب بيهود يثرب لما كان فى كنف أمه سلمى بنت عمرو قبل أن يعود به المطلب إلى قومه ، واعتنق ذلك رأى وراح يدعو إليه فى مجالسه ، وقد كان ذلك اليهودى ينبرى لتأييد رأى عبد المطلب فقد كان فى تأييده تأييد لدينه . وكان حرب بن أمية يحرق الأرم غيظا من ذلك المتطفل على مجلسهم فقال فى غلظة :

— الزم الصمت .

ونظر عبد المطلب إلى نديمه فى عتاب وقد ضايقت نظرات عبد المطلب

حرب بن أمية ، ولو طاوع وسوسات نفسه لقام وشهر سيفه وأطاح برأس ذلك اليهودى الذى يعكر الصفو بين النديمين .

وراح قائل يعارض رأى عبد المطلب ويقول إن ظلوما من أهل الشام قد هلك بعد أن ملأ الأرض ظلما ولم تصبه عقوبة ، فأطرق عبد المطلب يفكر ثم قال :

— والله إن وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب فيها المسيء بإساءته .

ولم يكن ما قاله عبد المطلب من قبيل الإلهام فقد كان نصارى الروم والشام والحيرة والحبشة يغدون ويروحون فى مكة ، وقد سمع عبد المطلب منهم لا ريب عن الدار الآخرة ، فلما أفحمه الرأى القائل بأن الظلوم قد يخرج من الدنيا دون أن تصيبه العقوبة كفر بمعتقدات اليهود الذين شب بينهم فى المدينة ، واعتنق ما يقول به النصارى من أن وراء هذه الدار دارا يجزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءته . ولو رفعت أسجاف الماضى البعيد عن بئر زمزم لرأى عبد المطلب هاجر جالسة عند البئر تلقن ابنها إسماعيل دين أبيه إبراهيم وتحديثه عن اليوم الآخر « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يُظلمون » ولكن طال على الناس الأمد وقست قلوبهم فأشركوا بربهم ونسوا يوم الدين .

وعاد الصحاب يتحاورون ، وسرعان ما راح عبد الله يجرى وراء أحلامه فقد وعده أبوه بأن يبعثه إلى الشام مع قوافل قريش ، وقد قال له إنه سينزل يثرب وسيرحب به أخواله بنو النجار ، فراح يرى نفسه بعين خياله فى قافلة قريش وهى تسرى فى أرض ذات نخل وعلى جانبيها الحقول كشطئان من سندس أخضر ، ورأى سوق الصياغة وهو يشتري لآمنة حليا فاخرة من يهود

بنى قريظة ، ثم رأى نفسه يعود وقد كسب مالا ممدودا فأشرق وجهه بالابتسام . ولكن سرعان ما قطب جبينه فما كانت أحلامه تعبر عن المشاعر الفياضة التي تموج بين ضلوعه ، فما من مكى خرج إلى الشام إلا وقد عاد إلى أهله بالحلى والهدايا والكسب الوفير ، وإن ما يحسه فى أغوار ذاته شئ أروع من المال والتجارة ، شئ غامض ساحر للذيد ، يملأ الروح بنور على نور ، ويمد الفؤاد بكنوز من السعادة تزرى بكنوز الأرض من ذهب وفضة .

ومالت الشمس لتغيب فى الأفق الغربى خلف جبال مكة فنهض عبد المطلب وقام بنوه ومن كانوا عنده وراحوا يطوفون بالكعبة قبل أن يعودوا إلى دورهم ، ثم انطلق عبد المطلب وبنوه إلى دور بنى هاشم من باب إبراهيم ، وخرج الآخرون من أبواب متفرقة .

ودخل عبد الله على آمنة فألفاها تتألق بالبشر وتقبل عليه مرحبة به كأنما قد آب من سفر طويل ، وراح العروسان يتناحيان فيحس كل منهما أن رباطا قويا قد شد كلا منهما إلى الآخر وإن لم يمض على زواجهما أكثر من أربعة أيام ، رباطا روحيا وثيقا يحطم كل الحواجز والسدود التى تقوم عادة بين نفسين وإن عاشا تحت سقف واحد عشرات السنين .

كانت آمنة سعيدة كل السعادة راضية كل الرضا تستشعر كأنما قد احتوت الوجود كله بين جوانحها ، وأن بركة عظيمة قد غمرتها بالنشوة وراحت تسكب فى فؤادها رحيق الحب لكل ما تقع عليه عيناها ، وأن فيضا روحيا ينبثق بالرحمة من أغوار نفسها فإذا بها تحس أنها تعيش فى دنيا جديدة تنبض رقة وأمنا وسلاما .

وبدت الدار الصغيرة للعروسين كأنها روضة من رياض الجنة ، فراحا يهيمنان فيها كفرأشتين حالمتين يخفق قلباهما بسعادة عارمة وتتفجر أعماقهما

بحب ليس له من نفاذ ، حتى إذا ما دثر الليل الكون بعباءته السوداء ذهب عبد  
الله وآمنة إلى مخدعهما وأسلما جنبيهما للرقاد .  
وطافت بمكة أحلام قطبت جباه ورففت على الشفاه بسمات ، وقد كانت  
البسمة التي توجت شفتي آمنة أعذب بسمة رسمت على شفتين في تلك  
الليلة ، فقد كان حلمها رائعا غاية الروعة لكأنما كان حقيقة واقعة ساحرة  
أنحاذة تبدهُ النفس والعقل والوجدان ، وتملأُ الشاعر بخدر لذيذ .  
وانبعث من أعماقها نور وهاج أضواء أرجاء الدنيا ، إنها ترى قصور بُصرى  
من أرض الشام ، وإن هاتفا يهتف بها :  
— إنك قد حملت بسيد هذه الأمة .

كان العرب يتعشقون الحرية ، وقد مارسوا تلك الحرية وتحللوا من القيود حتى صارت الحرية إباحية ، وقد فقد الدين سلطانه على النفوس وأصبح علاقة بين العبد والرب تحكم الوجدان ولا تحكم واقع الحياة ، وصار الدين أداة لجلب منافع دنيوية وسعادة أرضية ، فقد وقر في أذهان العرب الوثنيين أن المرء يثاب في دنياه على أفعاله ، وأن ليست هناك دار أخرى .

ولم تعد الأخلاق قيمة حقيقية من قيم الدين ، وتغاضى المجتمع عن الجرائم الخلقية وصار الناس يوزنون بما يملكون من ذهب وفضة ، فراحت شهوة المال المجنونة تعربد في النفوس وتتحكم في تصرفات الناس ، فأصبح التعامل مع الطبيعة لا مع ما وراء الطبيعة ، مع المادة لا مع الله .

وأصبح الدين في مكة في عزلة عن المجتمع المكي وإن كان المكيون جميعا يطوفون بالبيت العتيق كل صباح قبل أن يستفتحوا يومهم وكل مساء قبل أن يستشيروا إلههم ويضربوا بالقداح عنده ، وما كانوا يفعلون ذلك عن إيمان عميق بدينهم بل تسكينا للخوف من المجهول الذي كان يستبد بهم ، واستجابة لوسوسات الكهان والعرافين الذين عملوا على نشر الأساطير والخرافات والجهل لتحقيق مغايم دنيوية مستغلين ما يتمتعون به من وميض الفراسة الذي بسط سلطانهم على المكين جميعا .

وكان أهل الكتاب الذين يعيشون في مكة يعانون ازدواج الشخصية ، فاليهودي كان يمارس شعائر دينه في تزمّت شديد وفي نفس الوقت يرتكب كل

المجرمات مع المسيحيين أو الوثنيين من العرب ، فقد كان اليهودى يعتقد أنه هو الناس وأما عدا اليهود فهم أمم « كلاب البشرية » ، وأن الله لن يحاسب اليهود على ما يرتكبون من آثام فى حق الأميين : « ليس علينا فى الأميين من سبيل » . وكان المسيحيون يمارسون شعائرهم الدينية ويقولون للعرب فى استعلاء ما لقنهم بولس من عقائد فاسدة : « لسنا أولاد جارية » . وكان المسيحي إذا احتاج إلى المال يقترضه من اليهودى بربا فاحش نهت عنه المسيحية ، وكان يأبى إلا أن يحقر مقرضه فلا يسلم عليه بيده ولا يلمسه إنما يأمره أن يقف بعيدا ويصرخ فيه : « ضع المال واغرب عن وجهى يا خنزير » ، ونسى الناس جميعا أنهم لآدم وآدم من تراب ، وأن رب الناس وإله الناس وملك الناس واحد لا شريك له .

تحرر المجتمع المكى من قيود الأخلاق ، فبعد أن كان الرجل يخطب إلى الرجل وليته أو ابنته ويعين صداقها ثم يعقد عليها أصبح ذلك فى فئة قليلة من الذين حافظوا على التقاليد القديمة ، أما الذين تحرروا من عقائد القوم والأفكار الموروثة فقد صاروا يدخلون دون العشرة على امرأة ما ثم يصيبها كلهم عن رضا منهم وتواطؤ بينهم وبينها ، فإذا حملت ووضعتم ومرت ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطيع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان . تسمى من أحبت باسمه فيلتحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل .

وانتشرت البغايا فى مكة وكن ينصبين على أبوابهن رايات تكون علما فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعتم حملها جمعوا لها من دخل بها ودعوا القافة ، فيتفرس القائف فى الولد ثم الرجال فيعرف شبه الولد بالوالد بوميض الفراسة والآثار الخفية ، فيلحق ولد البغى بالذى يرى القائف أن

يستحلفه به فيدعى ابنه لا يمتنع عن ذلك .

وقد اشتهرت بغايا كثيرات في مكة منهن سريفة جارية زمعة بن الأسود ، وفرسة جارية هشام بن ربيعة ، وأم عليط جارية صفوان بن أمية ، وحنة القبطية جارية العاص بن وائل . وكان بعض الإماء يمتن البغاء فكن يكرهن عليه : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » .

ولم يعد للرباط المقدس الذى يربط الرجل بزوجه أى وزن ، فإذا أراد الرجل أن ينجب كريما أو شجاعا أو قويا يقول لزوجه إذا طهرت من طمئتها . — أرسل إلى فلان فاستبضعى منه .

فترسل المرأة إلى الرجل المنشود وتطلب منه الجماع ، فكان الرئيس أو الشجاع أو الكريم يأتى إلى دار الزوج ليؤدى ما يطلب منه لتحسين النوع وهو راضى النفس ، وكان زوجها يعتزلها ولا يمسه أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل ، وكان نكاح الاستبضاع مباركا من الزوج والزوجة والمجتمع جميعه . وانتشر في مكة زواج المتعة وهو زواج إلى أجل ، فإذا انقضى وقعت الفرقة . ونكاح البدل وهو أن يقول الرجل الرجل : انزل لى عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتى . ونكاح الخدن وهو أن تتخذ الزوجة صديقا . وقد كان العرب يقولون ما استر فلا بأس به وما ظهر فهو لوم ، وقد قل في النساء المحصنات : « محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان » .

وقد حكم الربا الحياة الاقتصادية في مكة والمدينة والطائف وأسواق العرب ، فقد كان الدائنون يأكلون الربا أضعافا مضاعفة ، فأصحاب النخيل عند جنى الثمر كانوا يتفقون مع القائمين على جمع المحصول على أن يدعوا لهم على أن يسددوا ضعفه في العام القابل ، فإذا ما

حل الأجل وعز المدين عن السداد فقد كان الدائن يمنحه أجلا آخر على أن يسدد المدين ضعف الكمية التي استحققت في الأجل الأول .

وإذا أقرض الدائن المدين ناقة عمرها سنة فعلى المدين أن يدفع للدائن بعد عام ناقة عمرها سنتان ، فإذا عجز عن تقديم تلك الناقة فعليه أن يدفع في السنة التالية ناقة عمرها ثلاث سنوات . وكان ذلك هو الحال في العمليات المالية ، فإذا أقرض رجل آخر مائة دينار لمدة عام فعلى المدين أن يدفع في الأجل المسمى مائتي دينار ، فإذا عجز عن الوفاء صار عليه أن يدفع في السنة التالية أربع مائة دينار ، وهكذا دواليك إلى أن يوفى المدين دينه .

وكانت المعاملات جميعا بين الدائن والمدين على مثل تلك الحال ، فإذا ما أقرض رجل آخر مبلغا من المال أو سلعة من السلع ، فعلى المدين أن يدفع في الأجل المسمى المبلغ المقرض أو السلعة مع فائدة يتفق عليها ، فإذا أعلن المدين عجزه عن الوفاء فإن الدائن يقبل عن طيب خاطر مد الأجل على أن يسدد المدين الدين مضاعفا : « لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » ..

وكان بنو ثقيف يأتون من الطائف إلى مكة ليقدموا القروض لبنى المغيرة ، وغالبا ما كان بنو المغيرة عند حلول الأجل يعتذرون عن السداد ويطلبون مد الأجل لقاء دفع فوائد تأجيل السداد ، فكان أفراد الطرفين يحررون عقودا جديدة بما اتفقوا عليه عند الملتمزم بين باب الكعبة والحجر الأسود ، وهم يستنزلون اللعنات على من خان أو فجر أو بدك .

كان بنو ثقيف يقدمون الذهب والفضة والأنعام ومحاصيل أرضهم الخصبة ، فما كان لهم في الناس من دين فعليهم أن يسددوا رأس المال أضعافا مضاعفة . إنها سنة وشرع شرعه القادرون الذين يملكون الذهب والفضة وما

فى الأرض من متاع ، وفرضوه على المحتاجين المضطرين الذين لا يجدون سندا من حاكم قوى مرهف الحس والضمير ، أو من دين سماوى ينهى عن أكل أموال الناس بالباطل وينذر الكافرين منهم بعذاب أليم .

وانقسم الربا إلى ربا نسيئة وربا فضل ، فربا النسيئة أن يقدم الدائن إلى المدين مبلغا ما على أن يتقاضى فوائده كل شهر ويظل رأسه ثابتا لا يربو ، فإذا حل الأجل سدد المدين ما اقترض ، وإلا طلب مهلة وقبل عن طيب خاطر أن يدفع الدين مضاعفا .

أما ربا الفضل فهو استبدال الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح والورق بالورق إلى أجل ، على أن يحصل على فائدة من نفس الصنف لا أن يرد مثلا بمثل سواء بسواء ، أو يبيع غائبا بناجز لتحقيق أرباح غير مشروعة .

وكان العرب يرون شرعية الربا وكانوا يقولون فى بساطة : « إنما البيع مثل الربا » ويضربون مثلا بمن يشتري ثيابا بعشرة دنانير ويبيعها بأحد عشر دينار ، فذلك عمل مشروع ، وكذلك الحال فيمن يقرض آخر عشرة دنانير ويحصلها أحد عشر دينارا ، فكما أن البيع مشروع فالربا مشروع على هذا القياس . وكانوا يرون أن أية عملية تجارية أو ربوية مشروعة ما دام الطرفان قد ارتضيا شروطها ، فالبيع والربا ضروريان لسد حاجات البشر ، فإن كان المقرض لا ينال فى النهاية إلا رأس ماله فلماذا يخاطر بماله ويقرضه للمحتاجين ؟ كانوا يرون أن الربا يقوم بخدمة اجتماعية فهو يمكن المحتاجين من سد حاجاتهم ويشجع المقرضين على أن يقرضوا أموالهم للناس لإشباع رغباتهم ، وما كانوا بقادرين أن يتصوروا شيئا آخر فقد كانوا يعيشون فى مجتمع توزن فيه كل الأمور بالمادة ، وما كان اللروحانيات وزن يذكر .

وانتشر في بلاد العرب كما انتشر في كل بقاع الأرض العبيد ، فالرقيق بضاعة ضرورية لا بد منها لأهل المال تدر عليهم أرباحا عظيمة ، فهم آلات ذلك الزمن ومصدر من مصادر الاستغلال للحصول على الثروة ، كما أنهم سلاح يستخدم للدفاع عن السادة الأثرياء في أيام السلم وفي أيام الحرب . وكانت مكة بلد الأثرياء والتجار غاصة بعبيد الحبشة والسودان والرومان والفرس والغساسنة وعرب الحيرة وكان أثرياء مكة يستغلون العبيد في الأعمال الشاقة وفي حراسة قوافل التجارة وفي زيادة رءوس أموالهم ، وكانوا يكرهون فتياتهم على البغاء لبيتغوا عرض الحياة الدنيا .

كان الأسرى البيض الذين يقعون في أيدي الفرس أو الروم أو القبائل المغيرة على الحدود يباعون في أسواق النخاسة ، وكانت أسعار هذه البضاعة تفوق البضاعة المستوردة من إفريقية ، وكانت جودة إنتاج الرقيق الأبيض والتفنن فيه والبراعة في الصناعة التي لا تعرفها إفريقية تعوض عن ذلك الفرق .

ووصل إلى موالى العراق وبلاد الشام والروم وغيرهم من ذوى البشرة البيضاء إدارة الأعمال والقيام بالحرف التي تحتاج إلى خبرة ومهارة وفن ، فكانوا ينهضون بأعمال البناء والتجارة الدقيقة . وهذه البضاعة التي استوردتها قريش من الخارج وإن كانت تابعة تؤمر فتفعل وتكلف فتستجيب ، إلا أنها كانت بضاعة حية لها قلب نابض ودماء يعمل ولحم ودم ولبعضها علم وفهم ومعرفة تفوق معرفة أصحابها المالكين لها ، فأثر هؤلاء العبيد أصحاب الحضارت في حضارة قريش وفي معتقداتها .

وجلس عبد المطلب على فراشه في ظل الكعبة وحوله ندماءه وأبنائه العشرة كأنهم أسد غاب ، وراح عبد المطلب يرقب الكتاب الذين كانوا يرمون العقود عند الملتزم والناس أحرارا وعبيدا وهم يطوفون بالبيت ،

ويصغى إلى الابتهاالات التى تنبعث من القلب حارة فتتهز وجدانه هذا وترهف ضميره وتجعله بهيم فى الكون العريض .  
ووقف رجلان ينظران إلى عبد المطلب وأبنائه ويتناجيان ؛ فقال أحدهما لصاحبه :

— بمثل هؤلاء تبنى الممالك .

والتقطت أذن عبد المطلب حديث الرجل فشرد ذهنه وتذكر تلك الرؤيا التى هالته ففرع منها فزعا شديدا ، رأى كأن شجرة نبتت من ظهره قد نال رأسها السماء وضربت بأغصانها المشرق والمغرب وما رأى نورا أزهر منها وأعظم من نور الشمس سبعين مرة ، ورأى العرب والعجم لها ساجدين وهى تزداد كل ساعة عظما ونورا وارتفاعا ، ساعة تخفى وساعة تظهر . ورأى رهطا من قريش قد تعلقوا بأغصانها ، وقوما من قريش يريدون قطعها ، فإذا دنوا منها أخذهم شاب لم ير قط أحسن منه وجهها ولا أطيب ريحا فكسر أظهرهم وقلع أعينهم ، فرفع يده لينال منها نصيبا فلم ينل ، فقال : « لمن النصيب ؟ » ف قيل له : « النصيب لهؤلاء الذين تعلقوا بها وسبقوك » .  
إنه انتبه فى تلك الليلة مذعورا ولم تستقر نفسه حتى ذهب إلى كاهنة قريش ، فقالت : « لئن صدقت رؤياك ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب وتدين له الناس » .

ونظر عبد المطلب إلى ابنه أبى طالب . كان أبو طالب فى الخامسة والثلاثين وكان عبد المطلب يحس فى أعماقه أن سيكون لابنه هذا شأن عظيم ، حتى إنه قال لأبى طالب بعد أن قص عليه حلمه وما قالت كاهنة قريش : « لعلك أن تكون هو المولود » .

وأسبل عبد المطلب جفنيه على عينيه ليرى فى وضوح ما يدور فى رأسه

ويسمع ما يهمس به نفسه ، فقد قام في جوفه سؤال : « أكون ملك في مكة ؟ » .

ولاح في وجه عبد المطلب حيرة . أصدق حلمه ويملك أبو طالب بمكة أم يثور الناس عليه ؟ .

وانقضى النهار وانصرف عبد المطلب وأبناؤه إلى دورهم ، فذهب شيخ بنى هاشم إلى هالة بنت وهيب ، وانطلق عبد الله على جناح الشوق إلى آمنة بنت وهب ، ويمم أبو طالب والزبير شطر دور بنى هاشم ، بينما انسل أبو لهب إلى دار فتاة من فتيات البغاء المنتشرات في مكة ليجمع بشباب سادات قريش المترفين الفاسقين الباحثين عن المتعة المتمرغين في حمأة الفساد .

واكتمل عقد الشباب العابثين فدارت كئوس الخمر ، وامتزجت ضحكات الرجال بضحكات الناس ، وجرت الألسن بأشعار ماجنة حتى كاد الليل أن ينتصف ، فمشى الملل إلى النفوس التي أنهكها طول العبث والمزاح ، وأراد الرجال أن يعيدوا إلى أفئدتهم التي كادت تموت الحماس فصاح صائح :

— الميسر يا صحاب .

فقال أحدهم عابثا .

بـ أهو من اليسر أم من اليسار ؟

— إنه من اليسر إن كان أخذ مالك بيسر ، وهو من اليسار إن كنا سنسلب

يسارك .

وتجاوبت في المكان ضحكات فارغة وقام الرجال والنسوة للعب القمار ، وجيء بالقداح وهي عيدان قد نحتت وملست وجعلت سواء في الطول ، وهي الأزلام والأقلام وهي عشرة ، الفذ والتوأم والرقيب والجلس والنافس

والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد ؛ فللأول وهو الفذ سهم إن فاز وفوزه خروجه ، وعليه غرم سهم إن خاب ولم يخرج . وكذلك باقيها على الترتيب فيما له وعليه ، إلى المعلى ، وهو السابع له سبعة إن خرج وعليه سبعة إن لم يخرج . يفرض فى كل سهم منها بحسب ماله ، وعليه حز ، وتكثر هذه السهام بثلاثة آخر أغفال ليس فيها حروز ولا لها علامات ليكون ذلك أنفى للتهمة وأبعد من المحاباة ، وهى المنيح والسفيح والوغد .

ووضعت السهام فى كيس والتفت الذى سيضرب بالقдах إلى الأيسار الذين سيشترون فى القمار ، فقال أحدهم :  
— الفذ .

فراح زملاؤه يركبونه بسخريتهم فقال :  
— إن خاب فغرم سهم وإن فاز فكسب سهم ، وأنا سهل أحب السهل .  
وقال آخر :  
— التوأم .

ونظر إلى أبى هب وقال :  
— كهاشم وعبد شمس .  
فنظر صاحب القдах إلى أبى هب وقال :  
— وأنت يا بن سيد قریش ؟  
فقال أبو هب فى زهو :  
— المعلى .

فقال قائل :  
— وما ضرك لو خسرت ، مال عبد المطلب كحصى مكة .  
فمالت فتاة عليه وقالت :

— إنه ابن أكرميين ، ويا لسرورى يوم أن يصبح سيد قريش .  
وراح صاحب القداح يوزع الأزلام على اللاعبين ، وبقي سهمان فقال  
الرجل :

— من يتمم ؟

فصاحت الأصوات :

— أبو هب .. أبو هب .

فأخذ أبو هب ما فضل من القداح وقال للأيسار فى زهو :  
— قد تمتم .

وأخذ ثوب شديد البياض ولف على يد « الحرضة » وهو الذى سيضرب  
للأيسار بالقداح ليغشى بصره فلا يعرف قدح أبى هب دون غيره بعد أن لف  
بقطعة من جراب ، لئلا يجد مس قدح يكون له مع صاحبه محاباة .  
وأخذ الحرضة ولم ينظر فيها ، وجلس خلفه آخر هو الرقيب وهو الذى  
ينظر فيما يخرج من القداح فيخبر الأيسار به ويعتمدوا على قوله فيه .  
جلس الأيسار حول الحرضة ضارب القداح دائرين به ، ومد الحرضة يده  
وأخرج سهماً ورفع من غير أن ينظر إليه ثم ناوله الرقيب وصاح :  
— التوأم .

ودفع بالسهم إلى صاحبه فأخذ الرجل سهمين من الأموال الموضوعة ،  
فقال له الحرضة :

— أتعيد السهم ؟

فقال الرجل :

— لا أرغب فى التنية .

واكتفى الرجل بفوزه . واستأنف ضارب القداح الضرب بالقداح الباقية

على الثمانية أسهم الباقية ، ورفع الرجل قدحا فتسلمه الرقيب وقال :  
— المسبل .

ودفع بالقدح إلى صاحبه فتناول الرجل ستة أسهم من الأموال ثم أعاد  
سهمه وهو يستشهد بقول النابغة في زهو :

إني أتمم أيسارى وأمنحهم مثنى وأكسو الجفنة الأدماء  
وأطل الجشع من العيون ودنت النسوة من الأيسار وقد سال لعاب  
طمعهن . وانبهرت الأنفاس وأرهفت الحواس وأشرقت وجوه وغامت بالحزن  
وجوه وبدت نواجز أقوام وقطبت جباه أقوام ، وقد لاح على أبى لهب الكدر  
الشديد فقد خاصمه حظه وخسر كل ما كان معه .

وأقبل رجل يسعى حتى وقف على رءوس الأيسار وصاح :  
— جاءت قافلة من الشام تحمل خمرا .

فضج المكان بصياح الفائزين والنسوة اليغايا وأطرق أبو لهب أسي ،  
ومرت لحظة وإذا بغز التي الذهب اللتين علقهما عبد المطلب في الكعبة تملآن  
صفحة رأسه ، وإذا به يرى نفسه ينسل ويسرق غزاة منهما ويشترى بها  
خمرا .

وأحس أبو لهب جهدا فراح يزفر في صوت مسموع ، وأسبل جفنيه على  
عينيه لكيلا يرى تلك الصورة البشعة التي استولت على تفكيره ولكن غزاة  
الكعبة استقرت أمام عين خياله لا تريم .

وتململ وهز رأسه في عنف ليطرد الرؤى التي تنثال على رأسه ، ووضع  
أصابعه في أذنيه حتى لا يسمع همزات شيطانه ، ولكن الصور التي كانت تمر  
في ذهنه والأصوات التي تتردد بين جنبيه كانت نابعة من أغوار نفسه تتفجر  
تفجر البراكين .

( مولد الرسول )

واندكت مقاومة أبى لهب فنهض وقد لاح في وجهه عزم أكيد ، ونظر إلى بعض الرفاق وأشار لهم برأسه أن اتبعوني فهبوا واقفين ، ثم ساروا خلف ابن سيد القوم وزعيم مكة يمنون النفس بخمر الشام اللذيذ .

وانطلق أبو لهب ورفاقه إلى الكعبة ودخلوا في جوفها وسرقوا غزالة من الغزالتين متسترين بالليل ، ثم هرعوا إلى القافلة التي أقبلت من الشام واشتروا بالغزالة خمرا .

وتنفس الصبح وخرج المكيون ليطوفوا بالحرم ، وفتح كاهن هبل بابها للراغبين في تقديم القرابين للإله أو في الاستقسام بالأزلام ، وحانت من الكاهن التفاتة فلم يجد إلا غزالة واحدة معلقة فندت منه صيحة إنكار ، ثم خرج مفزوعا يعلن على الملأ النبأ الأليم .

وقرع الخبر أذنى عبد الله بن جدعان وبلغ مسامع قريش ، فأحس الناس خوفا يقبض أفئدتهم وأصبحوا يخشون أن تنزل بهم نازلة من السماء فانتشروا في مكة يبحثون عن غزالة الذهب التي سرقت من البيت المقدس . وكان عبد الله بن جدعان أشدهم طلبا لها فقد بات يهاب المجهول بعد أن كان أكثر أهل مكة شرورا وأقساهم قلبا .

ووعد عبد الله بن جدعان بجائزة لمن يرشد إلى من سرق الغزالة ، وإذا بعقد الألسن تحل وإذا بأصابع الاتهام تشير إلى أبى لهب وصحبه ، فذهب عبد الله ابن جدعان إلى رجال القافلة التي وردت من الشام واسترد منهم الغزالة ، ثم انطلق في إثر أبى لهب ورفاقه المجان .

وألقى القبض على بعض صحاب أبى لهب وقطعت أيديهم جزاء وفاقا على ما ارتكبه في الحرم ، وفر بعضهم إلى أخواله من خزاعة .

وجاء عبد الله بن جدعان ورجال من قريش ليقبضوا على أبى لهب وينفذوا

الحكم فيه ، ولكن خزاعة منعت عنه قریش ، فراح الرجال يعيرونه صائحين :

— سارق غزالة الكعبة .. سارق غزالة الكعبة .

منعت خزاعة عن أبى لهب قریشا ، ونفذ حكم القطع فى فريق دون فريق ، ولم يكن ذلك بدعا فقد كان الشريف الذى يسرق لا يقطع بينا تقطع يد السارق إن لم يكن له ولى ولا نصير .

وخشى عبد المطلب أن تسرق الغزالتان مرة أخرى فجاء بهما وضربهما فى باب الكعبة ، فكان أول ذهب حليت به .

جلس أحيحة بن الجلاح الأوسى وقد أطرق يفكر فى أمره وأمر ذلك الوليد الذى ستضعه امرأته بعد حين وقد صار شيخا وبلغ من العمر عتيا ، فراحت حياته تمر فى مخيلته فتنبسط أساريه مرة وتنقبض مرات ، فقد كانت حياة حافلة بالأحداث لكأنما كانت تاريخ يثر ب بما فيها من صراع وكفاح وأمل . رأى نفسه وهو شاب يافع يتقدم لخطبة سلمى بنت عمرو الخزرجية ليشد الأواصر بين الأوس والخزرج وليوحد بين الحين من العرب حتى يستطيعا أن يقفا فى وجه اليهود سكان المدينة إذا ما تركوا خلافاتهم ذات يوم وعزموا على مناهضة قوة العرب التى كانت آخذة فى النمو فى المدينة . ثم رأى فى وضوح ليلة أن بنى بسلمى ويوم أن ولدت له عمرا وأخاه معبدا فتهللت أساريه ، وسرعان ما عبس لما تذكر الخلاف الذى دب بينه وبين سلمى وانتهى بطلاقهما .

كانت سلمى امرأة ذات شخصية قوية تحس استقلالها ، وكان هو شاعرا مرهف الحس قد ذاع صيته ولم يتجاوز شرح الشباب ، فكان يضيق بانطلاقها وذهابها إلى الأسواق لتشرف على تجارتها ، فكان الجفاء والخصام والانفصال .

وأبت سلمى أن تنكح الرجال حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها ، إذا كرهت رجلا فارقت . وجاء هاشم بن عبد مناف سيد قريش فى تجارة إلى يثرب ورأى سلمى وقد وقفت على مرتفع من الأرض تشرف على تجارتها ،

فأعجب بها وتقدم إليها بخطبها . ثم تزوجها فولدت له شبيبة وقد صار شبيبة عبداً  
المطلب زعيم قريش وسيدها .

ورأى أحيحة نفسه وهو يتنازع الشرف هو ومالك بين العجلان ، كان  
هو سيد الأوس وكان مالك سيد الخزرج . وقد علا ذكر مالك يوم أن قتل  
الفيطوان ملك اليهود الذي أراد أن يفتض نساء العرب قبل أن يدخلن على  
أزواجهن ، ثم انطلق إلى الحارث بن جبلة ملك الغساسنة واستنجد به فجاء  
الحارث بمجنوده وقتل سادات اليهود ومكن للعرب في يثرب .

ورأى أحيحة والأسى يعتصر قلبه ذلك اليوم المشئوم الذي فتح باب  
العداوة بين الأوس والخزرج . كان سوق بنى قينقاع يغص بالناس ، وجاء  
رسول عبد ياليل الثقفي إلى السوق بفرس وحلة ثم وقف وقال :

— إن عبد ياليل بن عمرو الثقفي قد بعثنى بهذه الفرس وهذه الحلة وقال  
لي : ادفعهما إلى أعز أهل يثرب .

فوثب إليه كعب الثعلبي وهو رجل من غطفان كان جاراً لمالك بن  
العجلان الخزرجي وقال :

— مالك بن العجلان أعز أهل يثرب .

وقام رجل آخر فقال :

— بل أحيحة بن الجلاح أعز أهل يثرب .

ودوت أصوات التنافر في أذني أحيحة وهو جالس في مكانه كأنما كانت  
آتية من أغوار بئر عميقة ، إنها أصدااء أصوات رنت في سوق قينقاع في الماضي  
البعيد ، ولكنها ظلت حية في نفسه تبعث الألم كلما طافت بذاكرته أو ترددت  
في وجدانه .

واستجاب الرسول لقول الثعلبي فدفعهما إلى مالك ، فقال كعب

الثعلبي :

— ألم أقل لكم إن حليفى أعزكم وأفضلكم .

وغضب سُمير وكان رجلا من بنى عمرو بن عوف فرصد الثعلبي حتى قتله ، وبلغ مالك بن العجلان ذلك فأرسل إلى بنى عوف بن عمرو بن مالك بن الأوس :

— إنكم قتلتم منا قتيلا فأرسلوا إلينا بقاتله .

فلما جاءهم رسول مالك قالوا :

— إنه كان فى السوق التى قتل فيها صاحبكم ناس كثير ، ولا يُدرى أيهم قتله .

— إنما قتله سُمير ، فأرسلوا به إلى أقتله .

— إنه ليس لك أن تقتل سُميرا بغير بينة .

وكره بنو عمرو بن عوف أن ينشبوا بينهم وبين مالك حربا فأرسلوا إليه يعرضون عليه الدية فقبلها ؛ فأرسلوا إليه :

— إن صاحبكم حليف وليس لكم فيه إلا نصف الدية .

فغضب مالك وأبى أن يأخذ فيه إلا الدية كاملة أو يقتل سُميرا ، فأبى بنو عمرو بن عوف أن يعطوه إلا دية الحليف ثم دعوه أن يحكم بينهم وبينه عمرو بن امرئ القيس أحد بنى الحارس بن الخزرج ، فقضى على مالك بن العجلان أنه ليس له فى حليفه إلا دية الحلف ، وأبى مالك أن يرضى بذلك وآذن بنى عمرو بن عوف بالحرب واستنصر قبائل الخزرج . فأبى بنو الحارث بن الخزرج أن تنصره غضبا حين رد قضاء عمرو بن امرئ القيس ، فقامت مناوشات بين الأوس ومالك بن العجلان ، وقد فتح سُمير باب الحروب بين الأوس والخزرج التى كانت تشور لأتفه الأسباب .

وجرى خيال أحبيحة إلى صديقه الشاعر. امرئ القيس الملك الضليل لما تذكر عمرو بن امرئ القيس . إنه نسب إلى الإله قيس زوج مناة إلهة الأوس والخزرج العظيمة ، وشب في كنف أبيه حجر ملك كندة وكان أصغر أولاده ، وقد طرده أبوه لما تغزل بامرأة من نساء أبيه فصار يتجول في الآفاق يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شذاذ العرب من طيء و كلب وبكر بن وائل ، فإذا صادف غديرا أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ثم عاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم وغمته قيانة .

وفي أرض اليمن أتاه عامر الأعور يحمل خبر أبيه ومقتله ، فقال :  
— ضيعني صغيرا وحملني دمه كبيرا ، لا صحو اليوم ، ولا سكر غدا ،  
اليوم خمر وغدا أمر .

خليلي ، لا في اليوم مصحى لشارب

ولا في غد إذ ذاك ما كان يشرب

ثم شرب سبعا ، فلما صبحا آلى ألا يأكل لحما ولا يشرب خمرا ولا يدهن بدهن ولا يصيب امرأة ولا يغسل رأسه من جنابة حتى يدرك بثأره .  
وقدم عليه رجال من بني أسد واعتذروا إليه ، وأرادوا أن يسووا القضية فقالوا له :.

— نعطيك ألف بعير دية ، أو نقيدك من أي رجل تشاء من بني أسد ، أو تمهلنا حولا .

— أما الدية فما ظننت أن تعرضوها على مثلي ، وأما القود فلو قيد إلى ألف من بني أسد ما رضيتهم ولا رأيتهم كفئا لحجر . أما النظرة فلكم ، ثم ستعرفونني في فرسان قحطان أحكم فيكم ظبا السيوف وشبا الأسنة حتى

أشفى نفسى وأنال تأرى .

وارتحل حتى نزل بكرا وتغلب ، فسأهم النصر على بنى أسد قتلة والده ،  
فبعث العيون على بنى أسد فأحس بنو أسد ريبة وكأئما كان العيون إنذارا لهم  
فلجأوا إلى بنى كنانة . وخرج امرؤ القيس وبكر وتغلب فى أثرهم ، فأدرك  
بنو أسد أن امرأ القيس يتعقبهم فارتحلوا ليلا ، فلما دخل امرؤ القيس إلى بنى كنانة  
ظانا بنى أسد بينهم نادى :

— يا لثارات الملك ! يا لثارات الملك .

فخرج له بعض نفر من كنانة وقالوا :

— ما نحن إلا كنانة .

— وأين بنو أسد ؟

— لما نزلت بجمع ذعر القطا فطار عن مجاثمه ، فقالت بنت « علياء بن  
الحارث » القائم بأمر بنى أسد : « ما رأيت كالليلة قطا أكثر » . فقال علياء :  
« لو ترك القطا لغفا ونام » ، وعرف أنك قد اقترنت منه فارتحل .

ورأى أحيحة وهو جالس فى مكانه ينتظر ما تضع زوجه ، رأى امرأ القيس  
وهو خارج إلى اليمن بعد امتناع « بكر بن وائل » و « تغلب » من أتباع بنى  
أسد ، إنه استنصر « أزد سئوءة » فأبوا أن ينصروه وقالوا :

— إخواننا وجيراننا .

ورآه بعين خياله وهو ينزل بمرثد الخير بن ذى جدث الحميرى ، ورأى  
الرجل وهو يمدده بخمسائة رجل من حمير ، ورأى امرأ القيس وقد تبعه من  
استأجر من قبائل العرب وقد وقفوا عند صنم « ذى الخلصة » ، وقد راح  
امرؤ القيس يستشير الإله فى أمر حربه ويدير القداح ، فإذا بالناهى يخرج  
ثلاث مرات ، ورأى امرأ القيس وهو حائق غاضب يكسر السهام ويضرب

بها وجه الصنم ويقول :

— مصصت بظر أمك ، لو أبوك قتل ما عقتنى .

وتملل أحيحة في مجلسه وذهب ليرى ما فعلت زوجته ، فقليل له إنها لا تزال تضع . فعاد إلى مجلسه وإذا بخياله يعدو وراء صديقه امرئ القيس فراح يرى رجال بنى أسد وقد لجئوا إلى المنذر ملك الحيرة يستنجدونه ، فألح المنذر في طلبه ووجه الجيوش من أياد وبهراء وتنوخ لحربه فلم يقدرُوا عليه ، فأمد أنو شروان حليفه المنذر بجيش من الأساورة فسرّحهم في طلبه .

ورأى أحيحة في وضوح — وإن كل بصره — تفرق حمير من حول صديقه ، ورأى الصديق البائس يفر من قبيلة إلى قبيلة ومعه أدرع خمسة : الفضفاضة والضافية والمحصنة والخريق وأم الذبول ، كن لبنى آكل المزار يتوارثونها ملكا عن ملك .

ورأى امرأ القيس وقد نزل عند « الحارث بن شهاب » ، ورأى المنذر وقد بعث إليه بمائة من أصحابه يوعدّه بالحرب إن لم يسلم إليه بنى آكل المزار ، ورأى الحارث وهو يسلمهم لأصحاب المنذر ، ورأى امرأ القيس وهو يفر ومعه بنته هند والأدرع والسلاح ومال كان بقى معه .

ورأى صديقه وهو يذهب إلى تيماء ويترك ابنته وبعض الأدرع عند السموأل ، ثم يأتي إليه في يثرب ويترك عنده ما بقى معه من أدرع ومال . وأطرق أحيحة برأسه ، إنه ليذكر ذلك اللقاء الذى كان بينه وبين امرئ القيس قبل أن ينطلق صديقه إلى القسطنطينية يستنصر يوسطنيانوس قيصر الروم ، كان ذلك من ثلاثين سنة خلت ولكنه يذكر أحداث ذلك اليوم لكأنما كانت وقعت بالأمس القريب ، فقد كان وداعا للقاء بعده ، وإن كانت أنباء الصديق تفد إلى يثرب بما يثلج القلب وينعش الأمل .

إنه سلك طريق الشام ومر بحوران وبعلبك وحمص وحماء وقيصرية وأخيرا القسطنطينية . وقبله قيصر وأكرمه وسارت له منزلة عنده ، وأن ابنة قيصر نظرت إليه فعشقتة فكان يأتيا وتأتيه .

وأنجد يوسطنيانوس امراً القيس وأمدّه بجند كثيف فيه جماعة من أبناء الملوك ، ولكن الطماح من بنى أسد كان يمقت امراً القيس أشد المقت فهو من بنى أسد وقد قتل امراً القيس أخاه . فلحق به وأقام مستخفيا ، حتى إذا ما ارتحل امراً القيس ذهب إلى قيصر وقال له :

— إن امراً القيس غوى عاهر ، وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه كان يرسل ابنتك ويواصلها ، وهو قائل في ذلك أشعارا يشهر بها في العرب فيفضحها ويفضحك .

وغضب قيصر فبعث إلى امريئ القيس بحلة وشى مسمومة منسوجة بالذهب ، فلما بلغ الرسول امراً القيس قال له :

— إن مولاي القيصر يوسطنيانوس العظيم أرسل إليك بحلته التي كان يلبسها تكرامة لك ، فالبسها باليمن والبركة ، واكتب إليه بخبرك من منزل منزل .

ولبسها امراً القيس واشتد سروره ، فأسرع فيه السم وسقط جلده وسار . يتحامل على نفسه حتى بلغ جبل عسيب ، فرأى « ذو القروح » في الجبل قبرا ، فسأل من عنده :

— قبر من هذا ؟

— امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدفنت في سفح الجبل .

وأحس أنه يجود بأنفاسه فسار يجر رجليه حتى ارتقى بجوار القبر ، وراح يقلب بصره في جبل عسيب ففطن إلى أن نور عينيه يكاد ينطفئ وأن روحه .

توشك أن تنسل من بين جنبيه ، فقال ابن الملوك وهو ينظر إلى قبر بنت الملوك :

أجارتنا إن المزار قريب      وإني مقيم ما أقام عسيب  
أجارتنا إنا غريان ها هنا      وكل غريب للغريب نسيب  
ومات الملك الضليل أمير الشعراء ذو القروح ، امرؤ القيس بن حجر الكندي  
غريبا في أنقرة ، ورن في أذني أحيحة بن الجلاج قوله لما ظفر بيني أسد :  
قولا لدودان عبيد العصا      ما غركم بالأسد الباسل ؟  
قد قرت العينان من ممالك      ومن بنى عمرو ومن كاهل  
ومن بنى غنم بن دودان إذ      نقذف أعلاهم على السافل  
حلت لي الخمر وكنت امرأ      عن شربها في شغل شاغل  
فاليوم أشرب غير مستحقب      إنما من الله ولا واغل  
وندت من امرأة أحيحة صرخة لم أخرجته من شروده ، فهب واقفا وهو  
يغمغم :

— الشعر باطل ، الملك باطل ، النعيم زائل ، كل شيء باطل . فيم الحياة ؟  
ولم الممات ؟ وفيه هذه الحروب الطاحنة التي لا يخبو لها أوار بين قبائل  
العرب ؟ أنعيش حياتنا كالأنعام ثم نموت كما يموت البعير كأن لم يكن شيء ؟!  
واحتلت صفحة ذهن أحيحة تلك المقابلة التي لم يمض عليها شهور والتي  
تمت بينه وبين شيخ من أحبار اليهود ، دار الحديث بينهما حول الله والدين  
وأصنام العرب وإله بني إسرائيل وإذا بالحبر الشيخ يشرد قليلا ثم يقول :  
— قد تقارب زمان نبي يبعث هذا أوان مولده .

— ومن يبعث ؟

— من العرب .

— وما اسمه ؟

— محمد .

كان أحيحة قد ضاق بتلك الحروب الناشبة بين الأوس والخزرج وبالعداوة المشتعلة بين قبائل العرب ، وبالضياع الذى يعيش فيه شباب العرب وشيوخهم ، لا أمل يرتجى ولا هدف يسعى إليه ، بل فراغ فى العقيدة وضيق فى أفق الحياة ، وضرب فى بيداء الوجود على غير هدى ، فلما سمع من الخبر أن نبيا يبعث فى العرب هذا أو أن مولده يحملهم إلى ما فيه عز الدنيا والآخرة ، طمع فى أن يكون ذلك النبى من صلبه ، فعزم على أن يسمى ابنه محمدا إذا ما وضعت زوجته ذكرا .

ودخلت القابلة على أحيحة بن الجلاح وهو غارق فى أفكاره وقالت له :  
— وضعت ذكرا كأنه القمر .

وهز الفرح الشيخ فانطلق إلى زوجته منبسط الأسارير وقال فى انفعال :  
— سأسميه محمدا .

وتهلل الشيخ بالسرور وحسب أنه أول من عرف ذلك النبأ العظيم ، وراح ينظر فى وجه الوليد وهو يرجو أن يكون محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى هو نبى هذه الأمة المنتظر وما دار بخلده أن سفين بن مجاشع فى اليمن قد عرف من رهبان النصارى أن أو أن مولد النبى المرتقب قد أظل الكون زمانه ، فسمى ابنه من قبل محمدا ، فكان محمد بن سفين بن مجاشع أول من سماه أبوه محمدا أملا فى أن يكون النبى الذى يبشر به أحبار اليهود ورهبان النصارى .

وعرف مسلمة الأنصارى أن نبيا يوشك أن يولد فسمى ابنه محمدا ، وكذلك براء البكرى ، وحران الجعفى ، وخزاعى السُلَمى ، من أحبار اليهود ورهبان النصارى وكهان العرب بقرب مولد النبى العربى الأمى الذى

يبعثه الله في الأميين لا في بنى إسرائيل ، فسموا أبناءهم محمدا ، وكل منهم يرجو أن يكون ابنه هو الرسول الكريم ، فكان محمد بن سفين بن مجاشع ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسى ، ومحمد بن مسلمة الأنصارى ، ومحمد بن براء البكرى ، ومحمد بن حمران الجعفى ، ومحمد بن خزاعى السلمى ، أول من تسمى بمحمد في العرب لا سابع لهم ، رجاء أن يكون أحدهم هو النبى ، والله أعلم حيث يجعل رسالته .

« والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون . الحق من ربك فلا تكونن من المتمرين » .

كان حرب بن أمية قميثا هزيلا ولكنه كان يسير مرفوع الرأس شاخ الأنف يختال كبيرا ، يستشعر في أعماقه أنه الكون وأنه أشرف من ولدته امرأة . وكانت طمأنينة نفسه أسمى غاياته فراح على مر الأيام يحرق قلبه من الاضطراب بتر الخوف والرغبة وسد المسالك التي يتدفق من خلالها الألم والقلق إلى وجدانه .

كان على علم بأن الحب والشفقة هما البثقب الذي يسمح بدخول موجة القلق والألم الطاغية إلى قلبه ، فراح يجاهد لي طرح الشفقة جانبا . فالشفقة ضعف . وكان يترفع عن تقبيل أطفاله حتى لا يفتح أبواب الوهن في نفسه ، ويطلق لعواطفه العنان ، فنبذ الحب ليتحرر من الشعور ، وراح يشاور رأسه ويتجاهل فؤاده ، فكان بذلك يفتت ما جمعه الله ، فاستوى فظا غليظ القلب انفض الناس من حوله ، يهابون سطوته ويتأخرون عنه إذا ما تقدم لاحباله واجتراما لمقامه فيهم ، بل خوفا من شروره وأذاه .

وكان يعتزل الناس ترفعا فما كان يجد فيهم من هو كفاء لمجالسته ، ولو أن إنسانا كان يستطيع أن يعيش في عزلة عن العالم وحده لا اعتزل حرب الناس جميعا ، ولكن الإنسان لا يقدر أن يعيش فردا بل هو في حاجة إلى أنيس كحاجته إلى الطعام والشراب والهواء . فنادم عبد المطلب . وكان يضيق بالمتحدثين في مجلس سيد قریش وكثيرا ما كان ينهرهم ويصدهم من الحديث في غلظة وجفاء ، وكان ينحس الغيرة تنهش قلبه إذا ما مدح مادح عبد المطلب

أو خاطبه بخطاب ينم عن أن عبد المطلب زعيم مكة ، فقد كان حرب يعتقد في قرارة نفسه أنه أكرم من عبد المطلب وأعلى منه شرفا . ولا غرو فقد نافر أبوه أمية من قبل عمه هاشم أبا عبد المطلب ، فإن كان قد نزل على حكم الحكم وغادر مكة إلى الشام عشر سنين ، إلا أنه لم يقبل ذلك الحكم عن رضا بل لعن الحكم واليوم الذى صار فيه حكما يحكم فيه بأن هناك على وجه الأرض من هو كفاء أمية بن عبد شمس بن عبد مناف .

وسار حرب فى سوق من الأسواق يتيه خيلاء ومن حوله رؤساء قريش حتى بلغوا مكانا ضيقا لا يسمح إلا بمرور إنسان ، فتأخر أشراف قريش ليتقدم حرب ، وإذا برجل من تميم يزاحمه فى التقدم فالتفت حرب إلى التميمى فى شزر وقال فى صوت غاضب ناهر :  
— أنا حرب بن أمية .

فلم يلتفت إليه التميمى ومر قبله ، فرماه حرب بنظرة قاسية وقال متوعدا :  
— وعدك مكة .

وزفر حرب حمم غصبه وراح يرسل نظرات حانقة خلف التميمى وهو يرغبى ويزبد ، ثم مر من المضيق وهو يعلل النفس بالانتقام من ذلك الذى جرح كبريائه يوم أن يفد إلى مكة .

وبقى التميمى دهرا ، ثم أراد دخول مكة فقال :

— من يجيرنى من حرب بن أمية ؟

فقل له :

— عبد المطلب بن هاشم .

فانطلق التميمى مستترا بالليل حتى أتى دار الزبير بن عبد المطلب ، فدق الباب وهو يترقب خشية أن يراه حرب قبل أن يجيره آل عبد المطلب .

وبلغ الدق مسامع الزبير وأخيه الغيداق ، فقال الزبير لأخيه :  
— قد جاءنا رجل إما مستجير أو طالب حاجة أو طالب قرى ، وقد  
أعطيناه ما أراد . فخرج الزبير وما إن رآه التميمي حتى أنشد :

لأقـيت حربـا في الثـيـة مقبـلا  
والصـبـنـح أبـلـج ضوؤه للبارى  
فدعـا بصوت واكتـنـبى ليروعـنى  
ودعـا بدعوتـه يريـد فـخـارى  
فتركتـه كالـكـلب يـنبـح وحده  
وأقـيت أهـل معـالم وفـخـار  
ليثـا هزبـرا يـستـجـار بقـربـه  
ولقـد حلفـت بمكـة وبزمـزم  
والبـيت ذى الأحـجار والأستار  
إن الزـبير لما نـعـى مـن خـوفـه  
مـا كـبر الحـجـاج في الأمصار  
فقال الزبير للتميمي :

— تقدم فإننا لانتقدم على من نجيره .  
وأصبح الصباح وخرج التميمي والزبير إلى الحرم ، والتميمي يتقدم ابن عبد  
المطلب ، حتى إذا ما دخل المسجد رآه حرب فقام إليه فلطمه ، فاستل الزبير  
سيفه وهجم على حرب فراح حرب يعدو والزبير فى أثره والسيف فى يده ،  
ورأى أبناء عبد المطلب أخاهم فى أثر شيخ بنى أمية فحفوا إليه لينصروه إذا ما  
حاول بنو أمية نصره سيدهم .

وانطلق حرب إلى دار عبد المطلب وهو مبهور النفس يتلفت من الفرع ،  
ثم دخل الدار وهو يدير في المكان عيين زائغتين وقلبه في صدره يخفق كجناح  
حمام ، حتى إذا ما رأى عبد المطلب قال في صوت مرعوب :  
— أجرني .

— ممن ؟

— من الزبير .

فأكفأ عليه جفنة كان أبوه هاشم يطعم الناس فيها ، وبقي حرب تحتها  
يرتجف فرقا تنثال على رأسه أفكار مفزعة مرغت كبرياءه في الرغام ، فقد  
ثارت كرامته مرة وحرضته على الخروج لأبناء عبد المطلب وليقتل كريما فتأثر  
بنو أمية لمقتله ، وسرعان ما غاضت تلك الكرامة لما هجس في صدره هاجس  
يونسوس له : وماذا يفيدك سفح دم كل بنى هاشم يا حرب لو مت مقتولا ؟  
وبقي تحت الجفنة وهو في هلع قد أرهفت حواسه ، تذهب نفسه شعاعا  
لرفيف النسيم أو رفيف ثوب أو جفيف قدم تمشى هونا على الأرض . وكاد  
يموت من الخوف لما سمع وقع أقدام قادمة فقد خيل له وهمه أن الجفنة سترفع  
ثم ينزل سيف ليقطع رأسه ، ومس صوت عبد المطلب أذنيه مس رقيقا أعاد  
الطمأنينة إلى نفسه قال :

— اخرج يا حرب .

فقال وهو ينكمش في نفسه تحت الجفنة :

— كيف أخرج وسبعة من ولدك قد اجتمعوا بسيوفهم على الباب ؟

— اخرج وأنا أجيرك .

ورفع عبد المطلب الجفنة وألقى على حرب رداءه ، فوقف حرب برهة  
يجمع شتات نفسه ، ثم خرج على الزبير وإخوته فلما رأوا رداء أبيهم علموا أنه  
( مولد الرسول )

أجاره فوضعوا سيوفهم . وسار حرب بينهم مطمئنا وما لبث أن شمع بأنفه ورفع رأسه ومشى في كبر وخيلاء .

وذاث يوم ذهب حرب إلى سوق من أسواق تهامة إذا تقدم تأخر الناس ، وإذا تكلم صمت الناس . وبينما هو في قمة غروره جاء اليهودى الذى كان فى جوار عبد المطلب والذى يمقته حرب من كل قلبه ، ولم يلق سمعه إلى ما يقول حرب وهو صامت بل راح يجادله على أعين الناس ، فضاق حرب بذلك اليهودى الوقح ونهره ، فأغلظ اليهودى القول على حرب فأذهب غيظ قلوب الناس وشفى صدورهم وإن كتموا عواطفهم خشية بطش أمية وأهله . وضائق الأرض أمام حرب على رحابتها وغشيتها ظلمات ، وإن كانت الشمس ترسل نورها مشرقا وهاجا فقد غامت نفسه بسحب الخنق والغضب وأعمته عن كل ما حوله ، ولم يعد يحس إلا المهانة التى لحقته من ولد عبد المطلب وحليف عبد المطلب اليهودى وإن كان فى جوار عبد المطلب ! ودعا حرب رجلا من رجاله وراح يوسوس له ويغريه وينفث فى صدره سموم غضبه ، فانطلق الرجل ينقب عن ذلك اليهودى الذى أهان سيد بنى أمية حتى عثر عليه فى ناحية من السوق قتيل .

وبلغ عبد المطلب أن حربا أغرى على قتل اليهودى الذى كان فى جواره فغضب وعزم على أن يفارق حربا وعلى أن يترك منادمته إلى أن يدفع دية القتيل .

وجاء حرب يكاد ينفجر من الكبر وهم أن يجلس بالقرب من فراش عبد المطلب ، فقال له عبد المطلب :

— لا تنادنا حتى تدفع دية القتيل .

— أى قتيل ؟

— الذى أغريت على قتله فى السوق ؟

— اليهودى ؟!

— نعم . إنه كان فى جوارى .

وتغير حرب واربد وجهه واستشعر مهانة لما طالبه ابن هاشم بدية يهودى أغلظ له القول على أعين الناس فأغرى به من قتله جزاء وفاقا على وقاحته .  
ودار حرب على عقبه وانطلق مغاضبا هؤلاء القوم الذين يحاولون على الدوام أن ينالوا من كرامته دون أن يحفلوا بمكانته بين أشراف مكة وساداتها .

كان الغيظ يملأ جوانحه ، وراحت الأفكار المريضة تزحف على عقله حتى استولى عليه سؤال حائر : لماذا يحاول بنو هاشم أن يحقروا بنى أمية كلما سنحت لهم سائحة ؟ أجار الزبير ذلك التيمى وهو يعلم ما فعله من وقاحة لما تقدم عليه يمر من المضيق قلبه ، وهو من يتأخر عنه الناس احتراما وإجلالا ؛ واحتضن عبد المطلب ذلك اليهودى سليط اللسان وأجاره فراح ذلك اليهودى فى كل مجلس يعامله معاملة الأكفاء . وقد شجعت حماية عبد المطلب له على أن يغلظ له القول فى السوق فحق عليه القتل ، فلما نال جزاءه هب عبد المطلب ينادى بدفع دية . لماذا يطالب عبد المطلب بدية اليهودى ؟ إنهما ما فعلا ذلك إلا تحقيرا لشأنه ، وخوفا من أن يتزع من بنى هاشم الشرف والسلطان .

ورن فى جوفه سؤال فيه إنكار لذلك الخاطر : « وهل بنو هاشم أشرف من بنى أمية ؟ إن كانت لهم السقاية والرفادة فلنا دار الندوة وعقد لواء الحرب » وكاد يستريح لذلك القرار لولا أن همس فى جوفه هامس : « إنهم يحيون الناس بإطعامهم وسقايتهم بينما تسوقونهم إلى الحرب لتسفك دماؤهم كالأغنام » .

وغضب من ذلك الخاطر الذى عكر عليه صفوه الذى كاد أن يلفه وراح

يقول بصنوت مسموع ليطغى على وسوسات نفسه التى بدأت تقلقه : « إننا لا نعقد لواء الحرب إلا دفاعا عن شرف قريش ، إننا لا تعلن الحرب إلا على أعداء قريش ، ولولانا لذهب قريش أدراج الرياح . ولو أنصف العرب لعرفوا لنا ذلك الفضل ولرفعوه فوق كل فضل ، ولكن العرب لا يرون جلائل الأعمال إلا يبطونهم » .

وساءه أن يعترف بفضل بنى هاشم فعاد يقول فى نفسه : « إن كان عبد المطلب قد أطعم الحجيح وسقاهم ، وإن كان بنو هاشم قد أوسعوا على الناس فى المواسم فإن نيران الضيفان مشتعلة على الدوام على دور أمية ، فإن كانوا قد أطعموا فقد أطعمنا ، إننا وبنى هاشم فى الكرم كفرسى رهان ، ولكننا سبقناهم بقيادة الجيش وحمل اللواء » .

وتذكر فى لحظة غضبه ابنه أبا سفيان فتهللت أساريره ، وراح يقيم الموازنات بينه وبين أبناء عبد المطلب : « أبو سفيان يرجح الزبير ، وهو أكفأ من أبى طالب ، وأين عبد الله منه ، إنه لو وزن بأبناء عبد المطلب لرجحهم جميعا . وليس فى بنى هاشم من هو كفء لأبى سفيان ، فعلى بنى أمية أن تتكاتف لتمهد الأمور ليصبح أبو سفيان سيد مكة بلا منازع » .

وأشرق صدره بالأمل . ولكن سرعان ما غاض ذلك البصيص وعاد الغل يستولى عليه ، وراحت أصوات بغیضة تفح فى وجدانه فحيح الأفعى . أيجير على الزبير ؟! أيطالب بنى عبد المطلب بدية اليهودى ؟! لا كان الزبير ولا كان عبد المطلب ولا كانت قريش ولا كانت مكة لو أننى رضخت لإرادة من يريدون تحقيرى » .

ورأى أباه أمية بن عبد شمس يقوده عبده ذكوان فوسع من خطوه ليلحق بهما ويفر من وحدته التى تفجر مراحل الحقد والغضب والغل فى نفسه ، وما

إن سار معهما حتى أحس راحة ، ولكن ما أسرع أن ضاق بتلك الصحبة فانطلق لا يلوى على شيء .

وعزم حرب على أن يعتزل عبد المطلب ومجلسه وقد حسب أن ذلك يريحه من الهوان الذي يستشعره إذا ما طالبه عبد المطلب بدية اليهودي ، ولكن عبد المطلب لم يدعه بل أرسل إليه يطالبه بالدية فثارت ثورته وأعلن في غضب أنه لن يدفع تلك الدية أبدا .

ومرت أيام وحرب بن أمية برم بوحده حائق على ذلك الصوت المنبعث من نفسه يهدده : « الدية أو الثأر » ، ثائر على ضعفه الذي يزين له سلوك طريق السلامة ودفع الدية والعودة إلى منادمة الصحاب .

واستكبر حرب ولج في العناد وإن كانت معاول الهزيمة تدك مقاومته على مر الأيام ، حتى ساق ذات صباح مائة من الإبل إلى بيت عم اليهودي دية القتل ، فقد عجز حرب عن الاستمرار في عداوة عبد المطلب وأنف من مخالطة عامة الناس ، فما كان بقادر على أن يعيش في عزلة عن قومه وقد تآقت نفسه المتكبرة إلى مجالسة السادة ، فهرع بعد أن أدى الدية وهو صاغر إلى منادمة عبد المطلب لا حبا في عبد المطلب بل حبا في نفسه .

كانت جبال مكة تمتص حرارة الشمس الحامية ثم تنفثها كشواظ من نار في أرجاء الوادى المقدس ، وكان الحصى الذى يفرش الأرض حول الكعبة يتصاعد منه دخان لكأنما يوشك أن يتوهج ، وقد غاب حمام الحمى عن الحرم فقد طار إلى دور مكة يختفى في ظل شرفاتها من الحر اللافتح . وعلى الرغم من القيظ الشديد الذى انبهرت له الأنفاس فى الصدور فقد كان رجال يطوفون بالبيت العتيق ، وكان عبد الله يطوف معهم وقد تفصد منه العرق فغمر جسمه وسال على لحيته التى بدأت تنبت فى وجهه ، فقد كان عبد الله شابا يافعا فى الثامنة عشرة لم يضع بعد قدمه على أعتاب العشرين .

وانتهى من طوافه فوسع من خطوه ، وخرج من باب إبراهيم يغذ السير ويحتفى من لفع الشمس بالدور ، حتى إذا ما بلغ الطريق الضيق الذى يقوده إلى داره وقف فى الظل يلتقط أنفاسه فى راحة ويفكر فى هدوء . إنه خارج فى المساء فى رحلة الصيف إلى الشام ، إنه سعيد بهذه الرحلة ، فسيزور المدينة فى عودته وسينزل ببنى النجار أخوال أبيه عبد المطلب ، وسيشتري لآمنه حلية من الذهب من سوق قينقاع ، فما من شاب من شباب مكة خرج إلى المدينة إلا وعاد بأساور أو أقراط أو خلاخيل لأهله .

وسار هونا والأفكار تتوافد على رأسه ، إنه فقير لا يملك إلا جارية حبشية وخمسة أجمال وقطعة من غنم ولكنه لا يزال فى مقتبل العمر . سيضرب فى الآفاق ويخرج فى غير قريش إلى الشام وإلى اليمن وإلى الحيرة إلى مصر ، وسيكسب

من التجارة فيجمع بين الغنى والشرف ويصبح سيدا من سادات قریش يطعم المحتاج ويغيث الملهوف ويعين على نوائب الدهر .  
وتهلل بالفرح لما تذكر أن أباه الشيخ قد عهد إليه أن يمتار من المدينة تمرا ،  
وفى القافلة رجال عركوا التجارة وعركتهم لهم باع طويل في البيع والشراء ،  
إن أباه ما فعل ذلك إلا ليشعره أنه صار رجلا يمكن أن تعتمد عليه قبيلته في  
بعض أمورها . وسيأتى اليوم الذى يصبح فيه عماد مكة وصاحب الكلمة  
العليا فيها .

وفاضت نفسه بالسرور واستشعر أنه قد دخل الحياة من أوسع  
أبوابها ، وهل للحياة باب أوسع من باب التجارة ؟ سيطوف بالدنيا  
وسيدلف إلى قصور كسرى وقصور قيصر وفرعون مصر وملك  
الحبشة وملك الجيرة ، وسيبرم معاهدات الصداقة بينه وبينهم جميعا  
كما آلف أجداده هاشم والمطلب ونوفل من قبل ملوك الأرض  
وأباطرتها .

كان فرحه لا يحد لما فداه إلهه بمائة من الإبل ، ولكن غبطته في تلك  
اللحظة كانت تفوق كل غبطة فقد ملأه يقين أن أيام سعادته قد أقبلت ، وأنه  
سيصبح شيئا مذكورا لا في مكة وحدها بل في طول الأرض  
وعرضها .

وبلغ الدار وراح يدق بابها في رفق وهو ينتظر أن ينفرج عن  
جاريته الحبشية ، وإذا بالباب يفتح وإذا بآمنة تستقبله بابتسامة مشرقة  
فأحس كأن الوجود كله قد تهلل بالفرح . وسار إلى جوارها وأقبل عليها  
يحدثها عن آماله العريضة وهى تصغى إليه منشرحة الصدر ناعمة البال تطوف

بها سكينه وأمن ، وإن كانت تعلم أن زوجها مفارقها بعد سويغات في رحلة قد تكون أطول من الأيام السعيدة التي قضياها معا في العش الجميل .

إنها شهور قليلة تلك التي مرت منذ تزوج سليل البيت الهاشمي أفضل فتاة في قريش نسبا وموضعا ، ولكنها كانت شهورا مترعة بالنشوة . وقد كانت تلك الليلة التي كانت فيها بين اليقظة والنم والتى سمعت فيها هاتفها يهتف بها في رؤياها : « انك قد حملت بسيد هذه الأمة » أروع أيام حياتها ، فقد انتشت منه مس الهاتف أذنيها نشوة روحية ملأت جوانحها حتى انها باتت تحيا فيها ولها وبها .

كانت آمنة لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها ولكنها كانت تعرف مكانتها . إنها سيدة من سادات قريش وزوجة ابن زعيم قريش وأحب ولده إلى قلبه ، وقد تحقق لها أعز حلم تحلم به فتاة عربية أن تصبح أما ، وقد سمعت هاتفها يهتف بها أنها حملت بسيد هذه الأمة . وقد طار بها الخيال فرأت ابنها يجلس على فراشه في ظل الكعبة كما يجلس جده عبد المطلب وقد التف الناس حوله وألقوا إليه أسماعهم وهو يفصل في قضاياهم ، فقد كان أقصى ما يمكن أن تتخيله امرأة من قريش أن يكون ابنها زعيما كعبد المطلب ، أو شريفا كعبد الله بن جدعان ، أو شيخا من شيوخ دار الندوة .

وراح الزوجان اللذان لم يمض على زواجهما إلا بضعة أشهر يتناجيان ، وما أسرع أن أقبل المساء وحانت ساعة الوداع . فراح عبد المطلب يرنو إلى وجه آمنة الذي كان يتألق بالنور في حب واعجاب ودهش ، ففي عينيها هيام

وعلى شفتيها بسمه هادئة ، لم يعرف وجهها الفرع ولم ترتجف خوفا من وحدتها فلن يكون معها في الدار إلا جاريتها الحبشية الصغيرة التي كانت في مثل سنها ، بل كانت ثابتة مرفوعة الجبين تعرف حقيقة دورها في مجتمع يعيش بالتجارة وعلى التجارة ، يطوف رجاله بالآفاق ثم يعودون إلى الزوجة الصابرة التي تنتظر أوبة حبيبها لتنسيه متاعب الرحلة ووعثاء الطريق ، ولا غرو فقد كانت كانت فتاة من أشرف حى في قريش .

وفطن عبد الله إلى الجهد الذى تبذله زوجته الشابة حتى لا تبدو أمام عينيها منهارة متهاكة تنشج بالبكاء ويعلو صوتها بالنحيب ، ففاض تأثيره حتى وادت في طرفي عينيها القريتين من أنفه دمعتان ، وخشى أن يبدو أمامها ضعيفا يسح العبرات فدار على عقبيه وانصرف لا يلتفت خلفه .

كانت آمنة تحس رغبة في البكاء لما كان عبد الله معها ولكنها كانت تتجلد لتبدو هادئة ، وكانت ثورة عارمة في أعماقها تكاد تعصف بها فما سبق لها أن عاشت في في دار كدارها وحدها . ومشى الخوف إليها إلا أنها كبحت جماح ضعفها وراحت توحى لنفسها أن نتماسك حتى يخرج عبد الله ثم تطلق لعواطفها العنان ، وكانت تحسب أنها ستتهار بعد أن يغيب زوجها الحبيب عن عينيها وستنفجر باكية ، ولكن ما إن ذهب عبد الله حتى أحست أنسا يملأ أرجاءها لكأنما الكون كله معها في دارها يؤنس وحدتها . وعجبت لحالها ! كانت تسمع من نسوة بنى زهرة عن مشقة الحمل وثقله ولكنها حملت فما وجدت له مشقة ، وكانت تهاب الوحدة وترتجف منها فرقا وإن أبدت

شجاعة وعزما ، وكانت واثقة من أن قلبها سينخلع رعبا بعد أن يخلو الدار من فتاها ، ولكن سكينه وأمنا نزلا بها وهدهدا مشاعرها .

وخرج عبد الله وقد ارتفع القمر في السماء ينير السبيل فسار بضع خطوات ثم وقف والتفت خلفه وألقى نظرة طويلة على داره ، فانقبض صدره وطافت به موجة من الأسى وانتشعر وحشه لم يحسها من قبل . إنه يحب آمنة وإنه لما يؤلم النفس أن يفارقها في أشهر زواجهما الأولى ، ولكنه ما كان يحسب أن فراق آمنة ينزل به مثل الحزن الذي انتشر بين جوانحه . ومرت لحظات وعيناه ثابتتان على داره لكأنما يتزود لدهر طويل من البعاد ، ثم دار على عقبه وراح يسعى إلى الكعبة .

كانت النيران مشتعلة على جبل قبيس لكأنما كانت منارة يهتدى بها الضاربون في البداء ، وكانت السنة نيران الضيفان تتراقص في سواد الليل على بيوت الكرام ، وكانت المشاعل في أيدي الخارجين إلى حيث بركت غير قريش ، فبهرت أضواء النيران نور القمر وأحالت ليل مكة إلى نهار .

وراح عبد الله يطوف بالبيت العتيق مع الطائفين ، ثم ذهب إلى حيث العير فإذا بالمكان يموج بسادات مكة وعبيدها ورجالها ونسائها ، وقد تبرجت النساء وأبدن زينتهن ورخن يضربن بأرجلهن حتى توسوس الخلاخيل وسوساتها التي تجعل الرجال يلوون أعناقهم ولا يغضون من أبصارهم . وانتشرت حلقات السمار : حلقة تعب كئوس الخمر وتصغى إلى قينة من القيان تغنى شعرا لأمراء القيس ، وحلقة ضربت حول عراف يضرب الرمل ويروى على الذين أعاروه سمعهم ما يخبئه الغيب ، وحلقة من الفقراء والمساكين أقبلوا على طعام جاء به أجواد من قريش ، وهنا وهناك البغايا صاحبات الرايات الحمر وقد انتشرن في المكان يودعن شباب القافلة ورجالها

المترفين الذين راحت أفكارهم تسبقهم إلى صاحبات الرايات الحمر في يثرب والشام .

وراح عبد الله يقلب وجهه في المكان فإذا بمشاعر رقيقة تغمره ويحس أن عطفا سابغا متبادل بينه وبين الحرم وجبل قبيس والأخشبين جبلى مكة والحجون والصفاء والمروة ، ومد بصره إلى بعيد فرأى غار حراء كقبة غمرتها أشعة الشمس الفضية بدت كلؤلؤة تتألق بنور لطيف لكأنما تجلت على الغار أنوار السماء .

واستشعر رحابة في قلبه وأحس أنه يحتوى الوجود كله ويضمه بين جنبيه ، وأن شيئاً جليلاً غامضاً ساحراً الذيذا قد أمسى يربط بينه وبينى الوادى المقدس بل بينه وبين الكون جميعه ، ورفع بصره إلى السماء فخیل إليه أن اسمه قد كتب بأحرف من نور وقد سبقه اسم آخر غشى نوره عينيه فلم يتبينه ، فهمس في نفسه هامس : إن لى لشأناً مع هذا البيت وهذه السماء وهذا الكون . وأفاق من أحلامه على صوت يناديه :

— عبد الله .. عبد الله ..

فالتفت فإذا بأخيه الزبير قد جاء يسعى ، فهرع إليه وقال له :

— أين أبى ؟

— إنه قادم فى إثرى لىودعك قبل الرحيل .

وسار عبد الله والزبير يتناجيان ، وكان عبد الله يشرد بخیاله بين لحظة وأخرى فقد كانت عواطفه جياشة نابضة بمشاعر رقيقة ما كان يدرى أن كنوزاً نفيسة عامرة بها ، فقد سافر من قبل مع أبيه إلى اليمن قبل أن يتزوج آمنة ولم يحس يومها ما يحسه فى هذه الليلة من تناسق مع كل ما حوله ، ومن فناء فى كل ما حوله ، ومن حب لكل الدنيا ، وإنه هو وآمنة قد ارتفعا ليملاً ما بين

أرض مكة وسمائها ، وأنه يسير في عالم مسحور حتى إنه بات لا يدري أيعيش في يقظة أو في حلم من الأحلام .

وجاء عبد المطلب بحف به أبنائه كالقمر ومن حوله نجوم السماء ، فخف إليه عبد الله وارتمى في أحضانه وبقى على صدره فترة طالت كأنما قد استراح إلى القلب الحنون الذي يخفق بحبه . ثم ابتعد عبد الله عن أبيه الشيخ فانقبض صدر عبد المطلب فقد أحس كأنما قد انتزع ابنه منه ، وزاد في قلقه أنه شعر بدموع تبلل روحه وإن لم تطفر إلى عينيه .

ووقفت رقيقة بنت نوفل تنظر إليه ؛ كان إخوة عبد الله يعانقونه مودعين فردا فردا وكان بين ذراعى أبي طالب ولكنها لم تكن ترى إلا وجه عبد الله وعجبت في نفسها لماذا تديم النظر إليه في تلك الليلة ، إنها طالما رآته بعد أن عرضت عليه نفسها وقالت له : هيت لك . يوم أن فداه إلهه بمائة من الإبل قبل أن يدخل على آمنة ولكنها لم تنجذب إليه بعدها ، كان ساحرا قبل أن يدخل على بنت وهب إلا أنه فقد ذلك السحر بعد أن دخل عليها فلم يعد لها فيه حاجة ، فما بالها تطيل إليه النظر ؟ إنها لا تدري وكل ما تدريه أن نفسها تحدثها أن شيئا ما سيقع لابن عبد المطلب يتجاوب صدها جبال مكة ووديانها كما تجاوبت به يوم أن هم أبوه بذبحه .

وساد المكان سكون رهيب ، أطبقت المغنيات شفاهن وماتت ضحكات المأجنين ووضعت كحوس الخمر ، حتى البغايا صاحبات الرايات الحمر أطرقت برءوسهن فقد جاء موكب الإله وارتفعت الأصوات بالحمد والتسبيح . كان الإله في محفة على أعناق الكهنة وقد انطلقوا به حتى بلغوا الخيمة المقدسة وأريج الطيب ينتشر في المكان ، وبين الابتهالات والدعوات وضع الإله في الخيمة التي كانت على ظهر بعير برك على رأس القافلة .

وقام الجمل بحمله المقدس فأذن بالرحيل ، فالتفت عيون بعيون وخفقت  
قلوب وقلوب وسحت دموع وانهمرت دموع ، وسارت القافلة إلى الأفق  
البعيد ، فالتفت عبد الله خلفه يلقي نظرة وداع على أحب بقعة في الأرض إلى  
قلبه .

كانت وديان مكة قد لبست حلتها السندسية ، اخضرت الأرض وحملت  
الأشجار أطيب الثمار بعد الجذب الشديد ، فعرفت تلك الأيام بسنة  
الابتهاج ، وأتى قريش الرغد وحلت عليهم بركات السماء .  
وسرت القافلة في الليل تسير على بساط أخضر يموج بأنوار القمر الفضية  
السحرية قد وشى بالنوار الأصفر ، فكان روعة تبده البصر والعقل  
والوجدان .

وانطلقت القافلة في أروع معبد حتى أطبق عليها الأفق وبعدت عن الوادي  
المقدس ، وإن ظل البيت العتيق مشرقاً في سويداء القلوب مضيئاً جنبات  
أرواح تعلقت به وشغفت به حبا .

وقامت مكة من رقادها على صوت عيص الراهب الذي جاء من الشام  
ونزل بمر الظهران يقول :

— يوشك أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة تدين له العرب ويملك العجم ،  
هذا زمانه ، فمن أدركه واتبعه أصاب حاجته ومن أدركه وخالفه أخطأ  
حاجته .

كان عيص يلزم صومعة له ويدخل بين الحين والحين فيلقى الناس ويقول  
مقالته ثم يقفل راجعاً إلى صومعته . وقد هزهم قوله أول مرة ولكنهم ألفوا  
نبوءته فأعرضوا عنها ، فأين ذلك العربي الذي تدين له العرب ويملك  
العجم ، والأمم من حولها تكاد أن تتخطفهم ؟

أطرق أبرهة برأسه يفكر فيما جاء به رسول يوسطينوس الثانى قيصر الروم ، فإمبراطور الروم يسأله أن يتحرك بجيوشه ليغزو الجزيرة العربية حتى تتصل جيوش الحبشة واليمن التى تدين بالنصرانية بجيوش الشام والقسطنطينية ، ثم تنطلق الجيوش الصليبية لغزو فارس . وإن إمبراطور الروم يستحثه على الإسراع بالخروج فالحرب الدائرة بين الشرق والغرب توشك أن تكون نكبة على القسطنطينية ، وفى انكسار الروم توهين للمسيحية وإضعاف لشأن الملوك المسيحيين .

وعادت به ذاكرته إلى ثلاثين سنة مضت، إلى تلك الأيام التى كانت الدعاية البيزنطية والحبشية لا هم لها إلا بث الكراهية فى العالم المسيحى على اختلاف مذاهبه للحميريين الذى تهودوا واضطهدوا النصرارى المسلمين . فكانت حملة الحبشة على اليمن فى ظاهرها باسم الدين ، وإن كان هدفها الحقيقى الذى تخفيه هو الاستيلاء على اليمن وإدخال ذلك القطر الغنى ذى الموقع الخطير تحت نفوذ البيزنطيين، لتتم لهم السيادة على مياه البحر الأحمر ، والسيطرة على مضيق المندب والمحيط الهندى وعلى ثروة إفريقية والهند وما وراء الهند.

إن ما يدعو إليه قيصر مشروع خطير راود عقل الإسكندر من قبل وظل حلما فى خياله ، وحاول أوليوس غالوس أن يخرج الحلم إلى عالم الوجود فمنى بإخفاق شديد ، ترى أينجح أبرهة فى تحقيق حلم الإسكندر وفيما أخفق فيه أوليوس غالوس القائد الرومانى العظيم؟

وراح أبرهة يفكر فى الجزيرة التى ما فتى قياصرة الروم يلحون عليه أن يسير بجيوشه فيها حتى تلتقى جيوش الحبشة بجيوش الروم فألفاها قبائل متنافرة حالت المنافسات بين زعمائها دون تكوين دولة عربية قوية لها وزن فى ميزان الدول ، وما أسير تأليب رئيس على رئيس أو تأييد زعيم موال أو القضاء على زعيم انتقض ليثور على سلطانه ، إنه قوة لا قبل لقبائل العرب بها ، وهو على يقين من أنه لو سار بجيوشه فلن تلبث القبائل العربية أن تركع مستسلمة عند قدميه .

وانتفخت أوداج أبرهة غرورا ، وراح يجرى وراء خياله فتذكر حليفه زهير بن خباب سيد كلب وشريفها وخطيبها وشاعرها وطبيبها وكاهنها وفارسها وأوجهها عند الملوك ، وتذكر حين طلع على نجد وأتاه زهير فأكرمه وفضله على من أتاه من العرب ثم أقره على بكر وتغلب ابنى وائل ، وقد فرح آل زهير وقالوا : إن أبرهة اصطفى آل زهير وسوسهم على الناس . إن زهيرا قد جبى له الخراج من قبيلته ، وقد أصابتهم سنة شديدة لم يتمكنوا فيها من دفع ما عليهم فطالبهم زهير بها فاعتذروا عن الدفع ، فاشتد عليهم ومنعهم من النجعة حتى يؤدوا ما عليهم فكادت مواشيهم تهلك ، فلما رأى ذلك « ابن ربابه » أحد بنى تيم الله بن ثعلبة أتى زهيرا وهو نائم فأغمد السيف فى بطنه ، ثم فر هاربا ظانا أنه قد أهلكه .

وأفاق زهير فأخذه من كان معه من قومه حتى وصلوا به إلى قبيلته ، فجمع عندئذ جموعه ومن قدر عليه من أهل اليمن وغزا بهم بكر وتغلب وقتلهم قتالا شديدا انهزمت به بكر وقتلت تغلب بعدها فحقت بها الهزيمة ، وأسر كليب ومهلل ابنا ربيعة ، وأخذت الأموال وكثرت القتل فى بنى تغلب ، وأسرت جماعة من فرسانهم ووجوههم وانتصر زهير نصرا عظيما .

ودانت لأبرهة نجد ، وحمل زهير إليه خراج معد وبكر وتغلب فوقر في وجدانه أن ما من زعيم من زعماء القبائل العربية إلا ويتهلل بالفرح إذا ما أقره على قبيلته ، وما من أحد منهم إلا ويسارع بحمل الخراج إليه تقربا إليه وكسبا لرضاه فقد كان سيد اليمن المطاع وأقوى ملك في المنطقة .

وكان أبرهة يعيش حياة الملوك المترفين ، فكان لا يقل فخامة ولا روعة عن قصر كسرى أنوشروان في المدائن أو قصر يوسطينوس بالقسطنطينية أو قصر الخورنق مقر ملوك الحيرة ، وقد بنى الكنائس العظيمة في مأرب وفي ظفار وفي صنعاء وفي نجران ، وراح ينشر النصرانية في اليمن ويدعو العرب إلى الحج إلى كنيسة العظيمة في صنعاء ويعمل على أن يصرفهم عن الحج إلى مكة لتعود عليه المغنم التي تجنيها قريش من الحجيج في موسم الحج . فما دار بخلداه أبدا أن أشرف قريش يخرجون عن جزء من أموالهم لإطعام حجاج بيت الله ، وأن السقاية والرفادة شرف عظيم يتنافس عليه سادات قريش ليكون لهم ذلك المجد الذي تشرئب إليه أعناق الرجال .

وكان أبرهة قد فوض ابنه أكسوم أمر « معاهر » أرض أقبال معاهر انتزعها من أصحابها وسلمها إليه فعرف بذي معاهر ، وفوض ابنه الثاني الذي أنجبه من زوجته العربية التي انتزعها من زوجها على شناتر وعرف بذي شناتر ، وعرفه الغرب بمسروق لأنه جاء من امرأة سرقها أبرهة من زوجها بسلطانه . كانت الأمور مستقرة لأبرهة ، إنه يحيا حياة الملوك المترفين ، فكان إلحاح قياصرة الروم عليه بغزو الحجاز لا يصادف هوى في نفسه فكان يتلكأ في تنفيذه ، فما الذي يحمله على المغامرة وقطع فيافي وقفار في صحراء جرداء تحت نار الشمس الحامية عرضة للعطش والضياع ، وأن ينزل به ما نزل بأوليوس غالوس يوم أن أغراه قيصر بفتح بلاد العرب والاستيلاء على ما بها

من كنوز ؟

ورأى أبرهة أن يمد سلطانه على القبائل بأن يبعث إليهم رجالا موالين له يسوسّهم على الناس يرغمونهم على طاعته ويجبون له الجزية ، فمن حوله أشراف كل قبيلة رهن إشارته وطوع أمره . واستراح للفكرة فبعث رجلا ممن عنده اصطفاه ليكون حاكم تهامة من قبله .

وخرج الرجل من قصر أبرهة يكاد يطير من الفرح فقد ولاه سيد اليمن على تهامة ، ولم يفكر الرجال في أن أبرهة قد ولاه على قوم لم يخضعوا لسلطانه ، فقد كان الرجل مبهورا بسيده لم يخطر له على قلب أن هناك على وجه الأرض من يعصى له أمرا أو تراوده فكرة عصيانه وشق عصا طاعته .

وبينا كان أبرهة في قصره بين ندمائه ورجال من أشراف اليمن والحبشة وأشراف القبائل التي تحالفت معه ، جاءه رسول يحمل إليه نبأ مقتل الرجل الذي اصطفاه ليكون حاكم تهامة ، فقد أبى القوم أن يسمعوا له ويخضعوا للذل الذي جاءهم به ، وقد نفسوا عن ثورتهم بسفك دمه .

وغضب أبرهة ومارت في جنباته ثورة عارمة لكرلمته التي أهدرت ، وكان لا بد من أن يشن حربا على العرب جميعا انتقاما لكبريائه التي جرحت ، ولتكن الحرب التي ما فتىء قياصرة الروم يلحون عليه أن يسنها نصرا لدينه وتخفيفا عن الدولة الرومانية الشرقية التي كانت تقاسى وحدها وطأة الحرب الدائرة بينها وبين فارس .

وراح أبرهة يدبر أمره ويرسم خطته فرأى أن العرب قبائل متناحرة متنافرة ما أيسر أن يخضعها بحد السيف لسلطانه ، لا يربط بينها إلا ذلك البيت العتيق الذي بمكة والذي يحجون إليه ويعظمونه والذي عجز عن أن يحول عنه حجاج العرب إلى كنيسته الفاخرة ، فإن هدم ذلك البيت فإنه سيمزق ( مولد الرسول )

الآصرة الوحيدة التى تربط بين أفئدة العرب جميعا ولن تصبح بين القبائل رابطة ، فعزم على أن يخرج ليذك ذلك البيت ليسهل له بسط سلطانه على العرب .

وعجب أبرهة فى نفسه من هؤلاء العرب عبدة الأوثان الذين أبوا أن يدخلوا دينه ولجوا فى العناد ، وعلى الرغم من أن أبرهة قد لبث فيهم سنين طويلة فإنه لم يفهم عقليتهم ، فالعرب تفخر بالأسرة الكبيرة التى يكثر عددها ، وترى فى ذلك عزة ومنعة ، فإن كانت النصرارى يدعونهم إلى إله ليس له إلا ولد واحد فإنهم يعبدون إلهها عظيما له بنات وبنون يقربونهم إليه زلفى ، وعندهم أن الإله الذى له أولاد كثيرون خير من إله ليس له إلا ولد واحد . « وقالوا اتخذ الله ولدا ، سبحانه ! بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون : بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » .

توج أبرهة محمد بن خزاعى وأمره على مضر وأمره أن يسير فى الناس يدعوهم إلى حج كنيسته التى بناها بصنعاء ، وأن يجبى له منهم الخراج وأن يلزمهم طاعته ، فسار محمد بن خزاعى حتى إذا نزل ببعض أرض بنى كنانة وقد بلغ أهل تهامة أمره وما جاء له ، بعثوا إليه رجلا من هذيل رماه بسهم فقتله ، فلما بلغه النبأ حلف ليغزون بنى كنانة ، ولكنه قد وطن العزم على هدم الكعبة وكان لا بد من سبب لتبرير ذلك الاعتداء .

كان أبرهة فى مجلسه ينظر إلى الباب كأنما كان ينتظر قدوم أحد ، وكان من عنده من العرب والأحباش يظهرون له الود والإكبار والإجلال يلتمسون فضله وإن هى إلا لحظات قصيرة حتى فتح الباب وأقبل راهب من الرهبان وفى وجهه فرع وقال :

— دنست كنيستك يا مولاي .

فقال أبرهة في دهش :

— كيف ؟

— قعد فيها رجل من العرب .

— من أى العرب ؟

— من أهل هذا البيت الذى تحج العرب إليه بمكة لما سمع من قول مولاه :

لست بمنته حتى أصرف إلى كنيستى حاج العرب .

وهب أبرهة غاضبا وأقسم بالله ومسيحه ليسيرن إلى البيت فيهدمه .

كان سببا واهيا ذلك السبب الذى قيل لتبرير شن الحرب على مكة وهدم

بيتها العتيق ، ولكنه كان سببا على أية حال ، فقد كان لا بد من سبب يثير

حماسة الجماهير لامتشاق الحسام لتحقيق أغراض السادة السياسية .

وبعث أبرهة إلى النجاشي ينبئة أنه قد عزم على غزو مكة وعلى تقويض

كعبتها ، وسأله أن يمدّه بالجنود والقبيلة ، فتدفقت الجنود على اليمن . وجاءت

القبيلة من الحبشة ، وراح أبرهة يعدّ العدة لحملة لم تر جزيرة العرب مثلها ،

ليتصل نصارى الحبشة واليمن بنصارى غسان والقسطنطينية ، ثم ينطلق حملة

الصليب نحو الشرق لقتال الفرس ونشر لواء المسيحية الخفاق على وجه

الأرض .

وراح أبرهة يحلم بأيام مجيدة كأيام الإسكندر الأكبر ، وسمع العرب بما

عزم عليه أبرهة فأعظموه وفضعوا به ، ورأوا جهاده حقا عليهم فراحت كل

قبيلة في طريق البيت العتيق تتأهب للدفاع عن بيت الله الحرام أو الهلاك دونه ،

ولم يفكر أحد منهم في أن يجمع كلمة العرب ليقفوا في وجه الطاغية صفا

واحدا ، « والله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما » .

وراح الحادى يغنى بصوت يموج بالشجن يصور حنينه إلى الوطن وإلى البيت العتيق وإلى الحجون وإلى الصفا وإلى ما فى مكة من أحبة وصحاب ، فإذا بإحساسات ناعمة تتدسس إلى أفئدة الفتيان ، وإذا بالركبان يشاركون الحادى فى الغناء ، وإذا بالدموع تطفر إلى عيني عبد الله فقد لاحت له آمنة تملأ الفضاء بين الأرض والسماء يشع من جبينها ذلك النور الذى يملأ جوانحه حبا ورحمة وأمنا .

إنه مذودع آمنة يحس كأنما خلف قلبه هناك ، فلم ينش طيفها عنه آناء الليل وأطراف النهار . إنها فى خياله وفى وجدانه وفى سويداء الفؤاد ، إنها أمامه وعن يمينه وعن شماله وحيثما يقرب وجهه يمس حديثها العذب أذنيه مسا رقيقا يحيى فيه أجمل الذكريات . وإن صوتها وهى تحدثه عن الرؤيا التى رأتها والتى سمعت فيها هاتفا يهتف بها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، يسرى فى ضميره كموسيقى حاملة ناعمة تدغدغ حواسه ، أو كصوت ملائكة آت من السماء بالبشرى يحمله على أجنحة السعادة إلى عوالم من الفرح والبهجة ، تبدو له من فرط نشوته أنها ليست من هذه الأرض .

وراح يحاول أن يميظ اللثام عن الغيب وأن يرسم صورة بخياله لابنه الحبيب الذى بشرت به آمنة ، إلا أن كل أحلامه قد قصرت على أن تسمو إلى ما ينتظر ابنه من مجد ، فقد كانت أمانيه أرضية عجزت عن أن ترتفع بابنه إلى السماء وإلى ما فوق السماء ، لتربط بينه وبين رب الكوب الأسباب .

ومد رجل من رجال القافلة أنفه وزفر زفرة طويلة ثم قال :  
— أشم ريح غزة .

ومس الصوت أذنى عبد الله فإذا بصوت حنون ينبعث من أغواره يقول في  
وجد :

— أشم ريح مكة .

وعاد يعيش بوجدانه في مكة ويطوف بالكعبة ويلقى نظرات حب على  
مجلس عبد المطلب في ظل البيت ، ويهرع إلى داره الحبيبة يناجى آمنة ،  
ويبتسم لجارته الحبشية ويوصيها بسيدتها خيرا ، فإنها قد حملت بسيد هذه  
الأمة . وتدور محاورات طويلة مفعمة بالنشوة بينه وبين الصحاب وإن كان  
يطوى مع غير قريش أرض الله .

وهبت ريح النسيم وبدأت السحب في رقعة السماء كأنها قطع من بقر  
الوحش ، فراح الزجال يحثون الإبل على الإسراع لتجد القافلة لها عاصما من  
المطر في غزة ، فإن هي إلا سويعات وينهر الغيث . ومرت ساعة وراحت  
السحب تمر كأنها بغال دهم تجر جلالها ، وصار لا هم لرجال القافلة إلا مراقبة  
السماء بينا كان عبد الله غائبا عن الوجود بالرؤى العذاب التي تترادف على  
رأسه فتولد في نفسه آمالا مشرقة عريضة تعزف على قيثارة فؤاده أرق  
الألحان .

وطافت به نبوءة سودة عمه وهب ، كاهنة قريش ، فقد تنبأت لآمنة بأنها  
النديرة أو تلد نذيرا . وقد جاءت رؤيا آمنة وذلك الهاتف الذى هتف بها بأنها  
ستلد سيد هذه الأمة مؤكدة نبوءة كاهنة قريش . ستلد آمنة ذلك النذير الذى  
كانت نساء مكة كلها يتمنين أن يخرج من بطونهم . وتهلل عبد الله بالفرح  
فسيكون لابنه شأن عظيم وإن كان لا يدري ما النذير ، فقد كان من قوم لم

يبعث الله فيهم من قبل نذيرا ولا رسولا  
ودنت السحب من الأرض وتدلّت فبدت كأنما بين أعلاها وأسفلها  
أثواب هينة رقيقة منشرة ، أو ضوء مصباح خافت يكاد أن يلفظ أنفاسه ، ثم  
أسدل عل وجه السماء نقاب من سحب داكنة فارتفع صوت الحادى بالحذاء  
يحث الإبل على الإسراع فقد لاحت أرباض غزة .

وبرق البرق ثم هزم الرعد وسرعان ما هطلت الأمطار ، فاضطرب قطار  
القافلة لحظات ، فقد خف الرجال لتغطية ما يخشى عليه من البلل ، وهرع  
الكاهن ليطمئن إلى أن إلهه فى مأمن من الماء النازل من السماء ، ثم استقامت  
العر وانطلقت تغذ السير فى دروب غزة .

وجفت دموع السحب وأطلت زرقة صافية من بين الغمام وما لبثت أن  
انداحت حتى استولت على رقعة السماء ، وبدت الأرض على جانبي القافلة  
كأنما كسيت ببساط من سندس أخضر وشى باليواقيت والزبرجد والمرجان ،  
وبلغت القافلة السوق فحطت رحالها وراح الرجال يلتقطون أنفاسهم .

وتمدد عبد الله فى خيمته وقد أطلق لخياله العنان ، فراح الفتى يجتر ذكرياته  
وهو سعيد ، فقد كانت السنوات القليلة التى مرت على عمره مفعمة بأحداث  
جسام وبتجارب قد لا يمر بها من بلغ من العمر عتيا ، فمن من سادات قومه  
أخذه أبوه ليذبحه قربانا لإلهه ففداه الإله بمائة من الإبل ، ومن من زوجات  
أشراف قريش بشرت بأنها قد حملت بسيد أمتة ؟ إنه سعيد بحياته راض كل  
الرضا عن دنياه .

وتذكر جده هاشم بن عبد مناف أول من ثرد الثريد وهشمه فى الجذب .  
وأول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى  
الشام .

وقد صارت إليه الرفادة والسقاية وساد قومه ولما يبلغ الخامسة والعشرين . إن هاشما قد امتاز بصفات فاضلة لم يطاوله بها أحد من قومه . ترى أتمد به الأيام ليبلغ ما بلغه هاشم من مجد ؟ أيكون ابنه الذى بشرت به آمنة صنو هاشم ؟ وطافت به فكرة أن ينطلق لزيارة قبر هاشم فقام قبل أن يأخذ نصيبه من الراحة واتخذ طريقه إلى القبر وهو يتمثل مطرود بن كعب الخزاعي :

وهـاشم فى ضريح وسط بلقعة

تسفى الرياح عليه بين غزات

وبلغ قبر هاشم فوقف الحفيد مطرقا خاشعا أمام قبر جده الذى ربط بزواجه من سلمى الخزرجية بين مكة ويثرب . والذى جعل لهم بذلك الرباط المقدس أخوالا من بنى النجار ، فهو الجسر الذى شد وثاق مكة بالمدينة ، والذى خلق لبنى هاشم عصبية من أهم محاط فى طريق قوافلهم .

وشرد خياله فتذكر المطلب الذى هلك بردمان فى أرض اليمن ، ونوفلا الذى فاضت روحه بسلمان من ناحية العراق ، وطاف به سؤال : ما حكمة موت سادات قريش غرباء فى أرض العرب بين قبورهم مفاوز وصحراوات ، أتكون قبورهم معالم على طريق قوافل قريش ؟ أتكون رابطة بين مكة والعراق واليمن والشام تجعل الأفئدة تهفو إلى تلك البلاد ما دامت الرابطة السياسية بين تلك الدول قد انفصمت وحلت بينها العداوات ؟ ولم يهتد الفتى اليافع إلى شيء فدار على عقبه وهو يفكر فى الموت ، ويعجب من القائلين إن هى إلا حياتنا الدنيا ، فإن كان ما يقولون حقا فما أتعفها من حياة ، أيعيش المرء سنين قصرت أم طالت ثم يموت كما يموت البعير ثم لا شيء ؟ لو كان الأمر كذلك لكان الخلق باطلا . إنه يؤمن بما وصل إليه أبوه بأن وراء هذه الحياة حياة

أخرى يحاسب الإنسان فيها على ما قدمت يداه إن خيرا فخير وإن شرا فشر .  
ومرت أيام السوق مفعمة بالعمل والبهجة ، فقد باع رجال قريش كل ما  
معهم من سلع وحققوا أرباحا أثلجت صدورهم ، وأقبلوا على الشراء بعد  
البيع فكانت الخمور أكثر ما اشتروه فمتروهم مكة وساداتها يدفعون في خمور  
الشام كل ما يطلب منهم من ثمن .

وتقضت أيام غزة ولياليها النابضة بالحياة ، فقد كان السمر يمتد حتى مطلع  
الفجر ؛ رجال قريش يتبارون في شعر الفحول من شعراء العرب ، والمتأدبون  
من أهل غزة يهرعون إلى ذلك النادى يلقون سمعهم إلى الرواة منتشية أرواحهم  
مفعمة بالفرح أفئدتهم ، وكان بعض رجال غزة يقصون أنباء الغساسنة  
ويروون أنباء الحروب التي لا تنقطع بين الغرب والشرق ، بين الإمبراطورية  
الرومانية الشرقية وإمبراطورية فارس الساسانية .

وتجهزت غير قريش للعودة فاستوى الرجال على ظهور إبلهم ، وأذن  
بالرحيل فانطلقت القافلة وقد استقبلت مكة ، وراح الرجال يكثرون من  
التلفت فقد كانوا يعتقدون أن كثرة التلفت توجب العودة وكانوا جميعا يتمنون  
الأوبة ليسعدوا بالخضرة والماء والوجه الحسن ، فقد كان في كل سوق من  
أسواق الأرض منازل للبغايا صاحبات الرايات الحمر .

وراح عبد الله يفكر في يثرب وفي أخواله من بنى النجار ، فأبوه قد أرسله  
مع القافلة ليمتار تمرا ويزور أخواله ، فعبد المطلب يحب أن تظل الأسباب  
متصلة بين بنى هاشم والخزرج في المدينة . فشيخ قريش لا ينسى ذلك اليوم  
الذى أراد فيه عمه نوفل أن يسلبه حقه فوجد من ينصره من أخواله على عمه ،  
وقد عرف ما كان من نصرة رزاح بن ربيعة لأخيه قصى يوم أن جاءه في حج  
قضاة وثبت سلطانه على مكة ، فكان عبد المطلب حريصا على أن تظل

الوسائل طيبة بينه وبين بنى النجار ، فقد يفرع إليهم يوما بعض ولده يلتمس منهم النصرة والتأييد .

وسرت القافلة في الكون العريض ، وانصرمت ليالى وأيام وأحس عبد الله وهنا يدب في جسمه فلم يحفل به كثيرا ، فقد كان يحسب أن التعب دب في أوصاله وأن ذلك الإرهاق لن يلبث أن يزول إذا أعطى حقه من الراحة . ودخل خيمته ، وما إن أسلم جنبه للرقاد حتى راح في سبات عميق وغط في نومه وانبتق منه العرق وذبل لونه ، حتى إن الذى دلف إلى خيمته ليوقظه وقف ينظر في وجهه الأصفر خافق القلب وقد نزل ب صدره شيء من الخوف والقلق .

وتقدم الرجل وهتف في صوت خافت :

— عبد الله .. عبد الله .

وظل عبد الله في نومه يلتقط أنفاسا مضطربة في جهد شديد ، فمد الرجل يده وراح يهزه وهو يناديه :

— عبد الله .. عبد الله .

وفتح الفتى عينين واهنتين عجز عن أن تظلا مفتوحتين ، فسحب عليهما جفنيه ، وأطرق برأسه على صدره وزفر زفرة طويلة في صوت مسموع ، فقال له الرجل :

— ما بك يا عبد الله ؟

وأراد عبد الله أن ينهض ولكنه عجز عن النهوض فقال في صوت خافت :

— إني سقيم .

وامتلأت خيمة عبد الله برجال القافلة ، فابن شيخ قریش وأحب ولده إلى قلبه مريض ، وأعطاه كاهن القافلة وطيبها بعض العقاقير ، ثم حمل عبد الله

ووضع في هودج على ظهر بعير ، ورجال قريش يرجون أن تزول عنه الوعكة التي ألت به قبل أن يبلغوا المدينة .

وانسابت القافلة في دروب المدينة تمشي وهنا ، وارتفعت أصوات الترحيب من المدنيين .

— غير قريش .. غير قريش ، مرحبا بعير قريش .

ولم تهلل الوجوه بالفرح بل كان العبوس على كل الوجوه ، فعبد الله لا يزال مريضا وإن أمره يسوء يوما عن يوم ، وقد حار فيه كاهن القافلة وطبيبها .

وحطت القافلة رحالها في السوق ، وفي نفس الوقت كان سادات قريش ممن كانوا في العير آخذين بخطام الناقة التي عليها هودج عبد الله المريض منطلقين إلى دور أخواله من بني النجار ، وسار الركب الصغير يغمره الأسى في طرقات المدينة ، ومر بالدار التي بناها تبع اليمن تبان أسعد للنبي المنتظر يوم أن جاء ليهدم يثرب ومنعه أحبار اليهود عن ذلك قائلين ، إنها مهاجر رسول من بني إسماعيل ، ولم يحس الركب خطر تلك الدار فقد كانت دار تريد أن تنقض ، وكان الغيب وحده يعلم ما بين المريض الذي في الهودج وبين تلك الدار من وشائج وأواصر وأسباب .

. ووقف الهودج أمام دور بني النجار ، وما إن بلغ مسامعهم أن عبد الله مريض حتى خفوا إليه مهطعين وحملوه في رفق ، وقبل أن يغيبوا به في الدار جاهد عبد الله وفتح عينيه وقال لرجال قريش في صوت ضعيف :

— لا تنسوا أن تشتروا التمر الذي طلب منا عبد المطلب أن نشتريه .

ثم أغمض عينيه ولاح في وجهه شيء من الراحة ، فقد اطمأن إلى أن قافلة قريش ستعود وهي تحمل ما طلبه أبوه .

وانصرف الرجال يتهلون إلى آلهتهم أن يشفى ابن عبد المطلب ليعود معهم . فقد أصبحوا يفزعون من مجرد فكرة عودة القافلة إلى مكة دون أن يكون فيها فتى قريش الذبيح .

وراح رجال قريش يمضون وقتهم في السوق وفي عبادة الله وقد أعرضوا عن مباهج يثرب ولهوها ، باتت نفوسهم قلقة لما أيقنوا أن أوبة عبد الله معهم لم تعد أمرا ميسورا ، فقد اشتدت عليه وطأة المرض وخشوا أن يهلك منهم في الطريق .

وجاء يوم الرحيل فذهب الرجال إلى حيث رقد عبد الله وراح الرجال وبنو النجار يتناجون ، كان بعض الرجال يرى أن يحمل معه عبد الله ، فدخول القافلة مكة وعبد الله معها مريض أهون على أهل مكة من عودة القافلة دون أن يكون فتاها بين العائدين . ولكن أخوال عبد الله من بنى النجار أبوا أن يغادر عبد الله فراشه قبل أن يبل من مرضه ، وانتصر الرأي القائل ببقاء عبد الله عند أخواله ، فألقى الرجال على عبد الله نظرة طويلة ثم داروا على أعقابهم منكسى الرءوس ، تخفق أفئدتهم خوفا ورهبة كلما تذكروا دخولهم مكة دون أن يكون فيهم فتى مكة وابن سيدها الحبيب ..

نشر الليل رداءه الأسود على مكة ، وغابت نجوم السماء وهجع الكون  
وراح في سبات ولكن النسوة في أغلب دور المدينة المقدسة لم تعرف عيونهم  
النوم ، فقد حان أوان عودة قافلة قريش من الشام ، ودنت ساعة تلاقى الأحبة  
بعد طول الفراق .

واختلجت عين امرأة منهن فأشرق وجهها بالابتسام ، ورأت أخرى تهلل  
أسارير صاحبها فقالت لها :

— في وجهك حلم شهى .

— اختلجت عيني . سأرى من أحب عن قريب ،

فقالت لها صاحبها :

إذا اختلجت عيني تيقنت أنني أراك وإن كان المزار بعيد

وفي دار أخرى أخذت زوجة ترابا من موضع قدم زوجها وموضع رحله ،  
فقد لقنت منذ نعومة أظفارها أن ذلك أسرع لرجوعه ، وراحت تقول وهي  
تغدو وتروح في غرفتها متلهفة على عودة رجلها :

أخذت ترابا من مواطئ رحله غداة غد كيما يؤوب مسلما

وراخت الفتيات المتلهفات على الزواج ينشرن جانبا من شعورهن  
ويكحلن عيونهن ويحجلن على إحدى أرجلهن في جنح الليل وهن يقلن :

— يا لكاح ! أبغى النكاح ، قبل الصباح .

وبالقرب من النافذة راحت آمنة ترقب الطريق خافقة القلب وعلى مقربة منها جلست جارية عبد الله الحبشية تتحدث وآمنة غائبة عنها ، فقد سبقها خيالها إلى لقاء الحبيب . رأت بعين الشوق قافلة قريش تحط رحالها خارج أول بيت وضع للناس ورأت عبد الله ينزل عن راحلته يتألق وجهه بالنور ويشرق بالابتسام ثم ينطلق كالقمر يحف به رجال قريش كالنجوم إلى الحرم ، يطوف به سبعا . وسرعان ما رأيته يعدو في دروب مكة ، وخيل لها وهمها ولهفتها على أن تلقى عبد الله أنها تسمع طرقاته على الباب ، وراحت تجرى وراء أحلامها المجنحة التي تملؤها نشوة وانشراحا ، فرأت نفسها تستقبل زوجها العائد الذي تركها وهي لا تزال في ثياب العرس في وجد وهيام ، وراحت تحدث طيفه وقد تهلل بالفرح وتروى له أعذب الأحاديث عن ذلك الذي حملت به ولم تحس ما سمعت عنه من نساء بنى زهرة من ثقل الحمل وآلامه .

واستراحت للأحداث البهيجة التي كان خيالها يمدّها بها فأطلقت العنان لأفكارها ، وراحت تقول لطيف عبد الله وقد رفت بسمه حاملة على شفتيها : إن هالة قد حملت من أبيك وقد عزم عبد المطلب أن يسمي ابنه حمزة إن جاء ولدا ، بينا لم نفكر بعد في اسم لوليدنا ، أنسميه قصيا أم هاشما أم عبد المطلب ؟ إني أعلم يا عبد الله أنك تحب أبا طالب وأن أبا طالب يحبك ، أنسميه أبا طالب ؟

وملأت النشوة فؤاد آمنة فشرّد خيالها ، وطالت وقفها عند الشباك حتى خدرت رجلها فالتفتت إلى جارية عبد الله وقالت :

— خدرت رجلى .

فقالت الجارية التي كانت تتحدث غير ملتفتة إلى شرود سيدتها .





























































قال كسرى :

— يا حاجب ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها .

قال حاجب :

— بل زئير الأسد بصولتها .

قال كسرى :

— وذلك .

ثم قام الحارث بن عمار البكرى فقال :

— دامت المملكة باستكمال جزيل حظها ، وعلو سنائها . من طال  
رشاؤه ( حبله ) كثر منحه ( استقصاؤه ) ، ومن ذهب ماله قل منحه .  
تناقل الأقاويل يعرف اللب ، وهذا مقام سيوجف ( يضطرب ) بما تنطق به  
الركب ، وتعرف به كنه حالنا العجم والعرب . ونحن جيرانك الأدنون ،  
وأعوانك المعينون ، خيولنا جمة ، وجيوشنا فخمة . إن استنجدتنا فغير ريش  
( غير مقصرين ) ، وإن استطرقتنا فغير جُهض . ( غير مانعين ) ، وإن  
طلبتنا فغير غمض . لا نشئ لذعر ، ولا نتنكر لدهر . رماحنا طوال ،  
وأعمارنا قصار .

قال كسرى :

— لو قصر عمرك لم تستول على لسانك نفسك .

قال الحارث :

— أيها الملك إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مغررا بنفسه على  
الموت ، فهي منية استقبلها ، وجنان استدبرها . والعرب تعلم أنى أبعث  
العرب قدما وأحبسها وهي تصرف بها ، حتى إذا جاشت نارها ، وسعرت  
لظاها ، وكشفت عن ساقها ، جعلت مقادها رمحي ، وبرقها سيفي ،





أيها الملك ، من يبل العرب يعرف فضلهم ، فاصطنع العرب فإنهم الجبال  
الرواسى عزا ، والبحور الزواجر طميا ، والنجوم الزواهر شرفا ، والحصى  
عددا ، فإن تعرف لهم فضلهم يعزوك ، وإن تستصرخهم لا يخذلوك .  
قال كسرى وخشى أن يأتى منه كلام يحمله على السخط عليه :  
— حسبك ، أبلغت وأحسن .

ثم قام قيس بن مسعود الشيباني فقال :  
— أطاب الله بك المرشد ، وجنبك المصائب ، ووقاك مكروه النصائب  
( الشدائد ) . ما أحقنا إذا أتيناك بإسماعك ما لا يحق صدرك ، ولا يزرع  
حقدا فى قلبك . لم نقدم أيها الملك لمساماة ، ولم نتسب لمعاداة ، ولكن لتعلم  
أنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم أنا فى المنطق غير محجمين ، وفى  
الناس غير مقصرين . إن جورينا فغير مسبوقين ، وإن سومينا فغير مغلوبين .  
وتذكر كسرى أن قيس ترك الوفاء بضمائه السواد ، فقال :  
— غير أنكم إذا عاهدتم فغير وافين .

قال قيس :  
— أيها الملك ما كنت فى ذاك إلا كواف غدر به ، أو كخافر أخفر بدمته .  
— ما يكون لضعيف ضمان ، ولا لدليل خفارة .  
— أيها الملك ما أنا فيما أخفر من ذمتى ، أحق بإلزامى العار منك فيما قتل  
من رعيتك ، وانتك من حرمتك .  
— ذلك من ائتمن الخانة واستجد الأثمة ، ناله من الخطأ ما نالنى . وليس  
كل الناس سواء . كيف رأيت حاجب بن زرارة لم يحكم قواه فيرم ، ويعهد  
فيوفى ، ويعد فينجز .  
— وما أحقه بذلك وما رأيتته إلا لى .





يجمعكم فتنتقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة ، فنطقتم بما استولى على ألسنتكم ، وغلب على طباعكم ، لم أجز لكم كثيرا مما تكلمتم به ، وإني أكره أن أحبه وفودي أو أضيق صدورهم ، والذي أحب من إصلاح مدبركم ، وتآلف شواذكم ، والإعذار إلى الله فيما بينى وبينكم . وقد قبلت فيما كان من منطقكم من صواب ، وصفححت عما كان فيه من خلل ، فانصرفوا إلى ملككم فأحسنوا مؤازرته ، والتزموا طاعته ، وادعوا سفهاءكم وأقيموا أودكم ، وأحسنوا أدبكم ، فإن فى ذلك صلاح العامة .

كان كسرى يتكلم فى ثقة وغرور ، ولو اخترقت أبصاره حجب الغيب لرأى مولد النبى الذى لمح إليه ابن الطفيل فى دار من دور مكة ، ولرأى هؤلاء العرب الذين كان يعيرهم بأن ليس لهم ملك يجمعهم ولا أدب يثقف اعوجاجهم ، وقد جمعهم ذلك النبى ودفعهم الدين الذى جاءهم به إلى غزو فارس وانتزاع سرير الملك من أحفاده ، حتى تتحقق نبوءة ساسان ووصية زرادشت ، ولو تفرس فى الغيب طويلا لرأى عمرو بن معد يكرب ذلك الشاب الذى قال فأوجز يجد فى أثر فلول جيوش الفرس حتى المدائن : « وأورثناها قوما آخرين » .

راح جيش أبرهة يتقهقر وقد حملت فلول الجيش ملكهم الذى هذه  
المرض، وكانت أنامله تسقط أثملة أثملة حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر،  
انصدع صدره عن قلبه وزهقت روحه ليملك على اليمن من بعده ابنه يكسوم.  
أبى الله أن ينصر أبرهة حتى لا يجرى السبى على رسوله حملا ووليدا، فلو  
ظفر أبرهة بمكة لهدم البيت وقتل الرجال وسبى النساء، ولساق آمنة بنت  
وهب إلى صنعاء فيمن سيسوق من النساء، أو بعث بها إلى سوق من أسواق  
الرقيق لتباع بضاعة هى وذلك الذى حملته وبشرت به يوم أن حملته بأنها قد  
حملت بسيد هذه الأمة، ولكن لمحمد بن عبد الله ربا منعه من الرق ليؤدى ما  
أعد له من رسالة.

وسار يكسوم فى اليمن سيرا سيئا. كان فظا غليظ القلب يهوى سفك  
الدماء ويرتاح للظلم الذى يوقعه برعيته، فقد ضاق اليمنيون بحكمه حتى  
إن موته لم يخفف عنهم، فقد كرهوا أن يظلوا تحت حكم الأحباش تسلب  
منهم خيراتهم ويرسل بها إلى الحبشة.

وتولى مسروق بن أبرهة من زوجته العربية الحكم بعد موت أخيه، وكان  
يحسب أن اليمنيين سيفرحون بتوليهِ الملك فأمه منهم وهو يتكلم العربية  
بلسانهم، ونسى مسروق أن اليمنيين لم ينسوا أن أباه قد اغتصب أمه من  
زوجها العربى، فهو ابن الغصب والمقت وثمره القهر والخسة والدناءة.  
وضاق سيف بن ذى يزن بالذل الذى يعيش فيه الحميريون فعزم على أن

يخلص بلاده من حكم الأحباش ، ولكن أين القوة التي يقودها لحرب مسروق وجنوده وإرغامهم على الجلاء عن البلاد ، وفكر ابن ذى يزن ودبر فلم يجد إلا أن يلجأ إلى قيصر الروم يلتمس منه أن يمدّه بالجنود لطرد الأحباش من أرض حمير .

وراح سيف بن ذى يزن يطوى الأرض قاصدا القسطنطينية وهو يفكر فى إمبراطور الروم . إنه ليس أول عربى يفزع إلى البلاط الإمبراطورى ، فملوك الغساسنة عرفوا ذلك الطريق ، وإن امرأ القيس قد ذهب إلى يوسطنيانوس ونادمه ، وتوطدت الصداقة بينه وبين قيصر حتى إنه كان يدخل معه الحمام ، ولولا الوشاية التى مشى بها الوشاة بين امرئ القيس ويوسطنيانوس لكان امرؤ القيس قد عاد إلى عرش آبائه .

ولم يخطر على قلب سيف بن ذى يزن أن حملة أبرهة كانت بتدبير القسطنطينية ، وأنها هى التى وضعت خططها وباركتها ليتصل نصارى الجنوب بنصارى الشمال لتحقيق أغراض القسطنطينية السياسية .

وبلغ ابن ذى يزن البلاط البيزنطى وطلب المثل بين يدي قيصر ليت فى أمور الدولة وحده .

وراح سيف بن ذى يزن يشكو إلى قيصر ملك الروم ما هم فيه من ذل واضطهاد ، وسأله أن يبعث معه الجيوش لطرد الأحباش ، ويلى اليمن الإمبراطور العظيم ويبعث إليهم من يشاء من الروم فيكون له ملك اليمن .

ولم يلق قيصر إليه سمعه فقد كان فى ضيق لإخفاق حملة أبرهة ، وكان فى دهشة من أن القدر كان فى خدمة وثنيين يعبدون الحجارة وقد نصرهم على جيش يؤمن بالله ومسيحه ويحمل الصليب !

وكانت صوفيا تصغى إلى الترجمان وهى ضيقة الصدر بالعرب ، فانكسار

أبرهة قد قلب كل خططهم رأسا على عقب وغير تاريخ المنطقة ، فقد كانت صوفيا واثقة من النصر وكانت على يقين من أن علم النصرانية سيخفق على جبال مكة وعلى واحات العرب في طول الجزيرة العربية وعرضها .

ولم يستطع قيصر ولا صوفيا أن يكتما ما يعتمل في صدريهما من ضيق ، فقالا لسيف بن ذى يزن إن بلاده بعيدة ولا رغبة لهما في المنطقة !

وخرج سيف بن ذى يزن من البلاط البيزنطى وهو آسف حزين، وراح يفكر ويدبر فهداه تفكيره إلى أن يهرع إلى كسرى أنوشروان في المدائن يسأله أن يبعث معه الجيوش ليطرد الأحباش أولياء الروم من أرض حمير، وكان يأمل أن يستجيب كسرى لندائه فالأحباش حلفاء الروم أعداؤه وأعداء دينه، وإن حاول كسرى أن يبدو على الدوام متسامحا .

وخرج سيف بن ذى يزن حتى أتى النعمان بن المنذر في قصر الخورنق . فشكا إليه أمر الحبشة فقال له النعمان :

— إن لى على كسرى وفادة في كل عام ، فأقم حتى يكون ذلك .

وحان أوان انطلاق النعمان إلى المدائن فذهب سيف بن ذى يزن معه فأدخله على كسرى . وكان كسرى يجلس في إيوان مجلسه الذى فيه تاجه ، وكان تاجه مثل المكيال العظيم يُضرب فيه الياقوت واللؤلؤ والزبرجد والذهب والفضة ، معلقا بسلسلة من ذهب في رأس طاقة في مجلسه ذلك ، وكانت عنقه لا تحمل تاجا وإنما يستر بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك ، ثم يدخل رأسه في تاجه فإذا استوى في مجلسه كشفت عنه الثياب ، فأحس سيف هية له . دخل سيف من باب عام مطأطئ الرأس ، فقال كسرى :

— إن هذا الأحق يدخل على من هذا الباب الطويل ثم يطأطئ رأسه .  
فقال ذلك لسيف فقال :

— إنما فعلت ذلك لهْمِّي لأنه يضيق عنه كل شيء .

وسمح كسرى لابن ذى يزن بالكلام ، فقال :

— أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأحباش ، فجئتك لتنصرنى و يكون ملك

بلادى لك .

سمع كسرى أنو شروان ولا ريب بتحرك جيوش أبرهة لتستولى على جزيرة العرب وليتصل نصارى الحبشة بنصارى غسان والروم ، وفطن إلى أن تلك الحركة لم يكن مقصودا بها غيره ، وبلغته أنباء إخفاق حملة الفيل فلم يعد يخشى وقوع الحجاز فى قبضة الأحباش ، ولم تعد هناك ضرورة للمغامرة فقال :

— بعدت بلادك مع قلة خيرها فلم أكن لأورط جيشا من فارس بأرض العرب ، لا حاجة لى بذلك .

ثم أجازة بعشرة آلاف درهم واف وكساه كسوة حسنة ، فلما قبض ذلك منه سيف خرج وجعل ينثر ذلك الورق للناس ، فبلغ ذلك الملك فقال :

— إن لهذا لشأنا .

ثم بعث إليه فقال :

— عمدت إلى حياء الملك تنثره للناس .

فقال سيف :

— ما جبال أَرْضِي التى جئت منها إلا ذهباً وفضة .

كان كسرى على علم باليمن كما كان الروم على علم بها ، فجواسيس الفرس والروم يذرعونها طولا وعرضا ، وهى ميدان من الميادين الهامة التى يتصارع فيها النساطرة واليعاقبة أصحاب مذهب وحدة المسيح وأصحاب مذهب ناسوت المسيح ولاهوته ، نصارى الشرق

ونصارى الغرب ، النصارى الذين تؤيدهم فارس نكاية في عدوها والنجارى الذين يعتنقون مذهب الإمبراطورية الرومانية ، فلم يتحرك طمع كسرى لما سمع أن جبال اليمن من ذهب وفضة ، بل رأى أن يناوئ الروم في اليمن وأن يقلق مضاجعهم وأن ينزل بهم الهزيمة بطرد حلفائهم من الأرض العربية كما أنزل بهم الهزيمة في كل مكان .

جمع كسرى مرابته فقال لهم :

— ماذا ترون في أمر هذا الرجل وما جاء له ؟

فقال قائل :

— أيها الملك إن في سجونك رجلا قد حبستهم للقتل ، فلو أنك بعثتهم معه فإن يهلكوا كان ذلك الذى أردت بهم ، وإن ظفروا ملكا ازددته .

فبعث معه كسرى من كان في سجونهم وكانوا ثمانمائة رجل ، واستعمل عليهم رجلا منهم يقال له وهرز وكان ذا سن فيهم وأفضلهم حسبا وبيتا ، فخرجوا في ثمان سفائن قاصدين عدن ، ففرقت سفينتان ووصل إلى عدن ست سفائن ، فراح سيف يجمع من استطاع من قومه ، ثم عاد إلى وهرز بليوت أبوا أن يعيشوا في اليمن في ذل وعزموا على أن يحرروا بلادهم من الأحباش الذين جاءوا باسم نصرته إخوانهم في الدين ، ثم أناخوا على البلاد يمتصون دماءها . وقال سيف لوهرز :

— رجلى مع رجلك حتى نموت جميعا أو نظفر جميعا .

— أنصفت .

وسمع مسروق بن أبرهة بنزول جنود الفرس بعدن ، فجهز جيشا ثم انطلق ليدافع عن عرشه الذى تألب عليه سيف بن ذى يزن واستعان بجيوش فارسية جاءت لنصرته ، لا تأييدا لقضيته بل بسطا لنفوذ فارس على المنطقة .

ودعا وهرز ابنه نوزاد وأمره أن يخرج لقتال مسروق والذين معه ، ولم يخرج وهرز ولا سيف مع الخارجين فقد أراد الشيخ أن يختبر قتالهم قبل أن يضع خططه للقضاء على مسروق وجنوده .

وانطلق نوزاد ومن انتدبهم أبوه معه لقتال الأحباش على أرض اليمن ، فالتقى مسروق وهو على رأس فيله بطلائع الجيش الغريب الذي جاء يتلمس طريقه ، وبدأت المعركة بالتراشق بالسهم ، ثم مشى الرجال إلى الرجال يهزون الرماح ثم يطلقونها إلى الأهداف البشرية التي كانت تنهاوى كأوراق الشجر في فصل الخريف ، وغطت الجثث الأرض ، ثم راح فيل مسروق يوقع الاضطراب في صفوف العرب والفرس ، ثم صاح صائح :

— إن نوزاد بن وهرز قد قتل . . .

وبلغ وهرز مقتل ابنه فزاده ذلك حنقا على الأحباش ، فلم تعد المعركة معركة الأحباش مع اليمن توطيدا لسلطان كسرى ومدا لنفوذه بل أمست انتقاما لابنه الذي قتل بسيوف الأحباش على أرض العرب .

وخرج وهرز وسيف بن ذى يزن في جموع الفرس والعرب وانطلقوا حتى تواقف الناس على مصافهم ، وعزم وهرز على أن يقتل ملك اليمن فلن يشفى غليله قتل جيش مسروق كله إذا ما فر مسروق من يده .

وقال وهرز لمن حوله :

— أروني ملكهم .

— أترى رجلا على الفيل عاقدا تاجه على رأسه بين عينيه يا قوته حمراء ؟

— نعم .

— ذاك ملكهم .

— اتركوه .

فوقفوا طويلا. يتراشقون بالسهم ، ثم التفت وهرز إلى من حوله وقال  
يسأل عن مسروق :

— علام هو ؟

— قد تحول على الفرس .

— اتركوه .

واستمر تراشق السهام طويلا والسهم تطيش أو تستقر في الأفئدة  
والصدور والنحور ، والجثث تنهاوى وأنات الجرحى تتردد في جنبات المعركة  
وقد صم عنها المقاتلون آذانهم ، فقد كان كل منهم مشغولا بنفسه عن كل ما  
حوله ، ذاهلا عن الوجود بالمشاعر الثائرة التي تبستولى على وجدانه .  
والتفت وهرز إلى من حوله وقال :

— علام هو ؟

— قد تحول على البغلة .

— بنت الحمار ! ذل وذل ملكه ، إني سأرميه ، فإن رأيتم أصحابه لم  
يتحركوا . فاثبتوا حتى آذنكم فإنى قد أخطأت الرجل . وإن رأيتم القوم قد  
استداروا واجتمعوا حوله فقد أصبت الرجل ، فاحملوا عليهم .

ثم وتر قوسه ثم رماه فصك الياقوتة التي بين عينيه ، فتغلغلت النشابة في  
رأسه حتى خرجت من قفاه ونكس عن دابته ، واستدارت الحبشة والتفت  
حوله ، وارتفعت أصوات التهليل من الجيش العربى الفارسى فقد أصاب وهرز  
مسروق إصابة قاتلة .

ودب الذعر في صفوف الحبشة فقد قتل قائدهم وملكهم فدب اليأس في  
قلوبهم ، وقبل أن يفيقوا من هول الصدمة حمل العرب والفرس عليهم حملة  
رجل واحد ، وأعملوا السيوف في رقابهم ، فسقط من سقط قتيلًا وفر من فر

لا يلوى على شيء ، وكتبت الهزيمة على الأحباش وراحت جيوش الفرس وسيف بن ذى يزن تتقدم إلى صنعاء مزهوة بنصرها .

وشرد ذهن سيف وهو فى طريقه إلى العاصمة ، لم يفكر فى قصر مسروق الذى سيصبح مقر ملكه بل عاد به القهقرى إلى ذلك اليوم الذى خرج فيه أبوه ذو يزن إلى كسرى ووقف ببابه يسأله النصرة . وقد أوى كسرى أن يستجيب له حتى مات ذو يزن ببابه . ليت روح أبيه ترفرف عليه الساعة لترى أن أمله قد تحقق .  
ورن فى أذنيه الحديث الذى دار بينه وبين كسرى :

— أيها الملك إن لى عندك ميراثا .

أنا ابن الشيخ اليماني ذى يزن الذى وعدته أن تنصره فمات ببابك ، وحضرتك فتلك العدة حق لى وميراث يجب عليك الخروج لى منه .  
ورأى كسرى يأمر له بمال ، ثم أفاق من شروده ووقعت عيناه على باب صنعاء فلم ترف على شفتيه بسمة بل سالت الدموع على خديه .  
وأقبل وهرز ليدخل صنعاء وقد رفعت راية الجيش تخفق بالنصر ، فلم تمر الراية من باب صنعاء وهم حامل الراية بأن ينكسها ، ورأى وهرز ذلك فغضب وتغير لونه وقال :

— لا تدخل رايتى منكسة أبدا . اهدموا الباب .

وعملت المعاول فى باب صنعاء ليدخل وهرز وجنوده وجنود ابن ذى يزن والراية عالية خافقة مرفوعة .

وانطلق وهرز وسيف وأشراف القوم إلى القصر ، وجاءت الوفود لتهنئ وهرز وسيف بن ذى يزن على النصر المؤزر على الحبشة ، ثم انصرف وهرز إلى كسر وملك سيفاً على اليمن . وتهلل سيف بالفرح ولم يفكر فى أنه استبدل الحبشة بالفرس وأنه لم يحرر بلاده من سيطرة الدول الأجنبية ، فقد أصبح غاية

أى ملك عربى فى الشرق الأوسط أن يرضى عنه كسرى أو قيصر ، وأن يؤيد ملكه قوة من القوتين العظيمتين المسيطرتين على العالم المتنازعتين ليخلو لإحدهما وجه الأرض ، وقد انضم بعض ملوك العرب للشرق وانضم بعضها الآخر للغرب ، ووضع كل من الفريقين موارد بلاده فى خدمة سيده الذى يؤيده ، ولم يدر بخلد حاكم واحد منهم أن فى مقدور رجل من العرب أن يجمع كلمة العرب المتنافرة وأن يؤلف بين قلوبهم ، وأن يحملهم للقضاء على الإمبراطوريتين العاتيتين إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الروم ، إمبراطورية الشرق وإمبراطورية الغرب ، فقد كان ذلك يستعصى حتى على الأحلام .  
وفى دار من دور بنى هاشم فى مكة ، بل فى دار عبد الله بن عبد المطلب بالذات ، فى دار الذبيح الذى فداه ربه بمائة من الإبل ليتزوج فتاة بنى زهرة لتحمل منه بسيد البشر . كانت آمنة بنت وهب تضع الغلام الذى دعا إبراهيم وإسماعيل ربهما وهما يقيمان القواعد من البيت أن يبعث فى ذريتهما رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويذكهم ، والذى بشر به موسى وعيسى والنبيون ، الغلام الذى سيرفع العرب ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ليصبحوا معلمين للبشرية بعد أن كانوا فى الجهالة يعمهون ، الغلام الذى سيرسله الله رحمة للعالمين .

كانت يثرب يموج بعضها في بعض فما كان يوم يمر دون أن تقوم مشادة بين الأوس والخزرج أو تنشب مناظرة حامية بين رجل من العرب ورجل من اليهود ، ويا طالما نشبت الحروب بين الحيين من العرب لسبب من الأسباب التافهة ، وما أكثر ما ثارت المنازعات بين العرب واليهود ! وارتفعت الأصوات حتى طافت بالدور ، فخرج حسان بن ثابت وكان ابن سبع سنين وفي أثره أخته فارعة بنت ثابت وكانت طفلة صغيرة ليريا ذلك النضال الناشب بين الناس .

كان العرب واليهود يتشابهون بالأيدى ويتبادلون السباب . فقد بلغ العرب أن اليهود أهانوا امرأة عربية في السوق ، فاتفقت كلمة الأوس والخزرج واجتمعت القلوب المتنافرة ونسيت ما كان بينهما من عداوة ، وهبوا لقتال اليهود غيرة على كرامة امرأة عربية أهينت في الطريق . وكادت المشادة أن تنقلب إلى حرب مدمرة لولا أن مشى بعض أشراف القوم في إصلاح ما بين المتشابهين بالإيدى ، والذين كان السباب ينطلق من أفواههم بغير حساب ولا تفكير .

وأحس اليهود أنهم باتوا في المدينة أذلة فقالوا للعرب :

— إن نبيا مبعوثا قد أظل زمانه نتبعه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم .

كان اليهود ينتظرون مولد النبي الذي بشرهم به موسى ، فكانوا يرصدون النجوم ويعكفون على أسفارهم يقرءون ما بين السطور ، وكانوا في لهفة على

مولد ذلك النبي ليصدقوه فقد كانوا أذلة في الأرض وكانوا يطمعون في أن يعيد ذلك النبي مجدهم ومجد الدين .

وكان الرهبان في صوامعهم يعلمون أن الله سيبعث « الفارقليط » الذي بشر به المسيح ، وكانوا يفصحون عن ذلك العلم كلما التقوا بسادات العرب وأشرافهم ، فقد نزل أربعة من تميم يريدون الشام عند غدير عند دير ، فأشرف الديراني وألقى سمعه إلى حديثهم ثم قال :  
— إن هذه لغة قوم ما هي أهل هذا البلد .

— نحن قوم من مضر .

— من أى المضائر ؟

— نخندف .

— إن الله سيبعث فيكم نبيا وشيكا فسارعوا إليه وخذوا حظكم  
ترشدوا ، فإنه خاتم النبيين .  
— ما اسمه ؟

— محمد .

ثم دخل ديره فما أحد منهم إلا زرع قوله في قلبه ، فأضمر كل واحد منهم  
إن رزقه الله غلاما سماه محمدا .

نامت الفتنة التي كادت تنشب بين الأوس والخزرج واليهود وعاد الناس  
إلى دورهم ، لم يحفلوا بذلك التهديد الذي لا يفتأ اليهود يرددونه كلما شجر  
خلاف بينهم وبين العرب ، وعاد ثابت بن المنذر إلى داره فألقى ولديه حسان  
وفارعة قد خرجا ينظران وقد وقفا أمام باب الدار ، فحمل فارعة وأخذ  
حسان من يده ثم دلف إلى البيت .

كان ثابت بن المنذر الحكم الذي لجأت إليه الأوس والخزرج يوم أن قامت

حرب سُمَيْر ، وكان ثابت لا ينفك يروى أحداث تلك الحروب ويروى الأشعار التي قيلت فيها فقد كان يحفظها عن ظهر قلب ، وكان يجد لذة في إعادة تلك القصة على أهل بيته ، فقبول الأوس والخزرج أن يكون حكما بينهما شرف عظيم ينبغي أن تتيه به الأسرة وتفخر .

وجلس حسان بن ثابت الفتى الذي لم يتجاوز السابعة يصغى إلى أبيه وهو يقول :

— قتل رجل في السوق كان جارا لمالك بن العجلان ، فقيل لمالك قد قتله سُمَيْر ، فأرسل إلى بنى عوف بن عمرو بن مالك بن الأوسى ، إنكم قتلتم منا قتيلا فأرسلوا إلينا بقاتله ، فلما جاءهم رسول مالك تراموا به فقالت بنو زيد : إنما قتلته بنو جحجبي ، وقالت بنو جحجبي : إنما قتلته بنو زيد . ثم أرسلوا إلى مالك :

— إنه كان في السوق التي قتل فيها صاحبكم أناس كثير ولا يُدرى أيهم قتلَه . وأمر مالك أهل تلك السوق أن يتفرقوا فلم يبق فيها غير سُمَيْر والقتيل ، فأرسل مالك إلى بنى عمرو بن عوف بالذى بلغه من ذلك وقال : إنما قتلته سُمَيْر فأرسلوا به إلّى أقتله . فأرسلوا إليه ، إنه ليس لك أن تقتل سُمَيْر بغير بينة . وكثرت الرسل بينهم في ذلك يسألهم مالك أن يعطوه سميرا ويأبون أن يعطوه إياه . ثم إن بنى عمرو بن عوف كرهوا أن يُنشبوا بينهم وبين مالك حربا ، فأرسلوا إليه يعرضون عليه الدية فقبلها ، فأرسلوا إليه أن صاحبكم حليف وليس لكم فيه إلا نصف الدية .

فغضب مالك وأبى أن يأخذ فيه إلا الدية كاملة أو يقتل سميرا ، فأبى بنو عمرو بن عوف أن يعطوه إلا دية الحليف وهي نصف الدية ، ثم دعوه أن يحكم بينهم وبينه عمرو بن امرئ القيس أحد بنى الحارث بن الخزرج ففعل ،



كما تمشي الأسود في وهج السـ  
موت إليه وكلهم كهـف  
وقال درهم بن يزيد بن ضبيعة أخو سمير :  
يا قوم لا تقتلوا سُميراً فلا  
ن القتل فيه البوار والأسف  
إن تقتلوه تـرِنٌ نسوتكم<sup>(١)</sup>  
على كريم ويفزع السلف  
إني لعمر الذي يحج له النسا  
ئك وممن دون يتـه سرف  
يمين بـر بـالله مجتهد  
يخلف إن كان ينفـع الحليف  
لا ترفع العبد فوق سـته  
ما دام منا يسطنها شرف  
إنك لاق غدا غـواة بنـى  
عمى فانظر ما أنت مزدهف  
فأبـد سيمـاك يعرفوك كما  
يـدون سماهـنم فتعتـرف  
وراح ثابت بن المنذر يروي الأشعار التي قالتها الأوس والخزرج في النزاع  
الذي نشب بينهما بسبب قتل سمير حليف مالك ، وحسان يصغى وقد أعجب  
بالشعر وتمنى لو يصبح شاعرا كهؤلاء الفحول الذي يسعد بشعرهم .

---

(١) يرفعن أصواتهن بالبكاء .

وقال ثابت لابنه :

— ثم أرسل مالك بن العجلان إلى بنى عمرو بن عوف يؤذنها بالحرب  
ويعدهم يوما يلتقون فيه ، وأمر قومه فتهيئوا للحرب ، وتحاشد الحيات وجمع  
بعضهم لبعض ، وكانت يهود قد حالفت قبائل الأوس والخزرج إلا بنى قريظة  
وبنى النضير فإنهم لم يحالفوا أحدا منهم حتى كان هذا الجمع فأرسلت إليهم  
الأوس والخزرج كل يدعوهم لنفسه ، فأجابوا الأوس وحالفوهم والتي  
حالفت قريظة والنضير من الأوس أوس الله وهي خطمة وواقف وأمية  
ووائل ، فهذه قبائل أوس الله .

ثم زحف مالك بن معه من الخزرج ، وزحفت الأوس بمن معها من  
حلفائها من قريظة والنضير ، فالتقوا بفضاء كان بين بئر سالم وقباء وكان أول  
يوم التقوا فيه فاقتلوا قتالا شديدا ، ثم انصرفوا وهم منتصفون جميعا ، ثم  
التقوا مرة أخرى عند أطم بنى قينقاع فاقتلوا حتى حجز الليل بينهم ، وكان  
الظفر يومئذ للأوس على الخزرج ، فقال أبو قيس بن الأسلت في ذلك :

لقد رأيت بنى عمرو فما وهنوا

عند اللقاء وما هموا بتكذيب

ألا فدى لهم أمى وما ولدت

غداة يمشون إرقال المصاعيب

بكل سلهبة<sup>(١)</sup> كالأيم ماضية

وكل أبيض ماضى الحد محسوب

فلبت الأوس والخزرج متحاربين عشرين سنة في أمر سُمير يتعاودون

---

(١) السلهبة من الخيل : الطويلة على وجه الأرض .

القتال في تلك السنين ، فلما رأت الأوس طول الشر وأن مالكا لا ينزع قال لهم سويد بن صامت الأوسي وكان يقال له الكامل ، فقد كان شاعرا شجاعا كاتباً ساجحاً رامياً : « يا قوم ارضوا هذا الرجل من حليفه ، ولا تقيموا على حرب إخوتكم فيقتل بعضكم بعضاً ويطمع فيكم غيركم ، وإن حملتم على أنفسكم بعض الحمل .

فأرسلت الأوس إلى مالك بن العجلان يدعونه إلى أن يحكم بينه وبينهم ثابت بن المنذر بن حزام .

وصمت ثابت برهة وتهللت أسارير حسان بالفرح ، ثم قال ثابت : — فخرجوا حتى أتوني فقالوا : إنا قد حكمناك بيننا ، فقلت : لا حاجة لي في ذلك .

فقال الفتى حسان :

— ولم ؟

فابتسم ثابت وقال :

— قلت لهم : أخاف أن تردوا حكمي كما رددتم حكم عمرو بن امرئ القيس . قالوا : فإننا لا نرد حكمك فاحكم بيننا . قلت لا أحكم بينكم حتى تعطوني موثقاً وعهداً لترضون بحكمي وما قضيت به ولتسلمن له . فأعطوني على ذلك عهودهم ومواثيقهم .

— وبماذا حكمت يا أبتاه ؟

— حكمت بأن يؤدي حليف مالك دية الصريح ، ثم تكون السنة فيهم بعده على ما كانت عليه : الصريح على ديته والحليف على ديته ، وأن تعد القتل الذين أصاب بعضهم من بعض في حربهم ثم يكون بعض ببعض ثم يعطوا الدية

لمن كان له فضل في القتل من الفريقين . فرضى بذلك مالك وسلّمت الأوس  
وتفرقوا على أن على بنى النجار نصف دية جار مالك معونة لإخوتهم ، وعلى  
بنى عمرو بن عوف نصفها ، فرأت بنو عمرو بن عوف أنهم لم يُخرجوا إلا  
الذى كان عليهم ، ورأى مالك أنه قد أدرك ما كان يطلب وودى جاره دية  
الصريح .

وانقضي النهار وحسان بن ثابت يردد الأشعار التي سمعها من أبيه ، وجاء  
الليل وتلألأت نجوم السماء وإذا بصوت جهورى ينادى فيتردد نداؤه في  
جنابات يثرب :

— يا معشر يهود .. يا معشر يهود .

وفتحت الدور وخرج اليهود والعرب إلى حيث الصوت ، وخرج ثابت  
ابن المنذر وفي يده ابنه حسان وراحوا يهرولون مع المهرولين ، فإذا بيهودى  
يصرخ بأعلى صوته على أطمه :

— يا معشر يهود !

واجتمعوا إليه وقالوا له :

— ويك ! مالك ؟

— طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به .

ونظر حسان بن ثابت ولم يفقه شيئا ، وما دار بخلده في تلك اللحظة أنه  
سيصبح شاعر ذلك الذى طلع الليلة نجمه . وعاد إلى الدار وصوت اليهودى  
يرن في وجدانه :

— طلع الليلة نجم أحمد .

دار عبد الله بن عبد المطلب عند الصفا ، الدنيا ليل والقمر يوشك أن يكون بدرا ، واليوم الاثنين من ربيع الأول وقد مضى على يوم الفيل خمسون يوما ، فقد صار أهل مكة يؤرخون بعام الفيل بعد أن كانوا يؤرخون بموت كعب بن لؤى حكيم قريش وسيدها .

لم يكن في الدار غير آمنة بنت وهب وجارية عبد الله الحبشية ، فقد شغلت هالة بنت وهيب بولدها حمزة بن عبد المطلب ، وإن ثوية جارية أبي هب كانت تمضي بعض الليالي في دار عبد الله لتؤنس آمنة ولكنها في هذه الليلة المباركة كانت تنام وفي حضنها حمزة ترضعه وتسهر عليه وتعنى به .

كانت الليلة هادئة خاشعة ، وكان نور القمر ينسكب في غرفة آمنة رائعا لكأنما كان يدا حانية تمس الكون مسارقا فتحرك مشاعر الرقة والحنان ، وملأت روح آمنة روائح أطيب من المسك لم تدر أكانت منبعثة من بخور حرقته جاريته أم أنها آتية من فوق السموات ، وسرت في الغرفة نسيمات من الرحمة كان لها رفيف كأنه تسبيح الملائكة ، وبدأ أن السماء توشك أن تتجلى على الأرض .

ورأت الجارية أن آمنة هادئة ساكنة وإن كانت تهم أن تضع ما في بطنها فاستشعرت رهبة . إنها تخاف أن تتلقى وحدها ذلك الذي عما قريب يستقبل الدنيا بصراخه ، فانسلت من الدار وسرعان ما عادت ومعها الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ليستقبلا معا ذلك اليتيم الذي ستضعه آمنة .

ودنت الشفاء من الشباك ونظرت إلى السماء فخيّل إليها أن القمر في تلك الليلة كان أكثر إشراقاً ورقة ولكأنما كان يتدلى ليكون معها في الغرفة ، وأن النجوم كانت أكثر تألقاً ولمعانا ، وألقت بصرها على دور بني هاشم فألفتها خاشعة لا يدري من فيها أن ابن عبد الله الحبيب قد حان أو أن إقباله على الدنيا . وحانت منها التفاتة إلى الكعبة فخيّل إليها أن القمر قد ألبسها حلة من مخمل أسود وأسلاك من فضة .

وطاف بآمنة نعاس فسمعت هاتفاً يهتف بها أن تسميه محمداً ، وأفادت من نعاسها فأحست كأنما ذلك الاسم قد حفر في فؤادها ، وعجبت من نفسها فما كان اسم محمد من أسماء آباء عبد الله ، إنه اسم لم يعرف من قبل في بني زهرة ولا في بني هاشم بن عبد مناف بل ولا في مكة كلها .

وفصل الوليد من آمنة واستقبلته الشفاء على يديها ، وراحت جارية عبد الله الحبشية تعاونها على غسله وإلباسه ثيابه وقد أشرق قلباهما بالنور والرحمة وراحا يرنوان إلى الوليد في حب شديد ، فقد كان هادئاً ساكناً لم يملأ الدنيا عويلاً ، وقد تألق في وجهه الصغير نور تهفو إليه الأفئدة وتتفتح له النفس . وحمل الوليد ووضع إلى جوار آمنة فنظرت إليه بقلب خافق يتدفق منه الحنان فخيّل إليها أن الوجود كله قد أشرق بالنور ، وفاضت مشاعر الحب فضمته إليها في رقة ومالت عليه وقبلته قبله فأحست كأنما قد قبلت الدنيا وأنها قد احتوتها بين ذراعيها ، وترقرقت في مآقيها الدموع وطاف بذهنها طائف حرك الأسى في وجدانها : إن ابنها الحبيب قد ولد يتيماً . ليت عبد الله كان هنا الساعة ليسعد بابنه الحبيب ، وقبل أن تسترسل في حزنها حانت منها التفاتة إلى محمد فإذا بإشراقة وجهه تبدد كل ما هم بأن يتلبد في جوفها من حزن ، وإذا بها تتذكر ذلك الهاتف الذي هتف بها قائلاً يوم أن حملت به : حملت بسيد

هذه الأمة ، وإذا بالنور يعود ليغمر قلب آمنة ووجه الأرض .  
وتنفس الصبح ولم تستطع جارية عبد الله صبرا فانسلت من الدار لتطوف  
على دور بنى هاشم تحمل نبأ ولادة آمنة لوليد كأنه القمر ، لم تر مثله في مواليد  
بنى عبد مناف وإن اشتهروا بالحسن والجمال .

واتجهت إلى دار عبد المطلب وطرقت الباب ، وبعد لحظة انفرج عن ثوية  
جارية أبى لهب كانت هناك لترضع حمزة ، وما إن وقعت عينا جارية عبد الله  
الحبشية عليها حتى قالت :

— ولد لعبد الله ولد. كأنه النور .

وذهبت الجارية إلى حيث كان عبد المطلب . وراحت ثوية تهوول إلى دار  
أبى لهب ، فقد أرادت أن تكون أول من يحمل البشرى السعيدة إلى سيدها  
فهى تعلم كم كان أبو لهب يحب عبد الله فتى قريش وذبيحها .  
ودخلت جارية عبد الله على عبد المطلب وقالت في نبرات تنبض بالفرح :  
— قد ولد لك غلام فانظر إليه .

وخرج عبد المطلب يسعى إلى دار آمنة ، ودخلت ثوية على أبى لهب  
وقالت :

— ولد لعبد الله غلام لم ير في قريش مثله .

وفرح أبو لهب فإن كان أخوه قد ذهب ولن يثوب فقد جاء له ابن سيحفظ  
اسمه ويبقى عقبه ، وربما فرح أبى لهب حتى قال لثوية :  
— اذهبي فأنت حرة .

وتجلت أول بركة للوليد ولما يمض على مولده غير ساعات . دخلت ثوية  
دار أبى لهب وهى جارية وخرجت منه وقد أصبحت حرة لكأنما كان ذلك  
إيذانا ببدء تحرير الإنسان من استعباد أخيه الإنسان .

ودخل عبد المطلب على آمنة والفرح يبدو في وجهه ، وما أن ألقى عليها تحية الصباح وهنأها بالمولود حتى حملته وقدمته إلى جده ، فلما نظر إليه خفق قلبه في رقة وحنان ، وسرعان ما احتلت صفحة ذهنه صورة عبد الله فراحت كنوز عواطفه تتدفق إلى صدره ، وفي لمح البصر طافت برأسه ذكريات حبيبة لا تنسى ، رأى عبد الله وهو يضرب عليه بالقداح عند هبل وراه وهو يسير معه إلى دار بنى زهرة ليزوجه من آمنة ، وراه يوم أن خرج إلى الشام بمتار تمرا ، ورأى الزبير يعود من يثرب لينعى إليه ابنه الحبيب ، وفطن إلى أن الله قد أبقى عبد الله يوم أن هم بأن يذبحه ليأتي بذلك المولود ثم يذهب دون أن يثوب .

إن الميلاد يذكر بالموت فهما طرفا حياة : بداية ونهاية ، فلما عاد عبد المطلب ينظر إلى حفيده تذكر ابنه قثم ، إنه مات في التاسعة من عمره فلماذا لا يطلق اسمه على ابن عبد الله تخليدا لذكراه ؟ واستراح للفكرة فالتفت إلى آمنة وقال :

— نسميه قثما !

فقالت آمنة وقد تألقت عيناها بالفرح :

— إني عندما حملت به سمعت هاتفا يهتف بى : إنك حملت بسيد هذه الأمة . وبينما كنت أضعه سمعت هاتفا يهتف بى : فإذا وقع إلى الأرض فسميه محمدا .

لم تكن آمنة أول من سمعت هاتفا يهتف بها يبشرها بسؤدد ابنها وسلطانه فقد أتى « عتبة بن عفيف » هاتف حين حملت بابنها « حاتم الطائي » فقال لها : « أغلام سمح يقال له حاتم أحب إليك أم عشرة غلمة كالناس ؟ » فأجابت : « بل حاتم » . وإن عبد المطلب قد سمع عن الهواتف التي تأتي

للسوسة وهن في أشهر حملهن يبشرنهن بالمجد المنتظر للأجنة في أرحامهن ،  
فقبل ما قالت آمنة عن رضى ولم يجد شيئا غريبا في أن يسود محمد بن عبد الله  
قومه ، فلو لم يخطف الموت عبد الله لساد قومهم كما سادهم أبوه عبد المطلب  
وجده هاشم من قبل . ترى أبلغ محمد في قومهم ما بلغ كعب بن لؤى في  
قريش ؟

وتذكر عبد المطلب ما بشره به كاهن اليمن . وما قالت سودة بنت زهرة  
كاهنة قريش لآمنة ، فأحس إحساسا غامضا أن سيكون لحفيده الذى بين  
يديه شأن لم يبلغه حتى كعب بن لؤى .

وأخذه أبوه عبد المطلب وانطلق إلى الكعبة فأدخله على هبل ، فقام عبد  
المطلب يدعو ويشكر الله ويقول :

الحمد لله الذى أعطانى	هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان	أعيزه بالببيت ذى الأركان
حتى يكون بلغة الفتيان	حتى أراه بالغ البنيان
أعيزه من كل ذى شأن	من حاسد مضطرب العنان

وسمع عبد المطلب مناديا ينادى :

— يا معشر قريش .. يا معشر قريش .

فخرج من جوف الكعبة ينظر فإذا ييوسف اليهودى ينادى :

— يا معشر قريش .. قد ولد نبي هذه الأمة هذه الليلة بمرتكم

( ناحيتكم ) .

وعاد عبد المطلب إلى دار آمنة وهو يضم الوليد إلى صدره كأنما يمنع عنه  
أذى الناس ووضعه في حضن أمه ، وسرعان ما ملئت الدار بنساء بنى زهرة

وبنى هاشم للاحتفال بالمولود . وجاء الزبير وأبو طالب وإخوة عبد الله تهلل  
أفئدتهم بالفرح لمولد ابن أخيهم الراحل الحبيب .

وجلس عبد المطلب على فراشه في ظل الكعبة ، وجاء يوسف اليهودي  
يسعى وجعل يطوف في أندية قريش يسأل عن مولود ولد الليلة فلا يجد  
خبرا ، حتى انتهى إلى مجلس عبد المطلب فسأل :

— هل ولد فيكم مولود الليلة ؟

— ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام .

— هو نبي والتوراة .

وفي مجلس من مجالس قريش قال يهودي ممن كانوا يتجرون في مكة .

— يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود ؟

— والله ما نعلمه .

— أما إذا أخطاكم فلا بأس فانظروا واحفظوا ما أقول لكم : ولد في هذه

الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة ، بين كتفيه علامة فيها شعيرات متواترات كأنهن

عرف فرس ، لا يرضع ليلتين .

فتصدع القوم من مجلسهم وهم يتعجبون من قوله ، فلما صاروا إلى

منازلهم أخبر كل إنسان منهم أهله فقالوا :

— قد والله ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام .

فالتقى القوم فقالوا :

— هل سمعتم حديث اليهودي وهل بلغكم مولد هذا الغلام ؟

فانطلقوا حتى جاءوا اليهودي وقالوا : ولد لعبد الله بن المطلب غلام .

فقال اليهودي :

— فاذهبوا معي حتى أنظر إليه .

فخرجوا به حتى أدخلوه على آمنة فقالوا :

— أخرجني إلينا ابنك .

فأخرجته وكشفوا له ظهره فرأى تلك الشامة فوق اليهودى مغشيا عليه ،

فلما أفاق قالوا له :

— مالك ويلك ؟

— قد ذهبت والله النبوة من بنى إسرائيل فرحتم بها يا معشر قريش ، والله

ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب .

دعا زرادشت إلى عبادة إله واحد لا شريك له ، إله النور أهورا مزدا ، وقد تمكن الفرس بفضل ذلك الدين أن يسيطروا سلطانهم على الممالك من حولهم ، حتى كان عهد كسرى أنوشروان أعظم ملوك الساسانيين ، فقد بدا في ذلك العصر أن الفرس بلغت مجدها بينما كانت الحقيقة أن عوامل الهدم راحت تعمل عملها في البنيان الشاخ وأن دولة الفرس قد شهرت الخنجر لتطعن به قلبها ، فالدول تنتحر عادة بيدها قبل أن يفتالها قاتل يغزوها : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

وظل الفرس يعبدون الله ، فلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم وراحوا ينقبون عن دياناتهم الوثنية القديمة ويمزجونها بما جاءهم به زرادشت ، فوجدوا أنهم كانوا يعبدون مئرا ذلك الإله الذي عرفه البابليون بشمس ، فقالوا كيف نرفض عبادة الشمس التي تضيء بنورها الكون كله ، والتي تنضج بحرارتها غذاء الناس والحيوان ؟ فجعلوا مئرا ابن الإله أهورا مزدا وراحوا يؤكدون تلك الصورة في نقوشهم فجعلوا ملوكهم يتسلمون ولاية الملك من يد أهورا مزدا ، ويقف مئرا بإكليله الذي يشع منه النور خلف الملك .

وأصبح مئرا ابن أهورا مزدا وصار ينقش على أعمدة المعابد ومن حوله التاج النوراني وعربة الشمس يجرها جوادان مجنحان ، وفتُح باب الأساطير على مصراعيه فراح رجال الدين والكهان وأصحاب المصالح يدونون في

« الأوستا » كتاب زرادشت المقدس ما يشاءون . فطراً على الأوستا ما طراً على التوراة يوم أن أعاد أحبار اليهود كتابة التوراة في أرض السبي بعد أن حملهم بختنصر إلى بابل وحرق التوراة وقوض الهيكل .

كان زرادشت يخاطب إلهه ويدعوه باسم أهورا مزدا إله النور ، فلما أراد عبّاد أهورا مزدا أن يجسموا إلههم ويجعلوا لله رمزا لم يجدوا غير النار يرمزون بها إليه ، فجعلوا للبيت نارا وللقبيلة نارا وللقرية نارا ( آذران ) ولكل كور أو إقليم نارا ( وهران ) ، ورتب لتلك النيران خدام فكان رب البيت هو خادم نار البيت ، وكان يخدم نار القرية اثنان من الهرا بذة على الأقل ، وكانت نار ( وهران ) تتطلب هيئة من الهرا بذة أكثر عددا يرأسها موبذ .

وبعد أن كانت النار رمزا لأهورا مزدا أصبحت مقدسة لذاتها ، وكان لا بد من فلسفة فكرة عبادتها وتقسيمها إلى نيران تسرى في كل شيء ، ف قيل إن « هوفريانة » هي النار التي توجد في جسم الإنسان والحيوان ، و « أوروازيسته » هي النار التي توجد في النباتات ، و « زيستا » هي النار الكائنة في السحاب أى الصاعقة ، و « اسنبيشته » هي النار التي تشعل أهورا مزدا في الجنة ، وجعل المجد ( خورانة ) الذي يصاحب الملوك الشرعيين الآرين تجلياً لهذه النار الأخيرة النار السماوية .

وروت الأساطير أن أصل هذه النيران كان نيرانا ثلاثا : نار رجال الدين ونار رجال الحرب ونار الزراع . وقد كانت هذه النيران على ظهر ثور ركبه جماعة من الرجال ليصلوا إلى ستة أقاليم لم يكن في طاقة البشر بلوغها ، وفي ذات ليلة هبت الرياح فأسقطت النيران الثلاث عن ظهر الثور في وسط المحيط ، ولكن النيران نبتت من جديد على ظهر الثور فأضاءت الدنيا .

وقد بنى لهذه النيران ثلاثة معابد : نار فربغ ومعبدها فوق جبل خور همند

في خوارزم ؛ وآزر كشنسب ومعبدها في آزر بيجان وهي النار الملكية ، وكان الملوك الساسانيون يحجون إلى هذا البيت العظيم حين الأزمات ، وكانوا يهبونه هبات سخية من الذهب والأموال والأراضي والعبيد ، وكان الملك إذا ملك زاره ماشيا تعظيما له ؛ وكان معبد آذر برزين مهر معبد نار الزراع قائما في شرقي الدولة في جبال ريوند شمال شرقي نيسابور .

وما دام دين زرادشت قد بذل وفاض بالأساطير فكان لا بد من خلق أسطورة توضح بدء الخليقة ، وكان الأمر ميسورا بعد أن عرفت الفلسفة الهندية طريقها إلى فارس فقبل : إن دورة الدنيا تستمر اثني عشر ألف سنة ، ففي أثناء ثلاثة آلاف سنة الأولى يبقى العالمان : عالم أهورا مزدا عالم النور ، وعالم أرهيمن عالم الظلمات متجاورين في هدوء ، والعالمان لا متناهيان من جوانب ثلاثة ، ولكن كلا منهما يحد الآخر في الجانب الرابع ، فعالم النور في الجانب الأعلى ، وعالم الظلمات في الجانب الأسفل ، وبينهما فراغ مملوء بالهواء .

وفي مدة ثلاثة آلاف سنة يعيش خلق أهورا مزدا بالقوة ، وبعد ذلك يرى أهرمن النور ويضمر إبادته ، فيبادر أهورا مزدا الذي يعلم الغيب بأن يعرض عليه حقبة من الحرب طولها تسعة آلاف سنة فيقبل أهرمن وهو لا يعرف غير الماضي ، وبعد ذلك ينبئه أهورا مزدا بأن المعركة تنتهي بهزيمة عالم الظلمات ، ويفزع أهرمن هذا فيسقط في الظلمات ويبقى فيها مشلولا مدة ثلاثة آلاف سنة ، فيبدأ أهورا مزدا بخلق الدنيا ، فلما أتمها خلق الثور المعروف بالثور الأول ، ثم خلق الإنسان الأول كيومرد ( أي الحياة الفانية ) الذي هو أول البشر . وحينئذ ألقى أهرمن بقوته ضد خلق أهورا مزدا فنجس العناصر وخلق طوائف من الزواحف والحشرات ، فأقام أهورا مزدا خندقا أمام

السماء ولكن أهر من يكرر هجماته وينجح أخيرا في قتل الثور وكيومرد .  
وكانت بذور كيومرد مخبأة في الأرض فتتج منها عند انقضاء أربعين سنة  
شجرة خرج منها أول زوجين من البشر هما « مشيج » و « مشيانج » ،  
وهكذا بدأت فترة اختلاط الخير بالشر ، وأخذ البشر يلعبون دورا في الحرب  
بين مملكتي النور والظلمة وذلك بانضمامهم حسب أعمالهم إلى جانب الخير  
أو إلى جانب الشر ، فمن اتبع الصراط المستقيم منهم كان يمر سالما بعد الموت  
على الصراط المسمى « جينوت » ثم يدخل الجنة ، ولكن حينما يمر على ذلك  
الصراط أحد الأشرار ثم يدق حتى يصير كالسيف القاطع فيهوى الجرم إلى  
جهنم حيث يلقي من العذاب ما يعادل سيئاته ، أما من تعادلت موازينه  
فكانت حسناته مساوية لذنوبه فإنه يقيم في « الهمشتكان » أي المكان  
المتوسط حيث لا عقاب ولا ثواب .

وبعد ثلاثة آلاف سنة من خلق العالم يظهر زرادشت فيهدى الناس إلى  
الدين الحق . وحينئذ لا يبقى للعالم في الوجود غير ثلاثة آلاف سنة . ففي  
نهاية كل ألف يظهر مخلص يولد بطبيعة الحال من بذور زرادشت المخبأة في  
إحدى البحيرات ، وفي اللحظة التي يولد فيها آخر المخلصين الثلاثة المخلص  
الحقيقي تبدأ المعركة الأخيرة ، فيبعث الأبطال والتنانين الشيطانية التي ذكرها  
التاريخ الخرافي لكي يتقاتلوا ، وأخيرا يبعث الموتى جميعا ، ويقع النجم المذنب  
على الأرض فتشتعل وتذيب جميع المعادن فتتشر على الأرض كأنها سيل  
ملتهب .

وعلى الناس جميعا الأحياء والأموات المبعوثين أن يعبروا ذلك السيل الذي  
يكون للأتقياء كاللبن الساخن فيطهرهم المرور به ويمضون منه إلى الجنة ،  
وبعد المعركة الأخيرة بين الآلهة والشياطين تلك المعركة التي تنتهى بهزيمة

الشياطين وهلاكهم يسقط الشر إلى الأبد في الظلمات ، وتمتد الأرض وتبسط ، وتبقى الدنيا المطهرة إلى الأبد في سكون لا يعكر صفوه .  
وكان ذلك يعرف في « الأوستا » بالتصفية والتجديد ، وقد سر أنو شروان في أعماقه بذلك الدين فراح يبحث عن الراحة النفسية في الفلسفة وإن أظهر تدينه لسواد شعبه ، فقد قام طبيبه برزويه بترجمة كتاب « كليلة ودمنة » وهو نص بهلوى لمجموعة من القصص وكان قد أتى بالأصل الهندي أثناء رحلته له إلى بلاد الهند .

وكتب برزويه مقدمة للكتاب بين فيها الحياة الإنسانية والأوضاع الاجتماعية في عصره ، وكشف عن روح قلق يبحث عن الحقيقة فلا يجدها لكأنما كان برزويه يعكس قلق أهل عصره ، قال :

وقد وجدت آراء الناس مختلفة وآراءهم متباينة ، وكل على كل عاد وله عدو مغتاب وفيه واقع ، فلما رأيت ذلك لم أجد في متابعة أحد منهم سبيلا ، وعرفت أني إن صدقت أحدا منهم لا علم لي بحاله كنت في ذلك كالمصدق المخدوع ... فلما تحزرت من تصديق ما لا يكون ولم آمن إن صدقته أن يوقعني في تهلكة عدت إلى البحث عن الأديان والتماس العدل منها ، فلم أجد عند أحد ممن كلمته جوابا فيما سألته عنه فيها ، ولم أر فيما كلموني به شيئا يحق لي في عقلي أن أصدق به ولا أن أتبعه ، فقلت لما لم أجد ثقة آخذ منه فالرأي أن ألزم دين آبائي وأجدادي الذي وجدتهم عليه وهمت بذلك .

ثم التمس لنفسي مخرجا فقلت : إن كان ما يفعل هذا معذورا ... فلما ذهبت أتمس لنفسي في لزوم دين الآباء والأجداد ، ولم أجد لها على الثبوت على دين الآباء طاقة ، بل وجدتها تريد أن تتفرغ للبحث عن الأديان والمسألة عنها والنظر فيها ، هجس في قلبي وخطر على بالي قرب الأجل وسرعة انقطاع

الدنيا واغتياب أهلها وتخرم الدهر حياتهم . فلما خفت من التردد رأيت أن لا أتعرض له ولا لما أتحوف منه المكروه واقتصرت على كل شئ تشهد به العقول ويتفق عليه أهل الأديان ويؤرى أنه صواب وحق ..

كان النسك ينافي دين زرادشت ولكن العدوى انتقلت إلى برزويه من النصارى والمناوية والمزدكية ، فالتزم النسك وظل كسرى أنوشروان في قلقه وشكه وبحته عن الحقيقة عن طريق الفلسفة . بينا كان رجال الدين في معبد النار يرتلون الأدعية المقررة للأوقات الخمسة المحددة في النهار ، ويقومون بكل أعمال المذهب .

ووقف الهرايزة في المعبد وقد أخفوا أفواههم بأربطة لكيلا تلوث أنفاسهم النار ، يغذون النار بقطع من الخشب طهرت تطهيرا دينيا ، وهم يرتلون الأدعية الدينية ، ثم أخذ الهرايزة في نثر الهوما التي سبق أن دقوها في أهوان وهم يتلون عليها بعض آي الأوستا ، وارتفعت أصوات المؤمنين بدعاء مجد النار ، وسار الموبدان خادما النار الأكبر في قاعات المعبد المظلمة والنار مشتعلة فوق المذابح والأهوان تتألق والهرايزة يتلون الأوراد التي لا تنقطع بصوت مرتفع ولحن جميل حيناً وبصوت منخفض إلى حد التمتمة حيناً آخر ، فأحس الموبدان راحة وتمللت نفسه بالفرح .

وجاء المساء وذهب الموبدان لينام وهو هادئ النفس مستريح الضمير وما مس الكرى عينيه حتى رأى فيما يرى النائم فرسا عربية هجمت على جمل شرس ، وثار النقع ودارت بين الفرس والجمل معركة رهيبة انتهت بأن صرعت الفرس الجمل .

وقام الموبدان من نومه مفزوعا وطلب من يفسر له حلمه ، فجاء رجل ممن يقرءون الطالع ويفسر الأحلام فقص عليه الموبدان حلمه ، فراح الرجل ينظر إلى النار

المقدسة ثم قال :

— إن صدقت رؤياك فإن العرب يغزون فارس .  
وساد القاعة وجوم ، ترى أوشكت نبوءة ساسان أن تتحقق ؟ أن ينتزع  
العرب الملك من الساسانيين ؟ هل أظل العالم ذلك النبي العربي الذى  
أوصاهم زرادشت بأن يستمسكوا بما جاءهم به حتى يبعث صاحب الجمل  
الأحمر ؟ فى تلك الليلة كان يهودى فى يثرب يقف على أطمه ويصيح : « طلع  
نجم أحمد » ، وكان يوسف اليهودى ينادى فى مكة : يا معشر قريش . قد ولد  
نبي هذه الأمة هذه الليلة فى بمرتكم .

نشبت الغيرة بين روما عاصمة الدولة الرومانية القديمة ، والقسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، فروما في أيام الرسل كانت أفضل الأماكن لتكون العاصمة الدينية للدولة ، فبطرس أمير الرسل ختم حياته أسقفا لروما ، فلما فقدت روما مركزها السياسى ولم تعد عاصمة العالم بعد أن بنى قسطنطين القسطنطينية واتخذها قسبة إمبراطوريته الجديدة ، تشبثت روما بمركزها الدينى وعضت كنيستها بالنواجذ على انتسابها إلى بطرس الرسول وتمسكت بمقامها السامى .

وكانت كنيسة روما تبغض كنيسة القسطنطينية كل البغض ، وكان التنافس بينها وبين غريماتها أشبه بالتنافس بين الرومان والفرس ، لكأنما أصبحت الخدمة الدينية تنافسا على مغام دنيوية حتى إن كنيسة روما كرهت كل الكراهية أن تصبح كنيسة القسطنطينية فى المقام الثانى بعدها .!

كانت القسطنطينية تقول إنها روما الجديدة ومن حق كنيستها أن تكون الكنيسة التالية لكنيسة روما ، ولكن كنيسة روما قالت إن كنيسة الإسكندرية هى الكنيسة الثانية بعدها لأن مؤسسها مرقس الرسول ، وروما لا تعترف إلا بالكنائس التى أسسها الرسل .

وزاد مرارة الموقف وانقسام العالم المسيحى الخلاف الذى شجر بين الإسكندرية والقسطنطينية حول طبيعة المسيح والتجاء كل منهما إلى روما لاثماس التأيد، وأحست روما خطرها فظلت مستمسكة بأن رأيها ووجهة نظرها ينبغى أن يسود دون مناقشة، على حين أن القسطنطينية كانت تقبل ما تذيعه روما إن أقره مجلس

مسكونى ، بينما كانت الإسكندرية تؤثر أن تنفصل عن كنيسة روما وأن تعارض بعض ما يتقرر فى المجالس المسكونية عن أن تتخلى عن لاهوتها .  
لم يعيش الإسلام الذى جاء به السيد المسيح على الأرض طويلا فقد كان من سوء حظ الدين الجديد أن احتل بولس مقعد السيد المسيح فغمر الدين بالفلسفة الرواقية وأساطير الوثنيين ، وكان من سوء حظه أن اعتنق قسطنطين الوثنى دين بولس فابتدع بدعة المجالس المسكونية التى كان لها حق التشريع الدينى ، وقد كانت تلك المجالس تخضع لهوى الأباطرة فكانت تحرم فى بعضها بعض ما كانت قد أحلته من قبل وتحلل ما كانت قد حرمته . وكانت المجالس المسكونية السبعة تعد هى والكتب المقدسة التى سلمت من يد قسطنطين أساسا للعقيدة الأرثوذكسية .

اجتمع كل مجلس من تلك المجالس للبت فى نقطة خاصة من نقط اللاهوت وإصدار حكمه ضد زندقة معينة ، وقد انتصرت النصرانية على الوثنية وهى تخوض إحدى حروبها الأهلية يوم كان أتباع آريوس يحاولون بإنكارهم الألوهية التامة للمسيح أن يؤسسوا فكرة عن الربوبية تنطوى على قدر أكبر من التوحيد .

وأصدر أول مجمع مسكونى وهو مجمع نيقية قرارا باستئزال اللعنة عليهم ، ولكن الذى حدث هو أن مذهب آريوس ظل طول القرن الرابع بأكمله يستمتع بمحبة الدوائر الراقية بالقسطنطينية ، ولم يقض على ذلك المذهب ببلاد الشرق إلا بعد انعقاد المجمع المسكونى الثانى فى سنة ٣٨١ ، أما فى الغرب فإن هذا المذهب عاش قرونا عقيدة يؤمن به القوط .

وظلت الإسكندرية طوال القرن الخامس وهى تحاول أن تتابع نصرها بإرغام المسيحية على الأخذ باللون الخاص الذى اتخذته للاهوتها ، وقد سنحت

فرصتها المواتية عندما ذهب نسطوريوس بطريرك القسطنطينية إلى تقسيم طبيعة المسيح إلى شقين : لاهوتى وناسوتى .

وكره الناس هذه الحركة لأنها تهاجم مكانة مريم البتول نصيرة القسطنطينية وراعتها المحبوبة التى كانت مهددة بسبب ذلك إلى حرمانها من لقبها : أم الرب ، فاتحدت روما والإسكندرية لمناهضة هذا المذهب الجديد . واجتمع المجلس المسكونى الثالث فى أفيسوس وأصدر قراره ضد ذلك المذهب بفضل قوة شخصية بطريرك الإسكندرية كيرلس ، وعقب ذلك المجمع انسحبت بعض كنائس شمال سورية وأسست هيئات مستقلة تحت حماية الفرس .

وقضت الإسكندرية على نفسها بفرط مبالغتها ، فقد راح بطريقها ديوسقوروس يغوص وراء نظرية ( بوتيخوس ) عن المسيح ، وهى النظرية الداعية إلى وحدة طبيعة المسيح ، ولم توافق روما على الفكرة وآثر البلاط الإمبراطورى أن يتمشى مع مزاج روما . ونعى المجلس المسكونى بخلقيدونية على ديوسقوروس آراءه ، وعندئذ أصبح أصحاب مذهب وحدة طبيعة المسيح هراطقة وصاروا موضع اضطهاد الأباطرة ورجال الدين فى روما والقسطنطينية .

وكانت المسائل اللاهوتية المختلف عليها فى الخصومات المتعلقة بوحدة طبيعة المسيح صغيرة نسبيا ، فقد كانت تدور حول الفرق بين طبيعة واحدة وطبعتين لا يمكن الفصل بينهما . ولكن النتائج السياسية كانت هائلة ذلك أن مذهب وحدة طبيعة المسيح ظل مشكلة متسلطة على تاريخ الإمبراطورية زهاء قرنين من الزمان . وفى المجمع المسكونى الخامس المنعقد فى القسطنطينية فى سنة ٥٥٣ اعترف يوسطنيانوس بإخفاقه فى نشر ميثاق يوفق بين الطرفين

المتنازعين .

وكان نبذ أى قانون يصدر عن المجالس العامة للكنيسة يعتبر زندقة ومروقا من الدين ، ذلك أن القوم كانوا يرون أن أى مجلس مسكونى هو الهيئة الملهمه التى تعد قراراتها ملزمة لعالم المسيحية . وقد كان كل مذهب يعرض على المجالس المسكونية يجد له مؤيدين وأنصارا ، وقد كان هؤلاء يظنون على مذهبهم حتى بعد رفض المجالس لذلك المذهب ، وكانت النتيجة الطبيعية انشقاق العالم المسيحى إلى فرق متنافرة يكفر بعضها بعضا .

فتح بولس أبواب الخلاف على مصاريحها منذ أن ادعى أنه رسول السيد المسيح إلى أتباعه المؤمنين . ولم تعرف المسيحية الاستقرار لحظة واحدة بعد أن تطورت من دين سمح بسيط ، دين سماوى يدعو إلى الإسلام وعبادة الله وحده ككل الديانات السماوية من قبله إلى دين مزج بالفلسفة وأحيا الوثنيات وأصبح ميدانا لأهواء البشر يقررون في مجامعهم ما يشاء الأباطرة وأصحاب النفوذ ، ويضاهئون قول الذين من قبلهم فصارت تعاليم السماء تنسخ وتعرف وتبدل ، وأصبح الإله الواحد القهار هو المسيح ابن مريم مرة . لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم « وأصبح الأب والمسيح الابن مرة أخرى » وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . وأصبح مرة ثالثة ثالث ثلاثة « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم . ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر

كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون .

وكان المسيحيون يرقبون ظهور الفراقليط الذى بشر به المسيح ، وقد زعم بعضهم أنهم ذلك النبى الذى بشر به عيسى ابن مريم ، ولم يجد هؤلاء أذنا واعية فلم يكونوا من أبناء أعمام موسى كما بشرت التوراة ، وزعم ماني فى فارس أنه « الفراقليط » ولكن الزرادشتيين المؤمنين كذبوه وقالوا إن زرادشت قد بشر بنبى يأتى من بلاد العرب .

وراح بعض الرهبان يعتزلون العالم فى صوامعهم انتظارا لحىء « الفراقليط » ، وكانوا إذا ما خرجوا من صوامعهم يحدثون الناس عن النبى المنتظر الذى بشر به موسى وعيسى والأنبياء جميعا .

إنه لا يتكلم من نفسه بل يتكلم بما يسمع « لا ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى . » وسيمكث مع الناس إلى الأبد . « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . »

كان الأساقفة والقديسون يقومون بالشعائر الدينية ، وفى نفس الوقت يرعون النجوم ويفسرون الأحلام ويعقدون الجلسات التى يتخذون فيها من الراهبات وسيطات ، وكانت النيازك والكسوف تدلهم على الكوارث والملمات ، وكان رجال منهم يقومون بالتنجيم وقراءة المستقبل .

وكانت قاعة العرش فى القصر القيصرى بالقسطنطينية تستقبل المنجمين وقراء المستقبل والناظرين فى النجوم . وفى ذات يوم جاء العرافون وقد أطارقوا برءوسهم ولاح فى وجوههم الهم الشديد ، فقال لهم الإمبراطور :

— ما وراءكم ؟

فلزموا الصمت فقال القيصر :

— قولوا .

— ولنا الأمان ؟

— ولكم الأمان .

فقال قائل منهم :

— إن الإمبراطورية سيدمرها شعب مختون<sup>(١)</sup> .

وساد القاعة وجوم ، ولم يدر بخلد أحد أن نهاية الإمبراطورية الرومانية ستكون على يد العرب ، فقد كان العرب في ذلك اليوم الذي ولد فيه الهدى أهون من أن يفكر الأباطرة فيهم . فذهبت الأفكار إلى اليهود فراح قياصرة الروم يضطهدونهم ويسومونهم من العذاب ألوانا . بينا كان محمد بن عبد الله « الفراقليط » الذي بشر به عيسى بين أحضان آمنة بنت وهب في دور بني هاشم التي تطل من فوق الصفا على الكعبة ..

---

(١) انظر فريد جاريوس في M.P.L. مج ٧١ ص ٦٤٦ .

وحزنت آمنة على عبد الله حزنا كاد يودى بها إلى البوار ، فقد أحببت فتى  
بنى هاشم وراحت تحلم بمستقبل بسام يجمع بينها وبينه ، وما كادت تستهل  
حياة الزوجية السعيدة ، حتى اختطفه الموت وهلك في أرض غريبة دون أن  
تراه .

إنها استسلمت للأسى والدموع ولولا ذلك الذى كان يتحرك فى بطنها  
لرفضت الحياة ، فقد كانت ترى رحلة الحياة طويلة مملة ممضة دون رجلها  
الذى شغفت به حبا .

كانت لياليها فراغا ونهارها آلاما ، ولولا الرؤى العذاب التى كانت تطوف  
بها تخفف من لوعتها ولولا الهوائى التى كانت تهتف بها تبشرها بمستقبل عظيم  
لابن عبد الله لانفطرت كبدها وتصدع فؤادها وفتك بها حزنها وطويت أيامها  
القصيرة فى الأرض .

لم تحس آمنة مشقة طوال شهور الحمل ، ولم تحس مشقة حين وضعته .  
ترى أكانت ذاهلة بآلام النفس التى كانت تفوق آلام الجسد ؟ إنها لم تغب عن  
وعينا لحظة واحدة . كان أنفها يشم روائح أطيب من الطيب ، وكانت عيناها  
تريان نورا الكأنة كان آتيا من فوق السموات ، ولما وضعته رأت نورا يخرج منها  
قد فاض حتى خيل إليها أنه غمر كل الأرض .

لم تكن تحلم بل كانت مرهفة الحس صاحبة الحواس وإن كان واقعها أقرب  
إلى الرؤى والتخيلات ، حتى إنها كادت تعتقد أن ما هى فيه إن هو إلا سبحة

من سبحات الخيال ، وكانت الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف وبركة جارية عبد الله الحبشية تحدثانها في دهشة عما تريان وعما تحسان ، إنهما تريان نفس ما ترى ، وتحسان نفس ما تحس .

ونظرت آمنة إلى وليدها في حب شديد وهي تحاول أن تلقمه ثديها ، ولكن الوليد أقفل فمه فانتابها خوف على حبيبها ، ودار بخلدتها أنه لم يرضع لجفاف لبنها فقد أثر حزنها على عبد الله على كل كيائها . وبعثت بركة تستدعي ثوية موضوعة حمزة بن عبد المطلب ، فلما جاءت ثوية التمسست منها أن ترضع محمدا فأخذته لترضعه ، ولكنه لم يلتقم ثديها فاشتد جزع آمنة وربما خوفها . ومضى أول يوم من مولده دون أن يرضع ، وانقضت ليلته الأولى وهو شاخص ببصره إلى القمر كأنه يناجيه دون أن يدخل جوفه شيء ، وباتت آمنة إلى جواره وهي تبذل كل ما وسعها الجهد لترضعه دون جدوى . وغفت آمنة عفوة وبركة إلى جواره وترنو إلى وجهه الجميل فتستشعر كأن كنوزا من الحب تفجرت في وجدانها .

وذاع في دور بني هاشم أن ابن عبد الله مرض وأنه لم يرضع منذ وقع على الأرض ، فجاء بعض نسوة بني هاشم إلى آمنة وراحت كل منهم تصف دواء ، وانقضى اليوم الثاني كما انقضى اليوم الأول : إعراض من محمد عن الرضاعة وشخص ببصره إلى السماء ، وقلق وخوف وهلع يستولى على الأم التي كانت تشفق على ابنها اليتيم فباتت تخاف عليه أن يلحقه البوار .

وتصرمت الليلة الثانية وآمنة ساهرة إلى جوار ابنها لم تغمض لها عين . إنه ينظر إلى القمر كأنه يناجيه . كان مفتوح العينين لم يد في وجهه الذبول بل تترقق الحياة في محياه وإن لم يعرف الغذاء طريقه إلى جوفه ، لكأنما كان منذ مولده يفضل غذاء الروح على غذاء الجسد ويقدم ضرورة النفس على ضرورة

البدن .

وترقرقت الدموع شفقة في عيني آمنة . أيعيش ابنها يومين دون أن يطعم ؟  
دون أن يدخل جوفه شيء ؟ وحاولت أن تلقمه ثديها إلا أنه زم شفتيه . وفي  
الصباح جاءت ثوية وما إن أعطته ثديها حتى أخذه وراح يرضع ، فتهللت  
أسارير آمنة بالسرور وانشرح صدرها وطفرت إلى مآقيها العبرات ،  
وذاع في دور بني هاشم أن ابن عبد الله قد برأ مما ألم به . فجاءت هالة بنت  
وهيب وهي تحمل ابنها حمزة ، وجاء بعض نسوة بني هاشم لزيارة آمنة ، وما  
كاد يستقر بهن المقام حتى أقبل عبد المطلب وفي يده ابنه العباس وكان ابن ثلاثة  
أعوام ليرى حفيده .

وحملت بركة محمدا وجاءت به إلى العباس لينظر إليه فجعل النسوة يقلن  
للعباس :

— قبل أخاك .. قبل أخاك .

فمال العباس على ابن أخيه وقبله ، وعبد المطلب ينظر وقد انبعثت فيه  
عواطف رقيقة حانية . وأعادت بركة محمدا إلى فراشه ، وبعد قليل أنامت هالة  
ابنها حمزة بن عبد المطلب إلى جواره ، وانسل العباس لينظر إلى أخيه وابن أخيه  
وما خطر على قلب أحد من الذين أخذوا بأطراف الحديث أن في فراش الوليد  
وعلى جواشيه اجتمع مجد الأرض ومجد السماء .

وجاء اليوم السابع من مولده فذبح عبد المطلب عنه وأقام وليمة دعا إليها  
قريشا ودبت الحياة في شعب بني هاشم ، كان الحارث والزبير وأبو طالب  
وأبناء المطلب فرحين مستبشرين . وكان العباس يغدو ويروح بين إخوته ثم  
استقر في حجر أبيه ، وانتهى الناس من الطعام والشراب والتفت أحدهم إلى  
عبد المطلب وقال :

— يا عبد المطلب أرأيت ابنك هذا الذي أكرمتنا على وجهه ما سميته ؟  
— سميته محمدا .

— فما رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟  
— أردت أن يحمده الله في السماء وخلقه في الأرض .

ولم تمطر السماء في هوازن فكانت سنة جذب وشدة ، ففكرت بعض أسرات من بنى سعد أن تخرج إلى مكة التماسا للرضعاء فقد كان أشراف مكة يدفعون بأبنائهم إلى البادية ليبعدوهم عن قيظ بلادهم وليلتقطوا الفصاحة من أهل الصحراء ، وكانت الأسرات البدوية تتنافس على أبناء الأثرياء دفعا لغائلة الجوع التي تهددهم في السنين الشهباء .

قدمت مكة في اليوم الثامن لمولد محمد عشر نسوة من بنى سعد بن بكر يلتبس بها الرضعاء ، وكانت فيهن حليلة بنت أبي ذؤيب ، وهو عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بن ناصرة بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان بن مضر .

كانت حليلة على أتان عجفاء كانت من شدة ضعفها تعطل سير الركب ، وكان معها صبي وناقة ما تبض بقطرة لبن ، وكان يسير إلى جوارها زوجها الحارث بن عبد العزى . وقد تقضت ليلة وهم في الطريق لم يذوقوا فيها طعم النوم من صبيهما من بكائه من الجوع لا تجد في ثديها ما يغذيه ولا في ناقتها ما يغذيه ، ولكنها كانت ترجو الغيث والفرج .

وبلغ ركب بنى سعد البيت المقدس فكان أول ما فعلوه أن طافوا بالحرم ثم جلسوا ينتظرون مواليد أشراف مكة وساداتها ، وذاع في الدور أن نسوة من بنى سعد قد من يلتبس الرضعاء فخرج الجوارى والعبيد يحملون الأعزة على سواعدهم ، وجاء عبد المطلب ومن خلفه بركة وعلى يديها محمد بن عبد الله

ولم يمض على مولده غير ثمانية أيام .

وعرض عبد المطلب حفيده على إحداهن فالتفتت إليه وقالت :

— أنت أبوه ؟

— لا . أبوه قد مات .

— يتيم ؟

فأوماً عبد المطلب برأسه فى أسى .

فقال المرأة :

— ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه ؟

كان عبد المطلب سيد قومه وكان يطعم حتى الطيور والجوارح والوحوش فى رءوس الجبال ، وعلى الرغم من صيته وغناه أكرضت المرأة عن حفيده ، فعبد المطلب يوم فى مكة ويوم فى اليمن ويوم فى الشام ، ومن يدرى فقد ينصرم أجله ويصبح عبثاً على من يأخذه .

وذهب عبد المطلب بمحمد إلى امرأة أخرى ، وأبت المرأة أن تأخذه لما علمت أنه يتيم وقالت :

— إنما نرجو المعروف من أبى الولد ، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا ؟ ووقفت آمنة على البعد تنظر وعبد المطلب يدور بابنها الحبيب على المراضع والنسوة يجفلن منه لأنه يتيم ، كأن اليتيم عندهن بلاء يستوجب الإعراض والفرار .

وذهب عبد المطلب إلى حليلة وقد كانت ذابلة عجفاء وقد وصل إليها نبأ حفيد عبد المطلب اليتيم ، وتقدمت آمنة خطوات وأرهفت سمعها لتلتقط ما تقول السعدية ، وإذا بصوت المرأة يقرع أذنها ويحرك أشجانها فتمتلئ بالعبرات مآقيا ، قالت حليلة :

— يتيم ؟ ماذا عسى أن تصنع لنا أمه ؟ إنما نرجو المعروف من أبيه .  
عرض عبد المطلب حفيده على النسوة العشر فأبين جميعا أن يأخذنه ،  
فأطرقت آمنة وسارت في خطى وئيدة حزينة والأسى يهصرها هصرًا . ولو  
أصغت إلى الوجود لالتقطت أذناها صوت السيد المسيح وهو يقول :  
« الحجر الذى رفضه البناءون صار حجر الزاوية » ، ولتهللت نفسها بالفرح  
ولانقشعت تلك الدموع التى بللت روحها .

ودارت بركة جارية عبد الله الحبشية على عقبها وهى تنظر إلى ابن عبد الله  
فى إشفاق وقد حرك عواطفها أن النسوة جميعا تركنه لموت أبيه ، وزاد فى  
أساها أن أصوات النساء راحت ترن فى أعماقها : يتيم ؟ يتيم ؟ يتيم ؟ فتمزق  
نياط قلبها .

وراحت خليمة السعدية تتلفت فرأت أنه لم يبق من صواحبها امرأة إلا  
أخذت رضيعا غيرها ، فمن ذا الذى يدفع بابنه إلى امرأة لا تجد فى ثديها ما  
يسكت بكاء ابنها ؟

وأجمع النسوة على الانطلاق ، فذهبت خليمة إلى زوجها وقالت :  
— والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع . لأنطلقن  
إلى ذلك اليتيم فلاخذنه .

— لا عليك أن تفعلى ، فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة .  
لم تتحرك شفقة خليمة السعدية لذلك اليتيم بل كرهت أن تعود دون  
رضيع ، فذهبت وأخذته وما أخذته إلا أنها لم تجد غيره .  
وعادت خليمة بمحمد إلى رحلها وألصقت ثديها فإذا به يجود باللبن ،  
والتفتت خليمة إلى زوجها الحارث وفى عينيها دهشة وفرح . وشرب محمد

حتى روى وأعطت ثديها ابنها فشرب حتى روى .  
وجاء الليل ونام الصبي وعرف الوسن إلى عيني حليلة وعيني الحارث  
فباتوا بخير ليلة ، فلما أصبح الصباح قام الحارث منشرح الصدر وألقى نظرة  
على محمد فألفاه بهادئا ساكنا ، وأحس أن قلبه قد تفتح لذلك الصبي فالتفت  
إلى حليلة وقال :  
— والله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة .

جاء زيد بن عمرو بن نفيل إلى الكعبة وهو راكب جملة ، وألقى نظرة على الأصنام التي وضعت في داخل أول بيت وضع للناس وحوله فأحس أعماق الأسى ، وسرح به الخيال فرأى نفسه في نفر من قريش : ورقة بن نوفل وعثمان ابن الحويرث وعبد الله بن جحش بن أميمة بنت عبد المطلب ، وقد حضروا عند وثن لهم كانوا يذبحون عنده لعيد من أعيادهم وقد خلا بعضهم إلى بعض وقالوا :

— تصادقوا وليكنم بعضكم على بعض .

فقال قائل منهم :

— تعلمن والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطئوا دين إبراهيم وخالفوه .  
وثن يعبد لا يضر ولا ينفع ؟ فابتغوا لأنفسكم .

ورأى زيد نفسه وقد عزم على الخروج من مكة ليطلب الدين القيم ، ورأى زوجه صفية بنت الحضرمي وهي تنسل إلى أخيه الخطاب بن نفيل وتوسوس له برغبة زيد ، فيقبل الخطاب يرغى ويزبد ويتوعد ويبذل كل ما في جهده ليحول بين أخيه والخروج لالتماس دين غير دين آبائه .

وفي غفلة من الخطاب وضيغه انفلت إلى الشام وراح يطلب في أهل الكتاب الأول دين إبراهيم ، ثم انطلق إلى الموصل وجاب الجزيرة كلها ، ثم أقبل حتى أتى الشام فجال فيها حتى أتى راهبا بيعة من أرض البلقاء فسأله عن

الحنيفية دين إبراهيم ، فقال له الراهب :

— إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يملك عليه اليوم ، لقد درس من علمه وذهب من كل يعرفه .

— على أى دين كان ؟

— كان حنيفا لم يكن يهوديا ولا نصرانيا . كان يصلى ويسجد إلى هذا البيت الذى ببلاذك ، فالحق ببلاذك فإن الله يبعث من قومك فى بلادك من يأتى بدين إبراهيم الحنيفية .

ورأى ورقة بن نوفل وقد تنصر ، وعثمان بن الحويرث وقد اعتنق المسيحية ومال إلى الروم وقد راحت تراوده فكرة الانطلاق إلى القسطنطينية ، ثم رأى نفسه وقد كره الدخول فى المسيحية أو اعتناق اليهودية وآثر أن يحاول أن يعبد الله على ملة إبراهيم .

وظل زيد على ظهر جملة ينظر إلى الكعبة وهو شارد ، فرأى نفسه وقد عاد إلى مكة ليدعو قومه إلى دين أبيهم إبراهيم ، فإذا بأخيه الخطاب يغلف له فى القول ويحرض الناس عليه وآذاه أذى كثيرا حتى خرج منه إلى أعلى مكة . ولم يقنع الخطاب بذلك بل وكل به شبابا من قريش وسفهاء من سفائهم وقال لهم : « لا تتركوه يدخل » . ورأى زيد نفسه وهو يدخل مكة سرا يتلفت خشية بطش أخيه به .

وسرح خياله فإذا به يتذكر ذلك اليوم الذى جاء فيه إلى مكة والناس يذبجون الذبائح لآلهتهم ويذكرون عليها أسماء تلك الآلهة ، فقال لهم :

— الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأنبت لها من الأرض ، ولم تدبحوها على غير اسم الله ؟

كان يوما قاسيا شديدا فقد قام إليه الرجال وأوسعوه ضربا حتى كادت تزهق روحه ، إنه لا ينسى ذلك اليوم وإنه ليعجب لقومه يضطهدونه لأنه يدعوهم إلى دين أبيهم إبراهيم ، بينا يسير ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث وعبد الله بن جحش آمنين وقد خرجوا عن دين القوم واعتنقوا النصرانية .

ورفع زيد يديه إلى السماء وقال :

— اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم . اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك ولكني لا أعلم .

ثم سجد على راحلته وانصرف راضيا وكل خلجة من خلجات نفسه تقول :

— إلهي إله إبراهيم ، وديني دين إبراهيم .

وجاء أوان الحج فأقبل العرب من كل فج عميق يطوفون بالبيت العتيق ويذبحون عند إساف ويتمسحون بالأصنام ، وأقبل زيد بن نفيل ودخل الكعبة ثم قال :

— لبيك حقا حقا ! تعبدا ورقا ! عذت بما عاذ به إبراهيم وهو قائم ، إذ قال إلهي أنفي لك عان راغم ، مهما تجشمني فإني جاسم ، البر أبغى لا أنحال ، ليس مهجر ( في شدة الحر ) كمن قال .

ووقع بصره على هبل وقد خف الناس إلى كاهنه ليستقسموا بالأزلام عنده ، فقال :

— هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل . لا أعبد حجرا ولا أصلي له ولا آكل ما ذبح له ولا أستقسم الأزلام ، وإنما أصلي لهذا البيت حتى أموت .

ووقف الخمس يقدمون ثياب الطواف للناس إعارة أو كراء فقد أذاعوا بين

الحجيج أنه لا يجوز الطواف في ثياب اقترفت فيها الخطايا ، وراح الفقراء يطوفون عرايا ، أما الذين طافوا في ثيابهم فقد خلعوا ثيابهم بعد الطواف وطرحوها لقى لتبلى من وطأة الأقدام ولفح الشمس وهبوب الرياح .  
وراح الحجيج يسعى بين الصفا والمروة إحياء لذكرى هرولة هاجر لما كانت تبحث عن ماء لابنها إسماعيل الذى كان يموت عطشا . وأقبل الناس على ماء زمزم الذى وضعه عبد المطلب فى أحواض من آدم وبث فيه التمر والزبيب .

وراح الناس يمارسون شعائر الحج التى بقيت من أيام أبيهم إبراهيم الخليل وقد اعتورها ما اعتور الدين القيم من تبديل ، فقد وضعت الأصنام فى الأماكن المقدسة على الصفا والمروة وعلى جبل ثبير ، بل تكدست الأصنام فى جوف منارة التوحيد تكديسا .

كان إبراهيم يلبي فى الحج : « لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك ! » . فلما عرف العرب عبادة الأوثان تبدلت التلبية لتتفق مع معتقدتهم الجديد ، فأضافوا إلى تلبية التوحيد تلبية الشرك فتجاوبت فى عرفات نداءات المشركين كانوا يحسبون أنهم يحيون شعائر إبراهيم الخليل :

— لبيك اللهم لبيك ! لبيك لا شريك لك لبيك ! إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك .

وضاق زيد بذلك الشرك وهو واقف معهم على عرفات وقد التصق كتفه بأكتاف سادات قريش وأشراف العرب ، ولكنه ما كان قادرا على أن يفعل شيئا . أيستطيع أن يكلم هذه الأفواه التى تضج بتلبية إبراهيم الخليل وقد دنس توحيدها الرائع شرك مبین ؟ إنه أعجز من أن يقف فى وجه ذلك الطوفان من

البشر الذى اختلط فى وجدانه الكفر بالإيمان . وتذكر قريشا وهى تطوف بالكعبة وتقول : « واللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، فإنهن الغرائق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى » . فامتلاً فؤاده أسى وحسرة على قومه الذين يتشفعون إلى الله بأصنام لا تنفع ولا تضر .

وراحت تلبية الشرك ترن فى أذنيه وتؤلّم روحه ، وأراد أن يصم أذنيه عن تلك التلبيات التى ظاهرها وباطنها عذاب فارتفع صوته يردد :  
— لبيك لا شريك لك ولا ند لك ! .. لبيك لا شريك لك ولا ند لك !  
ولكن صوته ضاع بين الأصوات المشتركة التى كانت تتصاعد مدوية تريد أن تبلغ السماء .

كان على عرفات عرب من الحيرة والشام ويثرب وثمود وتيماء ومن كل قبائل الحجاز واليمن قد جاءوا كلهم ليؤدوا فريضة أبيهم إبراهيم الخليل . وكان منهم حنفاء يؤمنون بالله وحده وإن كانوا لا يعرفون على أى وجه يعبدونه . وصابئة يعبدون الله وصابئة يعبدون الملائكة وصابئة يعبدون الكواكب والنجوم . وكان فيهم من يعبد الأصنام وهو يعتقد أنها رمز لقوى فوق قوى البشر ، ويؤمن بأنها تدبر وتدبر سير الطبيعة وسير حياة الإنسان ، ومن يعبدها وهو يعرف أنها رمز للشمس والقمر فقد كانت عبادة الشمس والقمر فى العرب قبل أن يهديهم إبراهيم الخليل إلى الله ، وقد ارتدوا إليها لما طال عليهم العهد وطمرت أساطير الأولين جوهر دين الإسلام . ملة أبيهم إبراهيم .

كان العرب الذين جاءوا من كل فج عميق ليقفوا جنبا إلى جنب فى عرفات يؤمنون جميعا برب البيت . وما تحملوا متاعب السفر إلى الحرم إلا لاستمالته واسترضائه لعله يرضى عنهم ولكنهم ضلوا الطريق إليه ، تقربوا إليه بالملائكة

والكواكب والنجوم ، وبالأصنام والأوثان ، وجعلوا له أندادا وشركاء  
وبنات يشفعون لهم ويقربون إليه زلفى .

وعلى عرفات نسى عرب الحيرة أنهم عرب الفرس ، ونسى عرب  
الغساسنة أنهم عرب الروم ، ونسى عرب القبائل ما بينهم من عداوات وإحن ،  
وتوجهوا جميعا بقلوبهم إلى السماء وإن كانت ألسنتهم تلبى تلبيات تضلهم عن  
سبيل الله .

وراح عبد المطلب وبنوه يسهرون على راحة حجيج بيت الله يقدمون  
الطعام لمن يحتاج إلى طعام ، ويسقون الناس وهم يلبنون تلبية قريش وإن  
اختلفت فكرة كل منهم عن إلهة ، كان عبد المطلب يؤمن ببعض ما سمعه من  
يهود يثرب أيام كان صبيا ، وكان يعتقد مثلهم أن ليس بعد هذه الحياة حياة ،  
وأن المرء يجزى بأعماله في هذه الدنيا ؛ ولكن تجارب الأيام علمته أن بعد هذه  
الحياة حياة أخرى يحاسب فيها المرء على أعماله إن خيرا فخير وإن شرا فشر .  
وكان بعض قومه يؤمنون بالآخرة فكانوا يربطون ناقة الميت عندما يموت إلى  
قبره حتى تموت معه لكي يمتطيها يوم الحساب ويسير بها إلى الصراط .

وكان أبو طالب وأبو لهب والحارث والزبير يعتقدون أن ليس بعد هذه  
الحياة حياة ، كانوا من شباب قريش الذين أنكروا البعث . وقد كان كثير من  
شباب مكة مثلهم يعكفون على شرب الخمر وعلى اللهو ولا يتصورون أن تلك  
الأصنام التي يعبدونها قادرة على أن تحييهم مرة أخرى بعد أن يكونوا عظاما  
ورفاتا ، وكانوا يتقربون إلى آلهتهم بالقرايين والدعوات لتجزيهم على أعمالهم  
في الحياة الدنيا .

وكان العباس في كنف أمه ينتظر أوبة أبيه عبد المطلب من الحج ، وكان

حمزة بن عبد المطلب بين ذراعى هالة بنت وهيب لا يدري ما الحج وما البيت وما الآلهة.، وكان محمد بن عبد الله فى بنى سعد ترضعه حليلة ويتطلع إلى وجوه إخوته من الرضاعة عبد الله بن الحارث وأنيسة بنت الحارث والشيماء ، وكانت تحضنه مع أمها وقد تعلق قلبها بحب الوليد الذى جاءهم من حرم الله .

وراحت قبائل العرب تضج بالتلبية والشمس تميل للغروب وقد أطالوا النظر إلى أصنام آلهتهم التى جلبوها معهم . ولو أصاخوا سمعهم إلى دعاء أبيهم إبراهيم الخليل يوم أن جاء إلى الوادى المقدس : « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم . » لحطموا آلهتهم ، ولكن طال عليهم الأمد وقست قلوبهم فجعلوا لله أندادا .

وراحت الشمس تغيب فى الأفق البعيد فانطلقت من الحناجر ابتهالات وخفقت القلوب بين الصدور وانهمرت الدموع من العيون وترقب الناس أن تتجلى عليهم السماء . وما إن غاصت الشمس فى رمال الصحراء وغابت عن العيون حتى نفر الحجاج إلى منى وهم يلبنون تلبية الشرك ، وانطلق زيد بن نفيل من عرفة ماشيا وهو يقول :

— لبيك متعبدا مرقوقا . لبيك متعبدا مرقوقا .

وضاعت تلبيته بين تلبيات الشرك والضلالة .

كانا يطوفان حول الكعبة وفي قلبيهما أسى على الأصنام التى تكدست فى جوفها ومن حولها ، وعلى قومهما الذين تركوا دين أبيهم إبراهيم وجلبوا الأصنام من كل بقاع الأرض لتقربهم إلى الله زلفى ، كانا ورقة بن نوفل وعثمان ابن حويرث .

رأى ورقة وعثمان وزيد بن نفيل أن آلهتهم إن هى إلا أحجار لا تضر ولا تنفع . فخرجوا إلى يثرب وإلى الشام وإلى الحيرة وألقوا السمع إلى أحبار اليهود ورهبان النصارى ، فتنصروا ورقة وعثمان ، وأبى زيد أن يدخل فى النصرانية بعد أن فسدت وجعلت الله ثالث ثلاثة ، فراح يبحث عن دين إبراهيم ، الحنيفية الحققة ، ففيل له إن ما تبحث عنه يوشك أن يظهر فى قومك ، فعاد إلى مكة وقد أعلن أنه على دين إبراهيم ، وإن كان لا يدري على أى وجه يعبد ربه ، وراح يرقب الأيام ينتظر ذلك الذى سيعثه الله ليعيد ملة أبيهم إبراهيم بيضاء ناصعة .

دخل ورقة وعثمان وغيرهما من سادات قريش فى دين النصرانية ولكنهم لم يؤمنوا بوحدة طبيعة المسيح ولم يؤمنوا بلاهوت المسيح وناسوته ، لم يكونوا نساطرة ولا يعاقبة ، بل آمنوا بأن المسيح رسول من عند الله كان يأتيه الخبر من السماء ، وأنه عبد من عباده وأمه صديقة .

وقد حاول ورقة وعثمان ومن اتبع النصرانية من قريش ، وزيد بن نفيل الذى أراد أن يعود إلى دين إبراهيم إلى الوحدةانية الخالصة ، أن يهدوا قومهم إلى

الدين القيم ، ولكن قومهم آذوهم أذى شديدا ، ووضعوا أصابعهم في آذانهم وأعرضوا عنهم ، فسكت الذين تنصروا والذين كفروا بعبادة الأوثان عن هداية قومهم ، فقد عجزوا عن احتمال الاضطهاد والعذاب فلم يكونوا من أولى العزم ولم يكونوا من أصحاب الرسالات .

وكان ورقة وعثمان ومن اتبع دين السيد المسيح من العرب يطوفون بالبيت ويقفون المواقف في الحج ، فقد كانوا يؤمنون بأن البيت العتيق هو أول بيت وضع للناس وأن إبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل قد أقاما قواعده ، وأن الحج شريعة الخليل وأنه ركن من أركان الإسلام الذي جاء به أبو الأنبياء ، وإن كان العرب قد دسوا عليه ألوانا من الشرك بعد أن زاغت عقائدهم لما طال عليهم الأمد .

وعكف ورقة بن نوفل على دراسة التوراة والإنجيل ، وراح يتردد على بيع الرهبان وأحبار اليهود يناقشهم في أمر الدين ويتلقى منهم ما عندهم من علم . وقد لفت انتباهه أن موسى بشر بنى يوحا إليه ليس من بنى إسرائيل بل من أبناء أعمامهم من نسل إسماعيل أبي العرب ، وراح ورقة يدرس في إمعان نبوءات السيد المسيح « بالفراقليط » خاتم المرسلين الذي سيمكث مع الناس إلى الأبد ، وقد سمع ورقة ولا شك لما ذهب إلى الحيرة بذلك الذي بشر به زرادشت « صاحب الجمل الأحمر » الذي سيعث في العرب .

واستولت فكرة أن يبعث الله نبيا أميا — من الأمم لا من بنى إسرائيل — على كل تفكيره ، فراح ينقب في كتب الأولين عن ذلك النبي وراح يطوف على الأحبار وصوامع الرهبان وعلى رعاة النجوم ، فأكد له أحبار اليهود ورهبان النصارى والناظرون في النجوم أن نجم ذلك النبي قد طلع وقد أظلم العالم

زمانه ، فبات ورقة ينتظر مبعث ذلك النبی لیكون أول من یؤمن به وینصره نصرًا مؤزرا .

وانتهی طواف ورقة وعثمان فانطلقا إلى حیث كان عبد المطلب جالسا على فراشه فی ظل الكعبة ومن حوله بنوه ، وخوילد بن أسد وأمیه بن حرب وعتیق ابن عابد زوج خدیجة بنت خویلد ، فألقیا على الجميع التحية . ثم ذهب ورقة لیجلس إلى جوار خوילد ابن عمه وذهب عثمان لیجلس إلى جوار أمیه .

كان كل الحاضرين ینتهی نسبهم إلى قصی مجمع قریش ، وكانوا سادات قومهم وأشرفهم ، وكان الحدیث یدور بینهم عن الوفد الذی سینطلق إلى الیمن لتهنئة سیف بن ذی یزن على انتصاره على الأحباش وعودة ملك حمیر إلى العرب . وتشعب الحدیث فراح قائل یقول : إن الأحباش قد هزموا قبل أن یأتی سیف بجنود فارس ومراكب كسرى أنوشروان ، هزموا هنا یوم أرادوا أن یهدموا بیت الله فباءوا بالخزى والعار . وقال قائل إن أبرهة قد هزم منذ ذلك الیوم الذی اغتصب فیہ زوجة ذی جدن وقبل أن یرزق منها مسروقا ، فلا یبنى ملك على الغصب والظلم والقهر والاستبداد . وقال قائل إن هزيمة أبرهة كانت ببركة دعاء عبد المطلب ، ولم یقل أحد منهم إنها كانت ببركة ذلك الذی كان لا یزال فی بطن آمنة بنت وهب . حتی ورقة بن نوفل الذی كان یتعجل ظهور نبی بنی إسماعیل لم یدر بخلده أن محمد بن عبد الله الطفل الرضیع الذی ذهب إلى مضارب خیام بنی سعد على یدی حلیمة السعدیه ، هو نبی هذه الأمة ، وأن الله قد قیض له فرصة خروجه منذ مولده إلى البیداء لتتكون الأسباب بینہ و بین السماء ولتشتد أواصرها على مر الأيام .

واستمر الحدیث بینهم وعثمان بن الحویرث فی شروده لا یسمع شیئا مما

يدور حوله ، فقد كان يفكر في الذهاب إلى القسطنطينية إلى مقر قيصر ، ليقابل يوسطينوس الثاني ويعرض عليه أن يكون ملكا من قبله على مكة يؤيده بقوته على أن يحمل إليه خراج بلاده . ولم يجد فيما يدور في خاطره معرة ولا خيانة فسيف بن ذى يزن يحكم اليوم اليمن بسلطان كسرى ، والنعمان بن المنذر يحكم الحيرة بسلطان أنوشروان ، وملوك الغساسنة يحكمون الشام بسلطان القياصرة ، حتى مشايخ القبائل كانوا مؤيدين بكسرى أو قيصر .

وراح عثمان يستعيد كل ما سمعه عن استقبال القصر القيصري للحارث بن جبلة ملك الغساسنة لما انطلق إلى القسطنطينية ، ويجرى خياله خلف كل ما وعته ذاكرته عن ذهاب امرئ القيس إلى القيصر يوسطينانوس يستعين به على استعادة عرشه ، وما كان من صداقة بينهما ومنادمة حتى إنهما كانا يدخلان الحمام معا . ترى كيف يكون استقبال الإمبراطور يوسطينوس له إذا ما شد الرحال إلى القسطنطينية وماذا سيقول لقيصر وماذا سيقول قيصر له ، واستمر عثمان يحلق وراء أحلامه المجنحة ولم يفق من شروده إلا على صوت عبد المطلب وهو يسأله :

— وأنت يا عثمان هل ستذهب في وفدنا المسافر إلى اليمن لتهنئة ابن ذى يزن ؟

وقال عثمان في اقتضاب :

— لا .

وكان منطقيا مع نفسه فكيف يذهب إلى تهنئة حليف فارس إذا كان يفكر في الانطلاق إلى قيصر يعرض عليه أن يوليه أمر الحجاز ، وأن يكون له مثل سيف بن ذى يزن لكسرى ؟ . وعاد عثمان يسرح وراء خياله فراح يؤكد

لنفسه أن قيصر سيرحب بما سيعرضه عليه ، فأباطرة الروم يتمنون أن تكون كعبة العرب حليفة لهم ، فلو أنهم اطمأنوا إلى أنها قد صارت في معسكرهم فذلك يزيد من مكانة الروم في أعين العرب .

ونهض خويلد بن أسد وزوج ابنته عتيق بن عابد ، وقبل أن ينصرفا قال خويلد لورقة :

— ألا تأتي معنا ؟

— أين ؟

— إلى دار عتيق .

— إني لم أر الطاهرة بعد أن وضعت طفلتها .

كانت خديجة تعرف بالطاهرة ولما تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها ، ولم تكن تشارك فتيات مكة في مجونهن ، وكانت على الرغم من حداثة سنّها تنأى عن مجالس اللهو وتهتم بقوافل قريش وبتجارة أبيها . وكانت تستريح إلى مجلس ورقة فقد كان يحدثها حديثا طليا عن الأديان وعن الرسل الذين يعيشهم الله لهداية البشر .

وانطلق خويلد وعتيق وورقة إلى دار خديجة ، ولحمت جاريتها من الشباك إقبال سيدها وصحبه فخفت إلى سيدتها تقول :

— سيدى الصغير وسيدى الكبير وسيدى ورقة.

وأسرعت الجارية تفتح الباب ، وقامت خديجة لتستقبل القادمين . وإن هي إلا لحظات حتى كان الجميع جالسين في غرفة أثت برياش فاخر جلب من الشام ومن الحيرة ومن اليمن ، ولا غرو فقد كانت خديجة بنت سيد من سادات قريش وتاجر من أكبر تجارها .

وجاءت هالة بنت خويلد أخت خديجة ، وما كادت تستقر حتى قالت  
خديجة لأختها :

— هاتي هند فابن العم ورقة لم يرها بعد .

وقامت هالة وما لبثت أن عادت وهي تحمل ابنة أختها هند بين يديها وقد  
أشرق وجهها بابتسامة عذبة . ولاح في وجه عتيق السرور وهو يرنو إلى  
ابنته ، وأخذ خويلد الطفلة وقبلها ثم قدمها إلى ورقة ، وما كادت الطفلة  
تستقر بين يديه حتى قالت هالة :

— إني غاضبة .

فقال ورقة مداعبا :

— لأنها أجمل منك !

— بل لأن خديجة لم تسمها باسمي .

فقالت خديجة وقد رفت على شفيتها بسمة رقيقة :

— لا تغضبي فسأسمي وليدي الثاني هالة ، سواء أكان ذكرا أم أنثى .

وقال خويلد مداعبا :

— وأنا ؟

فقالت هالة في مرح :

— ألا يكفيك يا أبتاه أننا نحمل اسمك ؟

وأراد خويلد إغاضتها فقال :

— ومتى خلدت البنت اسم أبيها ؟

فقال ورقة في هدوء :

— إذا ما تزوجت عظيما أو أنجبت سيدا من سادات قومه .

وقالت هالة :

— أو سادت قومها .

ضحك الجميع حتى هالة ضحكت من قولها ، وما لبث ورقة أن كف عن الضحك وقال :

— وفيم ضحكنا ؟ إن ملكة سبأ سادت قومها .

وقال خويلد :

— والزباء ملكة تدمر .

وراحت الروايات تروى عن ملكة سبأ وعن الزباء التى وقفت فى وجه الرومان حتى وقعت أسيرة فى أيديهم وحملت إلى روما ، فقد كان سادات قريش وعقائلمهم وبناتهم على علم بالأحداث الجارية فى العالم من حولهم . وذهبت هالة بهند بنت خديجة وشغلت بمداعبتها عن كل ما حولها ، وقام خويلد وعتيق بن عابد إلى الشراب ، واعتذر ورقة بن نوفل لأن الخمر حرام فقد كانت تشرب فى الكنائس وفى كل مكان من العالم المسيحى على زعم أن المسيح كان شريب خمر ، بل لأنه كان يحدث خديجة حديث الأنبياء وهو حديث حبيب إلى قلبه وروحه .

كان ورقة يحدث أخته رقيقة عن النبى العربى الذى يجده مكتوبا فى التوراة والإنجيل حتى جعلها تتمنى أن تكون أم ذلك النذير ، فراخت تنفوس فى وجوه شباب قريش فرأت فى وجه عبد الله شيئا مثيرا جذبها إليه وجعلها تعرض نفسها عليه لتحقيق لها الآمال ، ولكن عبد الله دخل على آمنة بنت وهب وذهب عنه ذلك السحر الذى هفت إليه ، فعافته نفسها وأعرضت عنه لما جاء إليها بعد أن بنى بآمنة يسألها ، لم لا تعرض عليه اليوم ما كانت تعرضه

بالأمس .

كان حديث ورقة عن النبي الأمي ، الذي سيعث في الأمم لا في بني إسرائيل مثيرا ، وكان يستولى على أفئدة سامعيه ، وكان يزيد ذلك الحديث روعة الغموض الذي يكتنفه ، فقد كان ورقة يضع نصب عينيه مآثر موسى والسيد المسيح وهو يشير باقتراب ظهور « الفراقليط » .

وراحت خديجة تصفى إلى ورقة وهي مأخوذة بعذب حديثه ، إنه يحدثها عن أصنام قومها ويسخر من أنها كلها إناث : اللات والعزى ومناة . « إن يدعون من دونه إلا إناثا » ويخبرها أن قومها قد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ويقص عليها قصة رحلته في الأرض ليأخذ علمه عن أهل العلم ، وما كان بينه وبين زيد بن عمرو بن نفيل لما قال لهم العلماء ، إن أحب الدين إلى الله دين هذا المبشر به ، فقد قال لزيد ، أنا أستم على نصرانيتي إلى أن يأتي هذا النبي . أما زيد فقد أبى أن يتنصر واجتهد في أن يتبع ملة إبراهيم ، وعاد إلى مكة ينتظر ظهور ذلك المبشر به .

كانت خديجة لم تتجاوز الخامسة عشرة ، وكانت مقبلة على دنيا مشرقة كلها بهجة وهو ومرح ، إلا أنها كانت تجد نفسها تتفتح للأحاديث الجادة ، أحاديث التجارة وأحاديث الدين ، وقد ألقت إلى ورقة سمعها فتشوقت إلى ذلك العصر الذي يتحدث عنه ورقة حديث الواصل ، وتمنت أن يمتد بها العمر لترى ذلك الذي بشرت به الأنبياء ، وما دار بخلدتها في تلك اللحظة أن الله يدخرها لتكون نعم السند لذلك النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل .













































































































